الشوقيات (مجلد ٢)



أحمد شوقي

الشوقيات (مجلد ٢)

الشوقيات (مجلد ٢)

تأليف
أمير الشعراء أحمد شوقي

كلمات

الشوقيات (مجلد ٢)

أمير الشعراء أحمد شوقي

كلمات عربية للترجمة والنشر

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ + **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

المحتويات

الباب الثالث

سليمان باشا أباظة[1]

مَن ظنَّ بعدّكَ أَن يقولَ رِثاءَ ... فلْيَرْثِ مِن هذا الورى مَن شاءَ
فَجع المَكارمَ فاجعٌ في رَبِّها ... والمجدَ في بانيهِ، والعلياءَ
ونعَى النعاةُ إلى المروءَة كنزَها ... وإلى الفضائل نجمَها الوضَّاءَ
أَأَبا محمدٍ، اتَّئِدْ في ذا النَّوى ... وارفُقْ بآلك، وارحمِ الأَبناءَ
واستبق عِزَّهُم (بطهراءَ) التي ... كانوا النجومَ بها وكنتَ سماءَ[1]
أَدجى بها ليلُ الخطوبِ، وطالما ... مُلِئتْ منازلُها سَنًى وسَناءَ[2]
وإذا سليمان استقلَّ محلَّةً ... كانت بساطًا للندى ورجاءَ[3]
فانظر من الأعواد حولك هل ترى ... من بعدِ طبِّك للعُفاةِ دواءَ[4]
سارت جنازةُ كلِّ فضلٍ في الورى ... لمَّا ركبتَ الآلة الحَدْباءَ[5]
وتيتَّمَ الأيتامُ أَوَّلَ مرَّةٍ ... ورمى الزمانُ بِصَرْفِه الفقراءَ[6]
ولقد عَهدتُكَ لا تُضيِّع راجيًا ... واليومَ ضاع الكلُّ فيك رجاءَ
وعلمْتُ أَنك مَنْ يَوَدُّ ومَنْ يَفِي ... فقف الغداة لو استطعتَ وفاءَ
وذكرتُ سعيَكَ لي مريضًا فانيًا ... فجعلتُ سَعْيِيَ بالرثاء جزاءَ
والمرءُ يُذْكَر بالجمائل بعدَه ... فارفع لذِكْرِكَ بالجميل بِناءَ[7]

[1] سليمان باشا أباظة: أحد سراة مصر الكبار، وكان في حياته كبير الأسرة الأباظية الشهيرة، وقد أُسْنِدَت إليه وزارة المعارف العمومية سنة ١٨٨٢، وتوفي سنة ١٩٠١.

واعلمْ بأَنك سوف تُذْكَر مَرةً   فيقالُ: أَحسنَ، أَو يقالُ: أَساءَ
أَبَنِيه، كونوا للعِدَى مِن بعده   كيداً، وكونوا لِلْوَلِيِّ عَزَاءَ
وتجلَّدُوا لِلخطْب مثلَ ثَباته   أيامَ كان يُدافع الأرْزاءَ
والله ما مات الوزيرُ وكنتمُ   فوقَ الترابِ أَعزَّةً أَحياءَ

هوامش

(١) طهراء: علم على بلد الفقيد، وهي من أعمال إقليم الشرقية بمصر.

(٢) تدجى الليل وأدجى: كلاهما بمعنى أظلم، والسنى — بالقصر —: الضوء، والسناء — بالمد — الرفعة.

(٣) المحلة في الأصل هي الناحية التي ينزل بها القوم، ولا تقل عن مائة بيت، والمراد هنا بقوله: «استقلَّ محلة» أي أنه كان عميدها المنفرد بزعامتها وبالعمل لرفعتها.

(٤) الأعواد: جمع عود، يطلق على المنبر، وعلى السرير للحي أو الميت. كان رجل من العرب يلقَّب «ذا الأعواد»؛ لأنه كان يحمل دائمًا في سرير، والشعراء العظماء يستعملون الأعواد للموتى، وقلَّما يستعملون النعش؛ تعظيمًا للموت وتكريمًا للميت. قال الشريف الرضي: أرأيت مَنْ حملوا على الأعواد.. إلخ. والعفاة: جمع عافٍ، وهو كل طالب فضل أو رزق.

(٥) الجنازة بكسر الجيم وفتحها، وقيل: بالكسر: هي الميت، وبالفتح هي النعش، وقيل بالعكس، وأرجح تعريف يتناسب مع مألوف عصرنا هو إطلاقها بالكسر على سرير الميت والمشيعين له، والآلة الحدباء: كناية عن النعش، وشكله أحدب كما هو معروف.

(٦) صرف الزمان: نوائبه وحدثاته.

(٧) جمائل: جمع جميلة، والمقصود أن المرء يذكر بصنيعته الجميلة، أو بمأثرته الجميلة، فحذف الموصوف، ثم جمع الصفة واستعملها. أقول: وهذه صنعة قصد بها التجميل الفني في الكلام بذكر الجمائل والجميل في البيت.

مصطفى باشا فهمي[1]

يا أيها الناعي أَبا الوُزراءِ — هذا أَوانُ جلائلِ الأَنباءِ
حُثَّ البريدَ مشارقًا ومغاربًا — واركبْ جناحَ البَرْقِ في الأَرجاءِ[1]
واستبكِ هذا الناسَ دمعًا أو دَمًا — فاليومُ يومُ مدامعٍ ودماءِ
لم تَنْعَ للأحياءِ غيرَ ذخيرةٍ — ولَّتْ، وغيرَ بَقِيَّةِ الكُبَراءِ
رُزْءُ البريَّةِ في الوزير زيادةٌ — فيما أَلَمَّ بها منَ الأَرزاءِ
ذهبَتْ على أَثرِ المشيَّع دولةٌ — برجالها وكرائم الأشياءِ
نَدمانُ (إِسماعيلَ) في آثاره — ذهبوا، وتلك صُبابةُ الندماءِ[2]
وُلِدوا على راحِ العُلا، وترعرعوا — في نعمة الأَملاك والأُمراءِ
أَوْدَى الرَّدى بمُهَذَّبٍ لا تنتهي — إلا إِليه شمائلُ الرؤساءِ
صافي الأديمِ، أَغرَّ، أَبْلَجَ لم يَزِدْ — في الشَّيْب غيرَ جلالةٍ ورُواءِ[3]
مُتجنِّبَ الخُيلاءِ إلا عزَّةً — في العزّ حُسنٌ ليس في الخيلاءِ
عَفِّ السرائرِ والمَلاحَظِ والخُطا — نَزِهِ الخلائقِ طاهرِ الأَهواءِ[4]
مُتدرِّعٍ صَبْرَ الكرامِ على الأذى — إن الكرامَ مشاغلُ السفهاءِ

[1] مصطفى باشا فهمي: كان إلهامًا موفقًا لأمير الشعراء حين كنَّاه بأبي الوزراء؛ فهو والد الزعيمة صفية زغلول زوجة الزعيم الخالد سعد زغلول، وكان ياورًا للخديو إسماعيل، ووزيرًا في عهد توفيق، فرئيسًا للوزراء، ثم استقال، ثم عاد للرئاسة ولم يتركها إلا لمرضه قبيل الحرب، وقد توفي أول سنة ١٩١٤م.

نقموا عليه رأْيَهُ وصَنِيعَه ... والحكمُ للتاريخ في الآراءِ
والرأيُ إنَ أَخْلَصْتَ فيه سريرةً ... مثلُ العقيدةِ فوقَ كلِّ مِراءِ[٥]
وإذا الرجالُ على الأُمور تعاقبوا ... كشفَ الزمانُ مواقفَ النُّظراءِ
يا أَيُّها الشيخُ الكريمُ، تحيةً ... أَنْدَى لقبرِكَ من زُلالِ الماءِ
هذا المصيرُ، أَكان طولَ سلامةٍ ... أَمْ لم يكن إلا قليلَ بَقاءِ؟
ماذا انتِفاعُك بالليالي بعد ما ... مرَّتْ بك السبعونَ مَرَّ عِشاءِ؟[٦]
أو بالحياةِ، وقد مشى في صفْوِها ... عادي السنين، وعاثَ عادي الداءِ؟
مَنْ لم يُطبِّبْه الشبابُ فداؤه ... حتى يغيِّبَه بغير دَواءِ
قسماتُ وجهِك في الترابِ ذخائرٌ ... من عِفَّةٍ، وتكرُّمٍ، وحياءِ[٧]
ولكم أَغارَ على مُحَيَّا ماجدٍ ... وطوى محاسنَ مَسمحٍ مِعطاءِ[٨]
كم مَوقفٍ صعبٍ على مَنْ قامه ... ذلَّلْتَه، ونهضتَ بالأَعباءِ
كِبْرُ الغضنفرِ يومَ ذلك زاده ... من نَخْوةٍ وحَمِيَّةٍ وإباءِ[٩]
مَنْ يَكذبِ التاريخَ يَكْذِبْ رَبَّه ... ويُسئ للأمواتِ والأحياءِ
السلم لو لم تُودِ أَمْسِ بجُرحِها ... أَوْدَتْ بهذي الطعنةِ النَّجلاءِ[١٠]
لو أُخِّرَتْ في العيشِ بعدكَ ساعةً ... لبَكَتْ عليك بمَدْمَعِ الخنساءِ[١١]
انفض غبارَكَ عنك، وانظر، هل ترى ... إلاَّ غبارَ كتيبةٍ ولواءِ؟
يا ويحَ وجهِ الأَرض: أَصبح مَأْتمًا ... بعدَ الفوارس من بني حَوَّاءِ
مِن ذائدٍ عن حَوْضه، أَو زائدٍ ... في مُلْكِه من صَولةٍ وثَراءِ
أَو مانعٍ جارًا يُناضلُ دونَه ... أو حافظٍ لِعهودِه مِيفاءِ[١٢]
يتقاذفون بذاتِ هولٍ، لم تَهَبْ ... حَرَمَ المسيحِ ولا حِمى العذراءِ[١٣]
من مُحدَثاتِ العِلْمِ، إلا أنها ... إثْمٌ عواقبها على العلماءِ
لهفي على رُكنِ الشيوخ مُهدَّمًا ... والحاملاتِ الثُّكْلَ واليُتَماءِ[١٤]
وعلى الشبابِ بكلِّ أَرضٍ مَصْرَعٌ ... لهمُ، وهُلْكٌ تحتَ كلِّ سماءِ
خرجوا إلى الأَوطان من أَرواحِهم ... كرمٌ يليق بهم ومَحْضُ سخاءِ[١٥]
من كلِّ بانٍ بالمنِيَّةِ في الصِّبا ... لم يتَّخِذ عِرْسًا سِوى الهَيْجاءِ[١٦]
المُرضِعاتُ سَكبْن في وِجْدانه ... حُبَّ الدِّيار وبِغضةَ الأَعداءِ
وقَررْنَ في أُذْنيهِ يومَ فِطامِه ... أن الدماءَ مُهورةُ العلْياءِ

أَأَبَا البنـاتِ، رُزِقْتَـهُنَّ كرائِمًا ... ورُزِقْت في أَصهارك الكُرَماءِ
لا تذهَبنّ على الذكورِ بحسرةٍ ... الذِّكْرُ نعمَ سُلالةُ العظماءِ
وأَرى بُناةَ المجدِ يَثْلِمُ مجدَهم ... ما خلَّفوا من طالحٍ وغُثاءِ[17]
إن البناتِ ذخائرٌ من رَحمةٍ ... وكنوزُ حبٍّ صادقٍ ووَفاءِ
والساهراتُ لِعلَّةٍ أَو كَبْرَةٍ ... والصابراتُ لشدَّةٍ وبلاءِ
والباكياتُكَ حينَ ينقطعُ البكا ... والزائراتُكَ في العَرَاءِ النائي[18]
والذاكِراتُكَ ما حَيِينَ تحدُّثًا ... بسَوالِفِ الحُرماتِ والآلاءِ
بالأمس عزَّاهنّ فيكَ عقائلٌ ... واليومَ جامَلَهُنَّ فيك رِثائي
وأبيكَ ما الدنيا سِوى معروفِها ... والبِرِّ، كلُّ صَنيعةٍ بجزاءِ
أَجَزِعْنَ أَن يجري عليهنّ الذي ... مِن قبلهنّ جرى على «الزهراءِ»؟[19]
عذرًا لهن إذا ذَهْبنَ مع الأسى ... وطلبن عندَ الدمعِ بَعضَ عَزاءِ
ما كلُّ ذي ولَدٍ يُسمَّى والدًا ... كم من أَبٍ كالصخرةِ الصمَّاءِ
هَبْهُنّ في عقل الرجال وحلمِهم ... أَقلوبُهن سوى قلوب نِساءِ؟

هوامش

(١) البريد: كلمة فارسية، معناها القطع، كانوا يقطعون أذناب وأعراف الخيل المستعملة لنقل رسائلهم؛ علامة لها حتى لا يعوقها أحد في الطريق، وأول اصطناع العرب لهذه الطريقة كان في زمن معاوية، وكانوا يُسمُّون الخيل المستعملة في ذلك خيل البريد، ونحن نطلق كلمة البريد على رسائل البوستة وغيرها كما هو معروف، والمقصود بقوله: «حث البريد» «واركب جناح البرق»: هو الأمر للناعي بإذاعة النعي في الدنيا بأسرع وسائل الإذاعة، والغرض من ذلك هو إظهار ما للنعي من قيمة وخطر وعلو شأن.

(٢) الندمان — بفتح النون الأولى —: جمع نديم، وهو الظريف الكيس، أو المُجَالِس على الشراب. وإسماعيل: هو سمو الخديو إسماعيل.

(٣) الرواء في المرء: هو مظهر السيادة والعظمة.

(٤) الملاحظ: جمع ملحظ: اسم مكان لما تقع عليه اللحاظ. يقول: إنه عفيف القلب، وعفيف الأعين فلا يقع لحظه على الريب.

(٥) المِرَاء: الجدل.

(٦) يقصد سبعين عامًا، ولكنه في استعمال لفظ السبعين يجري مجرى العرب الفصحاء في استعمال هذا اللفظ للدلالة على الكثرة فقط لا العدد بعينه، وفي هذا الباب جاء القرآن الكريم (إن تستغفر لهم سبعين مرة) فليس المقصود عدد الاستغفار، ولكن يراد الدلالة على كثرته.

(٧) القسمات: ملامح وتقاسيم الوجه.

(٨) مسمح — بفتح —: واسع السماحة. وفي القاموس المحيط: «يقال إن فيه لمسمحًا كمسكن. أي متسعًا»، والمعطاء: كثير العطاء.

(٩) الغضنفر: اسم من أسماء الأسد.

(١٠) يشير إلى اتفاق موته مع نشوب الحرب العالمية، كأنه يقول: إن اتفاق موت المرثي مع نشوب الحرب لم يكن إلا لأن المتوفى كان سلمًا لقومه يشبه السلم العام للناس، فهو والسلم توأمان.

(١١) يقول في هذا البيت: إن السلم لو عاشت بعد الفقيد ساعة لبكت عليه بدمع الخنساء، وهي شاعرة عاشت في صدر الإسلام اشتهرت بمراثيها في أخيها صخر، وهذا البيت تأكيد لمعنى البيت قبله.

(١٢) ميفاء: كثير الوفاء.

(١٣) بذات هول: أي مقذوفات موصوفة بأنها ذات هول، وهذا من باب إقامة الصفة مقام الموصوف.

(١٤) الثكل: فقد الأبناء، واليتماء: من اليتم، وهو في الناس فقدُ الأب، ويكون في غير الناس فقدُ الأم.

(١٥) المحض: الخالص من كل شيء.

(١٦) يقال: بنى على فلانة، إذا اتخذها زوجة، والعرس بكسر العين: الزوجة، يصف هذا الشباب السخي بروحه للأوطان بأنه يألف الحروب، ويحبها كما يحبُّ غيره من الناس الزوجات والعرائس والعيشة الوادعة.

(١٧) الغثاء، بضم الغين: الفاسد.

(١٨) العراء النائي: الخلاء البعيد؛ ويعني به هنا القبور.

(١٩) الزهراء: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، والذي جرى عليها هو موت أبيها سيد الخلق ﷺ.

أبو هيف بك[1]

اجعَلْ رِثاءَكَ للرجالِ جَزاءَ … وابعثْهُ للوطنِ الحزين عَزَاءَ
إن الديارَ تُريقُ ماءَ شُئونِها … كالأُمهاتِ وتندُبُ الأَبناءَ[1]
ثُكْلُ الرجالِ من البنينَ، وإنما … ثكلُ الممالكِ فَقْدُها العلماءَ
يَجْزَعْنَ للعَلَمِ الكبيرِ إذا هَوى … جَزَعَ الكتائبِ قد فَقَدْنَ لِوَاءَ[2]
عَلَمُ الشريعةِ أَدركتْهُ شريعةٌ … للموتِ يَنْظِمُ حكْمُها الأَحياءَ[3]
عاني قضاءَ الأَرضِ عِلْمَ مُحصِّلٍ … واليومَ عالجَ للسماءِ قَضاءَ
ومضى وفيه من الشبابِ بقيّةٌ … للنفْعِ أرجى ما تكونُ بقاءَ
إنَّ الشبابَ يُحَبُّ جَمًّا حافِلاً … وتُحَبُّ أَيامُ الشبابِ مِلاءَ[4]
بالأمس كانت لابن هَيْفٍ غَضبةٌ … للحقِّ نَذكُرها يدًا بَيضاءَ[5]
مَشَتِ البلادُ إلى رسالةِ (ملنَرٍ) … وتحفَّزَتْ أَرضًا لها وسماءَ[6]
فلمحْتُ أَعرجَ في زَوايا الحقِّ لم … أَعلمْ عليه ذِمَّةً عَرْجاءَ[7]
ارتَدَّت العاهاتُ عن أَخلاقِه … لسُمُوِّهِنَّ وحَلَّتِ الأَعضاءَ
عَطفَتْهُ عَطْفَ القوسِ يومَ رِمايةٍ … وثَنَتْهُ كالماضي، فزادَ مَضاءَ[8]
لمَّا رأى (التقريرَ) ينفُثُ سُمَّهُ … سَبقَ الحُواةَ فأَخرجَ الرَّقْطاءَ[9]

[1] هو فقيد العلم والقانون عبد الحميد بك أبو هيف، شغل منصب الأستاذ بكلية الحقوق، ومنصب القيِّم على دار الكتب المصرية، وقد وقف في معارضة مشروع ملنر موقفًا قانونيًا لامعًا؛ فاقترن اسمه من ذلك الحين بأعلام المجاهدين الكبار في قضية البلاد، وقد توفي سنة ١٩٢٦.

هَتَكَ الحمايةَ والرجال وراءَها يتلمَّسون لها السُّتورَ رياءَ
ما قبَّحوا بالصبح من أشباحها راحوا إليك فحسَّنوه مَساءَ
يا قيِّمَ الدارِ التي قد أَخْرَجَتْ للمُدْلِجين مَنارةً زَهراءَ[١٠]
وترى لديْها الوارِدِين، فلا ترى إلا ظِماءً ينزلون رواءَ[١١]
وتُجالِسُ العلماءَ في حُجُراتِها وتُسامِرُ الحكماءَ والشعراءَ
تَكفيكَ شَيطانَ الفراغِ، وتَعتني بالجاهلين تردُّهم عُقَلاءَ
دارُ الذخائر كُنْتَ أَكملَ كُتْبِها مجموعةً، وأَتمَّها أَجزاء
لمَّا خلَتْ من كنز علمِكَ أَصبحَتْ من كلِّ أَعلاقِ الكنوزِ خَلاءَ[١٢]
هزَّ الشبابُ إلى رثائك خاطري فوجدْتَ فِيّ وفي الشباب وَفاءَ
(عبدَ الحميد)، أَلا أُسِرُّك حادثًا يَكسو عِظامَك في البِلَى السَّراءَ؟[١٣]
قُمْ من صفوف الحقِّ تَلقَ كتيبةً ملمومةً، وتَرَ الصفوفَ سَواءَ
وتَرَ الكِنانةَ شِيبَهَا وشبابَها دونَ (القضيَّةِ) عُرْضَةً وفِداءَ
جَمَعَ السلامُ الصُّحْفَ مِن غاراتها وتألَّفَ الأَحزابَ والزُّعَماءَ
في كلِّ وِجْدانٍ وكلِّ سَريرةٍ خلَفَ الودادُ الحقْدَ والبَغْضاءَ
وغَدا إلى دين العشيرةِ ينتهي مَنْ خالَفَ الأَعمامَ والآباءَ
لا يحجبون على تجنِّيهم، ولا يجدون إلا الصفْحَ والإغْضاءَ
والأَهلُ لا أَهلاً بحَبْلِ وَلائهم حتى تراهم بَيْنَهم رُحماءَ
كذب المُريبُ يقول: بعدَ غدٍ لنا خُلْفٌ يُعِيدُ ويُبْدِئُ الشَّحْناءَ
قلبي يُحدِّثُني وليس بخائني إن العقولَ ستقهرُ الأَهواءَ
يا (سعدُ)، قد جَرَت الأُمورُ لغايةٍ اللهُ هيَّأَها لنا ما شاءَ[١٤]
سُبْحانَهُ جمعَ القلوبَ من الهوى شَتَّى، وقوَّى حولَهُ الضُّعَفاءَ
الفُلْكُ بعد العُسْرِ يُسِّرَ أَمرُها واستَقبلتْ ريحَ الأُمورِ رُخاءَ
وتأَهَّبَتْ بك تستعدُّ لزاخرٍ تَطأ العواصفَ فيه والأَنواءَ
رجَعَتْ براكبها إلى رُبّانها تُلقِي الرجاءَ عليه والأَعباءَ
فاشْدُدْ بأَرباب النُّهَى سُكَّانَها واجعل مِلاكَ شِراعِها الأَكْفَاءَ[١٥]
مَنْ ذا الذي يختارُ أَهلَ الفضلِ أو يَزِنُ الرجالَ إذا اختيارُك ساءَ؟
أَخرجْ لأَبناءِ الحضارة مَجْلِسًا يُبقي على اسمك في العصور ثَناءَ

هوامش

(١) ماء الشئون: الدموع.

(٢) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجماعة أو الفرقة من الجيش لها لواء؛ أي رئيس تلتف وحدتها حوله.

(٣) الشريعة: القانون.

(٤) الملاء: الأغنياء المتمولون، الواحد منهم مليء، ومن معاني الملاء أيضًا: الحسنو القضاء. يقول: إن الشباب يحب كثيرًا على أي حال، ولكن أيام الشباب يحببن أكثر وهن في غنى، من المال الكثير، ومن تولِّي المناصب، كالحال في شباب الفقيد.

(٥) يريد غضبته على مشروع ملنر، وموقفه في طليعة معارضيه.

(٦) اللورد ملنر: هو أحد وزراء إنجلترا، ورسالته التي مشت البلاد إليها وتحفَّزت لها: هي تقريره المشهور، بُعِثَ من لندن مع أربعة من رجالات مصر الساسة، وكادت البلاد تتأثر بهذا المشروع، لولا الفقيد ومعه نفر قليل جدًا قاموا بحملتهم ضدَّه، وفي هذه الحملة نشر الفقيد بحوثًا قانونية في تفنيد المشروع، كانت من أهم مراجع رجال السياسة في رفضه بعد.

(٧) كانت ساق الفقيد مبتورة، وكان يمشي على ساق صناعية.

(٨) في هذا البيت وصف لهيئة الأعرج، بلغ من جماله أنه قد يحبب المشية العرجاء للناس، فتأمل. والماضي: السيف.

(٩) قوله: «سبق الحواة فأخرج الرقطاء» لا يمكن أن يكون هناك أبلغ في الإعجاز وأدق في الإيجاز من هذا الكلام، فقوله: «سبق الحواة» صورة كاملة، تريك كيف وثب الفقيد فوقف أمام المشروع، كما يثب الحاوي، فيقف أمام جحر الحية. وقوله: «فأخرج الرقطاء» أعظم ما يمكن في تصوير ذلك المشروع؛ فقد نبَّه على السمِّ الكامن فيه، بالرغم من جماله الظاهري ونعومته الشبيهة بنعومة الحية.

(١٠) الدار: هي دار الكتب المصرية، وكان الفقيد يشغل منصب مديرها.

(١١) الرواء: الماء الكثير.

(١٢) أعلاق الكنوز: نفائسها.

(١٣) الحادث: هو حادث ائتلاف الأحزاب المصرية في وقت نظم هذه القصية التي تعدُّ من مفاخر المراثي في الشعر العربي.

(١٤) سعد: هو الزعيم الخالد الذكر سعد باشا زغلول، وكان رئيس البرلمان في عهد ذلك الائتلاف.

(١٥) السكان: مؤخر السفينة. وملاك الشيء: قوامه الذي يُمْلَكُ به.

مولانا محمد علي[1]

بَيْتٌ على أَرضِ الهدى وسمائِه ... الحقُّ حائطُه وأُسُّ بِنائه
الفتحُ من أَعلامه، والطُّهْر من ... أَوصافه، والقُدْسُ من أَسمائه
تَحْنو مَناكِبُه على شعب الهدى ... وتُطِلُّ سُدَّتُه على سينائه[1]
مَنْ ذا يُنازِعُنا مَقالِدَ بابِه ... وجلالَ سُدَّتُه، وطُهْرَ فِنائه؟
ومحمدٌ صلَّى على جَنَباته ... واستقبل السّمحاتِ في أَرجائه؟
واليومَ ضَمَّ الناسَ مأْتَمُ أَرضِه ... وحَوَى الملائكَ مِهْرَجانُ سَمائه
يا (قدسُ)، هَيِّئ من رياضك رَبْوَةً ... لَنزيل تُربكَ، واحتفل بلقائه[2]
هو من سُيوفِ اللهِ جَلَّ جلالُه ... أَو من سيوف الهندِ عندَ قضائه
فَتَحَ النبيُّ له مُنَاخَ بُراقه ... ومَعارجَ التشريفِ من إسرائه
بَطَلٌ حقوقُ الشرقِ مِن أَحماله ... وقضيّةُ الإِسلامِ مِن أَعبائه
لم تُنْسِهِ الهندُ العزيزةُ رِقَّةً ... للشرق، أَو سهرًا على أَشيائه
وقَبَاؤه نَسْجُ الهنودِ، فهل تُرى ... دفنوا الزعيمَ مُكَفَّنًا بقَبائه؟[3]
(النيلُ) يذكر في الحوادث صَوْتَهُ ... والتُّرَكُ لا يَنْسَوْنَ صِدْقَ بَلائه
قل للزعيم محمدٍ: نزل الأَسى ... (بالنيل) واستولى على بَطحائه[4]

[1] هو كبير زعماء الهند المسلمين، توفي سنة ١٩٣١، وكان لا يألو جهدًا في خدمة الإسلام في شتى أقطاره، وقد أقيمت له في القاهرة حفلة تأبين كبيرة أُلْقِيَتْ فيها هذه القصيدة.

فمشى إِليكَ بجَفْنِه وبدمعه وإِلى أَخيك بقلبه وعَزائه[٥]
اجْتَزْتَهُ فحَواك في أَطرافه ولو انتظْرتَ حَواك في أَحشائه
ولقد تعوَّد أَن تمرَّ بأَرضه مَرَّ الغَمامِ بظلِّه وبمائه
نَمْ في جِوار اللهِ ما بِكَ غُرْبَةٌ في ظِلِّ بيتٍ أَنتَ مِن أَبنائه
الفتحُ — وهو قضيةٌ قُدْسِيَّةٌ — يا طالما ناضلتَ دونَ لِوائه
أَفتى بدَفْنِكَ عندَ سيِّدةِ القُرى مُفْتٍ أراد الله من إِفتائِه[٦]
بلدٌ بَنُوه الأَكرمونَ قصورُهم وقبورُهم وقفٌ على نُزَلائِه[٧]
قد عِشْتَ تنصره وتَمنحَ أَهله عَوْنًا، فكيف تكونُ من غُرَبائه؟

هوامش

(١) السدة: باب الدار.

(٢) يا قدر: لأنه دفن في القدس.

(٣) القباء بفتح القاف —: نوع من الثياب.

(٤) محمد: هو المرثي.

(٥) يريد بأخيه: مولانا شوكت علي، وقد آلت إليه زعامة المسلمين في الهند بعد أخيه.

(٦) سيدة القرى: المقصودة هي القدس الشريف، ولابد للدفن في هذا الحرم من تصريح ديني يصدره مفتي الإسلام هناك، ولا يُصرَّح بذلك إلا لمَنْ ثبت نفعه للإسلام وللعرب.

(٧) يقصد بالبلد: فلسطين وسوريا جميعًا، وكثيرًا ما هتف أمير الشعراء بأهل هذه البلاد إعجابًا بأخلاقهم.

سيد درويش[1]

كلَّ يومٍ مِهْرَجانٌ كَلَّلوا ... فيه مَيْتًا برياحين الثناء[1]
لم يعلِّم قومَه حرفًا، ولم ... يُضئِ الأَرضَ بنور الكَهْرُباء
جُومِل الأَحياءُ فيه وقَضَى ... شَهَوات أَهلُه والأَصدقاء
ما أَضلَّ الناسَ؟ حتى الموتُ لم ... يَخْلُ من زُورٍ لهم، أَو من رِياء[2]
إنما يُبْكَى شُعاعٌ نابغٌ ... كلَّما مرّ به الدهرُ أَضاء
ملأَ الأَفواهَ والأَسماعَ في ... ضَجَّةِ المَحْيا، وفي صَمْتِ الفناء
حائطُ الفنِّ، وباني رُكْنِهِ ... (مَعْبَدُ) الأَلحانِ، (إسحقُ) الغِناء[3]
من أناسٍ كالدَّراري جُدُدٍ ... في سَموَاتِ الليالي قُدَماء
غرَس الناسُ قديمًا، وبَنَوْا ... لم يَدُمْ غَرْسٌ، ولم يَخْلُد بناء
غيرَ غَرْسٍ نابغٍ، أو حَجَرٍ ... عَبْقَرِيٍّ فيهما سِرُّ البقاء
من يَدٍ مَوْهُوبَةٍ مُلْهَمَةٍ ... تَغرِسُ الإحسانَ، أَو تَبْنِي العَلاء
بُلْبُلٌ إِسْكَنْدَرِيٌّ أَيْكُهُ ... ليس في الأرض، ولكن في السماء[4]
هَبطَ الشاطِئَ من رابِيَةٍ ... ذاتِ ظِلَّ ورَياحِينَ وماء
يَحْمِل الفنَّ نَميرًا صافيًا ... غَدَقَ النَّبْع إلى جيلٍ ظِماء[5]

---

[1] الشيخ سيد درويش: كان يُعدُّ رحمه الله في طليعة المجددين في الموسيقى العربية، وقد أُلْقِيَتْ هذه القصيدة في حفلة أقيمت لذكراه في سنة ١٩٣١.

حلَّ في وادٍ على فُسْحَتِه ... عَزَّت الطَّيْرُ بِه إلاَ الحِداء
يملأ الأسحارَ تغريدًا إذا ... صرف الطَّيرَ إلى الأَيْكِ العِشاء
رُبَّما استلْهَم ظَلْمَاءَ الدُّجى ... وأَتى الكوكبَ فاستوحى الضياء
ورمى أُذْنَيْهِ في ناحيةٍ ... يَخْلِسُ الأَصواتَ خَلْسَ الببَّغاء
فتلقَّى فيهما ما راعهُ ... من خَفيِّ الهمْسِ، أو جَهْرِ النِّداء
أَيها الدرويشُ، قُمْ بُثَّ الجَوى ... واشرَح الحبَّ، وناجِ الشهداء
اضرب العُودَ تَفُهْ أَوتارُه ... بالذي تَهْوَى، وتَنْطِقْ ما تشاء
حَرِّك النَّاي، ونُحْ في غابه ... وتنفَّسْ في الثُّقوبِ الصُّعَداء[٦]
واسكُب العَبْرَةَ في آماقه ... من تَباريحَ، وشَجْوٍ، وعَزاء
واسْمُ بالأَرواحِ، وادفعْها إلى ... عالَمِ الُّلطْفِ وأَقطارِ الصفاء[٧]
لا تُرِقْ دمعًا على الفنِّ فلن ... يَعدِمَ الفنُّ الرُّعاةَ الأُمَناءْ
هو طيرُ اللهِ في رَبْوَتِه ... يبعثُ الماءَ إليه والغِذاء
رَوَّحَ اللهَ على الدنيا به ... فهي مثلُ الدارِ، والفنُّ الفِناء
تكتسي منه ومن آذاره ... نَفحةَ الطِّيبِ وإِشراقَ البَهاء[٨]
وإذا ما حُرِمَتْ رِقَّتَه ... فَشت القَسْوَةُ فيها والجَفاء
وإذا ما سَئِمَتْ أو سَقِمَتْ ... طاف كالشمس عليها والهواء
وإذا الفنُّ على الْمُلْكِ مشى ... ظهر الحسنُ عليه والرُّواء
قد كسا الكرنكُ مصرًا ما كسا ... من سَنًى أَبْلى اللَّيالي وسَناء
يُرْسِلُ اللهُ به الرُّسْلَ على ... فتراتٍ من ظُهورٍ وخَفاء
كلَّما أَدَّى رسولٌ ومضى ... جاءَ مَنْ يُوفِّي الرِّسالاتِ الأَداء
سَيِّدَ الفنِّ، استرح من عالمٍ ... آخرُ العهدِ بنُعْماهُ البَلاء
ربَّما ضِقْتَ فلم تنعم به ... وسَرى الوَحْيُ فنسَّاك الشقاء
لقد استخلفْتَ فنًّا نابغًا ... دَفع الفنُّ إليه باللِّواء
إن في مُلْكِ فؤادٍ بُلبلاً ... لم يُتحْ أَمثالُه للخُلَفاء[٩]
ناحلٌ كالكُرةِ الصغرى سرى ... صوتُهُ في كُرَةِ الأرضِ الفضاء
يستحي أن يهتفَ الفنُّ به ... وجمالُ العبقرِيَّاتِ الحَياء

هوامش

(١) المهرجان: الاحتفال، معرَّب.

(٢) الزور: الكذب.

(٣) معبد وإسحاق: رجلان من أشهر رجال الغناء والموسيقى.

(٤) كان رحمه الله من نشء الإسكندرية، والأيك: في الأصل هو الشجر الملتف الكثير. يقول: إنه إذا كان لكل بلبل من أيك يتخذه عشًا، فهذا البلبل الإسكندري أيكه ليس محله الأرض، ولكن السماء هي محلُّه اللائق به.

(٥) الغدق — بفتح الغين والدال: الكثير.

(٦) الصعداء — بضم الصاد وفتح العين —: تنفس ممدود.

(٧) عالم اللُّطف: هو عالم المعاني والأرواح، ولا تسمو إليه الأنفس إلا في أوقات الصفاء والانشراح.

(٨) آذار: شهر من فصل الربيع، أعجمي.

(٩) يُرَادُ بالبلبل هنا: الموسيقار النابغة الأستاذ محمد عبد الوهاب، وهو الذي حمل لواء التجديد في الموسيقى بعد الشيخ سيد درويش.

عمر المختار[١]

رَكَزُوا رُفاتَكَ في الرّمال لِواءَ يَستنهضُ الوادي صباحَ مَساءَ[١]
يا وَيْحَهم! نصبوا مَنارًا من دمٍ تُوحِي إِلى جيل الغدِ البَغْضاءَ[٢]
ما ضرَّ لو جَعلوا العَلاقةَ في غدٍ بين الشعوب مَوَدَّةً وإِخاءَ؟
جُرْحٌ يَصيحُ في المدَى، وضَحِيَّةٌ تتلمَّسُ الحريَّةَ الحمراءَ[٣]
يا أَيّها السيفُ المجرَّدُ بالفَلا يكسو السيوفَ على الزمان مَضاءَ
تلك الصحارى غِمْدُ كلِّ مُهَنَّدٍ أَبْلَى فأَحسنَ في العدوِّ بَلاءَ
وقبورُ مَوْتَى من شبابِ أُمَيَّةٍ وكهولِهم لم يبْرَحُوا أَحياءَ
لو لاذَ بالجوزاءِ منهم معقِلٌ دخلوا على أَبراجِها الجوزاءَ[٤]
فتحوا الشَّمالَ: سُهولَهُ وجبالَهُ وتوغَّلوا، فاستعمروا الخضراءَ
وبَنَوْا حضارتَهم، فطَاوَلَ ركنُها (دَارَ السلامِ)، و(جلَّقَ) الشَّمَاءَ[٥]
خُيِّرتَ فاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى لم تَبْنِ جاهًا، أَو تَلُمَّ ثَراءَ[٦]
إِنَّ البطولةَ أَن تموتَ من الظَّما ليس البطولةُ أَن تَعُبَّ الماءَ
إِفريقيا مَهْدُ الأُسودِ ولَحْدُها ضجَّتْ عليكَ أَراجلاً ونساءَ

[١] شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من أقطار الإسلام، ظلَّ يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقًا سنة ١٩٣١، وأشيع وقتئذ أنهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنَّه التي نيَّفت على التسعين.

والمسلمون على اختلافِ ديارِهم ... لا يملِكون معَ المُصَابِ عَزاءَ
والجاهليةُ من وَراءِ قُبورِهم ... يبكون زَيْدَ الخيل والفلْحاءَ[٧]
في ذِمَّة اللهِ الكريمِ وحفظِه ... جسَدٌ (ببْرقة) وُسِّدِ الصحراءَ[٨]
لم تُبْقِ منه رَحَى الوقائِع أَعظُمًا ... تَبْلَى، ولم يُبْقِ الرِّماحُ دِماءَ
كَرُفاتِ نَسْرٍ أو بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ ... باتا وراءَ السَّافياتِ هَباءَ[٩]
بطلُ البَداوةِ لم يكن يَغْزو على ... «تَنْكٍ»، ولم يَكُ يركبُ الأَجواءَ[١٠]
لكنْ أَخو خَيْلٍ حَمَى صَهَوَاتِها ... وأَدَارَ من أَعرافِها الهيجاءَ
لَبَّى قضاءَ الأَرضِ أَمسِ بُمهْجَةٍ ... لم تخْشَ إلاَّ للسماءِ قَضاءَ
وافاهُ مَرْفوعَ الجبينِ كأَنه ... سُقْراطُ جَرَّ إلى القُضاةِ رِداءَ
شَيْخٌ تَمالَكَ سِنَّهُ لم ينفجرْ ... كالطفل من خوفِ العِقابِ بُكاءَ
وأَخو أُمورٍ عاشَ في سَرَّائها ... فتغيَّرَتْ، فتوقَّع الضَرَّاءَ
الأُسْدُ تزأَرُ في الحديدِ ولن ترى ... في السِّجنِ ضِرْغامًا بكى اسْتِخْذاءَ
وأَتى الأَسيرُ يَجُرُّ ثِقْلِ حَديدِهِ ... أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقْطاءَ
عَضَّتْ بساقَيْهِ القُيودُ فلم يَنُؤْ ... ومَشَتْ بهَيْكله السّنون فناءَ
تِسْعُونَ لو رَكِبَتْ مَناكِبَ شاهقٍ ... لترجَّلَتْ هَضَباتُه إعياءَ[١١]
خَفِيَتْ عن القاضي، وفات نَصِيبُها ... من رِفْق جُنْدٍ قادةً نُبلاءَ
والسِّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلْبٍ مُهَذَّبٍ ... عَرَفَ الجُدودَ. وأَدرَكَ الآباءَ
دفعوا إلى الجلاَّدِ أَغلَبَ ماجدًا ... ياسُو الجِراحَ، ويُطلِقُ الأُسَراءَ
ويُشاطرُ الأَقرانَ ذُخْرَ سِلاحِهِ ... ويَصُفُّ حَوْلَ خِوانِه الأَعداءَ[١٢]
وتخيَّروا الحبلَ المهَينَ مَنيّةً ... للَّيْثِ يلفِظ حَوْلَهُ الحَوْباءَ[١٣]
حَرموا المماتَ على الصَّوارِمِ والقَنا ... مَنْ كان يُعْطِي الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ
إني رأَيتُ يَدَ الحضارةِ أُولِعَتْ ... بالحقِّ هَدْمًا تارةً وبِناءَ
شَرَعَتْ حُقوقَ الناسِ في أَوطانِهم ... إلاَّ أُباةَ الضَّيْمِ والضُّعَفاءَ
يأَيُّها الشعبُ القريبُ، أَسامعٌ ... فأَصوغَ في عُمَرَ الشَّهيدِ رِثاءَ
أَمْ أَلْجَمَتْ فاكَ الخطوبُ وحَرَّمت ... أُذنَيْكَ حينَ تُخاطَبُ الإصْغاءَ؟
ذهب الزعيمُ وأَنتَ باقٍ خالدٌ ... فانقُد رِجالَك، واخْتَرِ الزُّعَماءَ
وأَرِحْ شيوخَكَ من تكاليفِ الوَغَى ... واحْمِلْ على فِتْيانِكَ الأَعْباءَ

هوامش

(١) ركز اللواء: غرزه في الأرض. وهذا استعمال لغوي مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضة والذهب والمعادن، كان العرب في الجاهلية يحفرون لها في الأرض، ويسمونها الدفائن، فقوله: «ركزوا رفاتك» استعمال أُرِيْدَ به الإشارة إلى أن هذا الرفات من النفائس والذخائر، التي يضنُّ بها ويحرص عليها.

(٢) المنار: موضع النور، وجعلها منارًا من دم: هو لون من التشبيه العجيب، كأنه يعجب كيف جعلوا موضع النور والائتناس محلاً للتنفير والإزعاج.

(٣) الحريَّة الحمراء: هي المكتسية بالدم، إشارة إلى قولهم: الحرية شجرة لا تنبت إلا بالدماء..

(٤) الجوزاء: نجم معروف في السماء.

(٥) دار السلام: بغداد. وجلق: دمشق.

(٦) اللَّم: الجمع.

(٧) الفلحاء: لقب عنترة العبسي، أمَّا زيد الخيل فعلم على فارس بهذا الاسم.

(٨) برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا، فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وسُمِّيت باسم عاصمتها القديمة، وقد اشتهرت بوقائعها الحربية المتعددة التي حدثت بين العرب والطليان.

(٩) السافيات: الرياح.

(١٠) تنك: هي الدبَّابة المستعملة في الحروب.

(١١) الشاهق: الجبل. والتسعون: هي التسعون عامًا التي يحدد بها عمر المرثي حين قبضوا عليه ليعدموه.

(١٢) الخوان: مائدة الطعام.

(١٣) الحوباء: النفس.

عبد الحليم العلايلي بك[1]

لقد لَبَّى زعيمُكُم النَّداءَ عَزاءً أَهلَ دِمْياطٍ عَزاءَ
وإن كان المُعَزِّي والمُعَزَّى وكلُّ الناسِ في البَلْوَى سَواءَ
فُجِعْنا كلُّنا بعلائِليٍّ كركنِ النَّجمِ أَو أَسنى عَلاءَ
أَرَقُّ شبابِ دِمْياطٍ عليها وأَنشطُهم لحاجتها قَضاءَ
وخيرُ بيوتِها كرمًا وتَقْوَى وأَصلاً في السِّيادة وانتهاءَ
فتًى كالرمحِ عاليةً وعُودًا وكالصَّمْصام إِفْرِنْدًا وماءَ[1]
وأَعطى المالَ والهِمَمَ العَوالي ولم يُعْطِ الكرامةَ والإباءَ
شبابٌ ضارَعَ الرَّيْحانَ طِيبًا ونازَعَهُ البَشاشةَ والبَهاءَ
وجُنْدِيُّ القضيّةِ منذُ قامَتْ تعلَّمَ تحتَ رايَتِها اللِّقاءَ
ورُوِّعَ شيخُها العالي بيومٍ فكان بمَنْكِبَيْهِ له وقاءَ[2]
سعَى لضميرِه، ولوَجْهِ مصرٍ ولم يَتَوَلَّ ينتظر الجزاءَ
ونَعْشٍ كالغَمامِ يَرِفُّ ظِلاًّ إذا ذهب الزِّحامُ به وجاءَ
ولم تقع العيونُ عليه إلاَّ أَثارَ الحزنَ أَو بعثَ البكاء

[1] عبد الحليم العلايلي: كان عالية دمياط، توفي سنة ١٩٣٢، بعد أن ترك له في القضية المصرية مواقف مذكورة. اشتهر منذ نشأ بعلو الهمَّة ونفوذ الكلمة؛ فانتخب للمجالس النيابية بالنيابة عن دائرة دمياط عدة مرات، وانتخب سكرتير حزب الأحرار الدستوريين؛ فكان في رجالات ذلك الحزب ممَنْ يشار إليهم، وكان من أمير الشعراء بمنزلة الصهر والصديق.

عَجبنا كيف لم يَخْضرّ عُودًا وقد حمل المرُوءَةَ والرُّفاءَ
مشَتْ دِمْياطُ فالتفتْ عليه تنازعُهُ الَّخيرة والرجاءَ
بَني دِمْياطَ، ما شَيءٌ بباقٍ سوى الفردِ الذي احتكر البقاءَ
تعالى اللهُ، لا يبقَى سِواه إذا وردتْ برِيَّتُه الفناءَ
وأَنتم أَهلُ إِيمانٍ وتقوى فهل تلْقَوْنَ بالعَتْبِ القضاءَ؟
ملأَتم من بيوتِ الله أَرضًا ومن داعي البُكورِ لها سماءَ
ولا تستقبلون الفجرَ إلاّ على قَدَمِ الصلاةِ إذا أَضاءَ
وترتقبون مَطْلَعَهُ صِغارًا وتَسْتبِقُونَ غُرَّتَهُ نِساءَ
وكم من مَوْقفٍ ماضٍ وقفتم فكنتم فيه لِلوطن الفِداءَ
دفعتم غارةً شعواءَ عنه وذُدْتُمْ عن حواضره البَلاءَ
أخي (عبدَ الحليم) ولسْتُ أَدري أَأَدعو الصِّهْرَ أم أَدعو الإِخاءَ؟
وكم صَحَّ الودادُ فكان صِهْرًا وكان كأَقَربِ القُرْبَى صَفاءَ
عجيبٌ تركُكَ الدنيا سقيمًا وكنت النَّحْلَ تملؤها شِفاءَ[٣]
وكنَّا حينَ يُعْضِل كلُّ داءٍ نجيءُ إِليكَ نجعلك الدَّواءَ
مضت بك آلةٌ حَدْباءُ كانت على الزمن المَطِيَّةَ والوِطاءَ[٤]
وسارَتْ خلْفكَ الأَحزابُ صفًّا وسرْتَ، فكُنْت في الصفِّ اللَّواءَ
توَلِّفُ بينهم مَيْتًا، وتبني كعهدِكَ في الحياة لهم وَلاءَ

هوامش

(١) عالية الرمح: نصفه الأعلى الذي يلي السنان. والصمصام: السيف. وإفرنده وماؤه: كلاهما تمييز لجوهره.

(٢) يقصد «بشيخها العالي»: المغفور له سعد باشا زغلول.

(٣) يريد تشبيه المساعي الكثيرة النبيلة التي كان يقوم بها المرثي بعسل النحل.

(٤) الآلة الحدباء: النعش.

حافظ إبراهيم[١]

قد كنتُ أُوثرُ أَن تقولَ رِثائي   يا مُنْصفَ الموْتى من الأَحياءِ
لكنْ سَبَقَتَ، وكلُّ طولِ سلامةٍ   قدرٌ، وكلُّ مَنِيَّةٍ بقضاءِ
الحقُّ نادَى فاسْتَجَبْتَ، ولم تَزلْ   بالحقِّ تحفِلُ عندَ كلِّ نِداءِ
وأَتيْتَ صحراءَ الإمامِ تذوب من   طُولِ الحنينِ لساكن الصحراءِ[١]
فلقيت في الدار الإمامَ محمدًا   في زُمْرَةِ الأَبرارِ والحُنفاءِ[٢]
أَثَرُ النعيم على كريمِ جبينه   ومراشدُ التفسيرِ والإفتاءِ
فشكوتما الشَّوْقَ القديمَ، وذُقْتُما   طِيبَ التداني بعدَ طولِ تنائي
إنْ كانت الأُولى منازلَ فُرْقةٍ   فالسمْحَةُ الأُخرى ديارُ لِقاءِ[٣]
ووددْتُ لو أَني فداكَ من الرَّدَى   والكاذبون المُرْجِفونَ فِدائي
الناطقونَ عن الضَّغينةِ والهوى   المُوغِرُو المَوْتَى على الأَحياءِ
من كلَّ هَدَّامٍ وَيَبْني مجدَه   بكرائم الأَنقاضِ والأُشلاءِ
ما حَطَّموكَ، وإنما بكَ حُطِّموا   مَنْ ذا يُحطِّم رَفْرَف الجوزاء؟[٤]
أُنظُره، فأَنت كَأَمْسِ شأْنُكَ باذخٌ   في الشرقِ، واسْمُكَ أَرفعُ الأَسماءِ
بالأَمسِ قد حَلَّيْتَني بقصيدةٍ   غرَّاءَ تُحفَظُ كاليدِ البيضاءِ[٥]

---

[١] هو المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك، شاعر سبَّاق معدود في الطليعة، وكان يلقَّب بشاعر النيل، توفي سنة ١٩٣٢، فرثاه أمير الشعراء شوقي بك بهذه القصيدة، التي ينبئ مطلعها عن مبلغ تقديره لصاحبه ووفائه له.

غِيظَ الحَسُودُ لها وقمتُ بشكرها   وكما علمتَ مَوَدَّتي ووفائي
في مَحفلٍ بَشَّرْتُ آمالي به   لمَّا رَفعتَ إلى السماءِ لِوَائي
يا مانِحَ السُّودانِ شرْخ شبابِه   ووَليَّهُ في السّلمِ والهْيجاءِ
لمَّا نزلْت على خمائِله ثوَى   نْبعُ البيانِ وراءَ نَبْع الماءِ
قلَّدْتَهُ السيفُ الحُسامَ، وزدْتَهُ   قلمًا كصدرِ الصَّعْدةِ السمراءِ[6]
قلمٌ جرى الحِقبَ الطَّوالَ فما جرى   يومًا بفاحشةٍ ولا بهجاءِ[7]
يكسو بِمدْحَتِه الكِرامَ جلالةً   ويُشَيِّعُ الموْتى بحسنِ ثَناءِ
إسْكَنْدَرِيّةُ يا عروسَ الماء   وخميلةَ الحكماءِ والشعراءِ[8]
نشأَتْ بشاطِئِكِ الفنونُ جميلةً   وتَرعرعَتْ بسمائِك الزهراءِ
جاءَتْكِ كالطيرِ الكريمِ غرائبًا   فجمعتِها كالرَّبْوَةِ الغنَّاءِ
قد جمَّلوكِ، فصِرْتِ زِنْبَقَةَ الثَرى   للوافدين ودُرَّةَ الدَّأْماءِ
غرَسُوا رُباكِ على خمائِلِ بابلٍ   وبَنَوْا قصورَك في سَنا الحمراءِ[9]
واستحدثوا طُرُقًا مُنوَّرة الهدى   كسبيلِ عيسى في فِجاجِ الماءِ[10]
فخُذي كأَمسِ من الثقافة زينةً   وتجمَّلي بشبابكِ النُّجَباءِ
وتقلَّدي لغةَ الكتابِ؛ فإنَّها   حَجَرُ البناءِ، وعُدَّةُ الإنشاءِ
بَنَتِ الحضارةَ مَرَّتيْن، ومهَّدتْ   للمُلكِ في بغدادَ والفَيْحاءِ
وسَمَتْ بقرطبةٍ ومصرَ، فحلَّتا   بين الممالكِ ذِرْوَة العَلياءِ[11]
ماذا حشدتِ مِن الدموع «لحافظٍ»   وذخَرْتِ من حزنٍ له وبُكاءِ؟
ووجدْتِ مِن وقع البلاءِ بفقدهِ   إن البلاءَ مَصارِعُ العظماءِ
اللهُ يشهدُ قد وَفيْتِ سخيَّةً   بالدَّمع غيرَ بَخيلةِ الخطباءِ
وأَخذتِ قِسطاً من مَناحةِ ماجدٍ   جَمِّ المآثِرِ، طيِّبِ الأَنباءِ
هتف الرُّواةُ الحاضرون بشعره   وحدا به البادون في البَيْداءِ[12]
لبنانُ يَبكيه، وتبكي الضادُ من   حَلبٍ إلى الفيْحا إلى صَنْعاءِ
عربُ الوَفاءِ وَفَوْا بذمّةِ شاعرٍ   باني الصفوفِ، مُؤلفِ الأَجزاءِ
يا حافظَ الفصحى، وحارسَ مَجْدِها   وإمامَ مَنْ نجَلتْ من البُلغاءِ[13]
ما زِلْتَ تهتفُ بالقديم وفضلهِ   حتى حَمَيْت أَمانةَ القُدماءِ
جدّدت أُسلوبَ (الوليدِ) ولفظَه   وأَتيْت للدّنيا بسحر (الطائي)[14]

وجريْت في طلبِ الجديدِ إلى المدى ... حتى اقترنْت بصاحب البُؤساءِ[15]
ماذا وراءَ الموت من سَلْوَى، ومن ... دَعَةٍ، ومن كَـرمٍ، ومـن إغضاءِ؟
اشرحْ حقائقَ ما رأَيْت، ولم تزل ... أَهـلاً لِـشـرْح حـقـائِـقِ الأشـيـاءِ
رُتبُ الشجاعةِ في الرِّجالِ جلائلٌ ... وأَجَـلُّـهُـنَّ شـجـاعـةُ الآراءِ
كم ضِقتَ ذَرْعًا بالحياة وكيْدِها ... وهـتـفت بـالـشـكوى من الـضـرَّاءِ
فـهلُمَّ فـارِقْ يـأَسَ نـفسِـك سـاعةً ... واطلُعْ على الوادي شُعاعَ رجاءِ
وأَشرْ إلى الدنيا بوجهٍ ضاحكٍ ... خُـلِـقـتْ أَسِـرَّتُـهُ مـن الـسَّـراءِ
يـا طـالـمـا مَـلأَ الـنَّـدِيَّ بـشـاشـةً ... وهـدى إلـيـك حـوائـجَ الـفـقـراءِ
الـيـومَ هـادنْـت الـحـوادِثَ؛ فـاطَّـرِحْ ... عِـبْءَ الـسـنين، وأَلْقِ عِبْءَ الداءِ
خلَّفْت في الدنيا بيانًا خالدًا ... وتـركْـت أَجـيـالاً مـن الأَبـنـاءِ
وغـدًا سيذكرك الزمانُ، ولم يَزلْ ... لـلـدَّهـرِ إنـصـافٌ وحـسـنُ جـزاءِ

هوامش

(١) صحراء الإمام: المقبرة التي دُفِنَ بها، وهذه الصحراء تنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه — رضي الله عنه — في نطاقها.

(٢) الإمام: هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه.

(٣) الأولى: الحياة الدنيا.

(٤) الرفرف: ما يجعل عليه طرائف البيت. والجوزاء: نجم معروف في السماء، فالتعبير برفرف الجوزاء: كناية عن أسنى مواضع الشرف والسمو.

(٥) يريد القصيدة التي أنشأها المرحوم حافظ وأنشدها في المهرجان العظيم الذي أقيم في القاهرة، وقد حضرت إليه وفود الأقطار العربية، وظل سبعة أيام تكريمًا لمبايعة أمير الشعراء شوقي بإمارة الشعر في الشرق العربي عامة، وهي التي يقول فيها:

أمير القوافي، قد أتيت مبايعًا ... وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

(٦) الصعدة: قناة الرمح ينبت عودها مستويًا.

(٧) الحقب: جمع حقبة — بكسر الحاء — وهي المدَّة من الزمن أو السنة.

(٨) نظم المرحوم شوقي هذه القصيدة وهو في الإسكندرية، فكان لابد لشاعريته المستوعبة من وصف هذه المدينة وفاء لإقامته فيها وقتئذ.

(٩) بابل: موضع مدينة بالعراق، ينسب إليها السحر والخمر. والحمراء: قصر مشهور في الأندلس.

(١٠) الفجاج — بكسر الفاء: جمع فجٍّ — بفتحها — الطريق الواسع بين الجبلين.

(١١) قرطبة: إحدى عواصم الأندلس الكبرى، وكانت في المغرب مثل بغداد في المشرق، كلتاهما منبع للعلوم والفنون في أزهر عصور الإسلام.

(١٢) البادون: السائرون في البادية.

(١٣) نجلت: أي وُلِدَت.

(١٤) الوليد: هو أبو عبادة البحتري الشاعر العباسي الشهير. والطائي: هو حبيب الطائي الشهير بأبي تمام.

(١٥) البؤساء: كتاب لفكتور هوجو، عرَّبه الفقيد.

محمد تيمور[1]

ضربوا القبابَ على اليَبابِ   وثَوَوْا إِلى يوم الحسابِ[1]
هَمَدوا، وكلُّ مُحَرَّكٍ   يومًا سيسكنُ في التراب
نزلوا على ذِئْبِ البِلَى   فتضيَّفوا شرَّ الذئاب
وكأَنهم صَرْعَى كرَى   بالقاع أَو صَرْعَى شراب
فإذا صَحَوْا وتنبَّهوا   فاللهُ أَعلمُ بالمآب
من كلِّ مُنْفضِّ الوفو   دِ هناك مهجورِ الجَنابِ
مَوْرُوثِ كلِّ مَضِنَّةٍ   إلا الذَّخِيرة مِن ثواب[2]
يا نائحاتِ محمدٍ   نُحْتُنَّهُ غضَّ الإِهاب
في مَأْتمٍ لم تخْلُ فيـ   ـه المكرماتُ مِن انتحاب
تبكي الكريمَ على العشـ   ـيرة، والحبيبَ إِلى الصحاب
حَسْبُ الحِمامِ دُموعُكُـ   ـنَّ المُسْتهِلَّةُ مِن عِتاب[3]
فارْجِعْنَ فيه لحكمةٍ   أو جِئنَ فيه إِلى احْتِساب
في العالم الفاني مَصـ   ـيرُ العالمين إِلى ذهاب
مَنْ سارَ لمْ يَثْنِ العِنا   نَ، ومَنْ أَقام إِلى اقتراب

[1] محمد تيمور: أديب كبير اشتهر بوضع القصص الاجتماعية، ولكنَّ الموت لم يمهله فاخترم شبابه في سنة ١٩٢١.

يا وارثَ الحَسَبِ الصميـ   ـمِ وكاسبَ الأَدبِ اللُّباب
وابنَ الذي عَلِمَ الرجا   لُ حياءَه من كل عاب[٤]
وكأَنه في كُتْبِهِ   عثمانُ في ظل الكِتاب[٥]
ماذا نقمْتَ مِن الشبا   بِ، وأَنت في نِعَم الشباب؟
مُتحليًا هِبَةَ النبو   عِ، مُطوَّق المِنح الرّغاب؟
ولِم الترحُّلُ عن حيا   ةٍ أَنت منها في رِكاب؟
لم تعْدُ شاطِئها، ولم   تبلغْ إِلى ثَبجِ العُباب؟[٦]
رِفقًا على محزونة الـ   أَبياتِ، مُوحِشةِ الحِجاب[٧]
فقدَتْك في العمر الطريـ   ـرِ، وفي زها الدنيا الكعاب[٨]
تبكى، وتنْدُب إِلْفها   بين الأَفانين الرطاب
وانظر أَباك وثُكْلَه   ورُزوحَه تحت المصاب
لو كان يملك سِرَّ يُو   شَعَ ردَّ شمْسَك من غِياب[٩]
أَعلِمْت غيرَك منْ جَلا التـ   ـمثيلَ في جُدُدِ الثيابِ
وكسا غرائبَ جِدِّهِ   حُلَلاً مِن الهزل العُجاب
مُتميزًا حينَ التميُّـ   ـزُ ليس من أَرَبِ الشباب
أُفُقُ العُلا كنتَ الشها   بَ عليه، لا ذَنَبَ الشهاب
يارُبَّ يومٍ ضاق ذَرْ   عُك فيه بالحُسُدِ الغِضاب
سَعْهم فأَنت جمعتَهم   الشهدُ مائدةُ الذُباب
خُذْ منهُمُ نقْدَ العَفا   فِ، ودَع لهم نقْدَ السباب
دونَ النُّبوغ وأَوْجِهِ   ما لا تعُدُّ من الصعاب
فإذا بلغت الأَوْجَ كُنْـ   ـت الشمس تهزأُ بالضَّباب[١٠]
لا تبعدنَّ؛ فهذه   آمالُ قوْمِك في اقتراب
أُشرُفْ بروحك فوقَهم   ملكًا يُرَفْرِف في السحاب
وانظر بعينٍ نُزِّهَتْ   عن زُخْرُفِ الدنيا الكِذاب
ترَ مِنْ لِدَاتِك أُمّةً   كسَتِ الديارَ جلالَ غاب[١١]
أُسْدٌ تجول بغير ظُفْـ   ـرٍ، أَو تصول بغير ناب
جعلوا الثباتَ سِلاحَهم   نِعْمَ السلاحُ مع الصواب[١٢]

أَمَّــا الأُمــورُ فــإنــهــا بلغتْ إلى فصْلِ الخِطاب
فــإذا مــلــكْــتَ تَــوجُّــهًــا لــلــه فــي قُــدس الــرحــاب
سَــلْ فــاتــحَ الأَبــوابِ يــفــ ــتح للكِنانةِ خيرَ باب

هوامش

(١) القباب: جمع قبة، والمقصود بضرب القباب هنا: هو الكناية عن المقبرة.

(٢) المضنة: هي الشيء النفيس يكون موضعًا للضنِّ به.

(٣) الحمام — بكسر الحاء —: الموت.

(٤) وابن الذي.. إلخ: هو المرحوم أحمد باشا تيمور، كان عالمًا بحَّاثًا اشتهر بالاطلاع الواسع وباقتناء أثمن الكتب.

(٥) يشبه والد الفقيد في إقباله على الكتب في شيخوخته بعثمان بن عفان الخليفة الثالث الذي مات والكتاب العزيز في يده.

(٦) العباب: البحر. وثبجه: وسطه.

(٧) موحشة الحجاب: كناية عن شدة مصاب هذه السيدة، يقول: إن خدرها أفقر من الأنس حتى صار يبعث الوحشة والهلع في قلب صاحبه.

(٨) العمر الطرير: هو سن الشباب، ويقصد بقوله: «الدنيا الكعاب» أنه كان يعيش في دنيا مزهوَّة بنعيمها وثروتها.

(٩) يوشع — كما في التوراة —: هو يوشع بن نون، اصطفاه الله وأرسله لبني إسرائيل بعد موسى، وأمره بمحاربة الجبَّارين، ففي بعض وقائعه ابتهل إلى الله أن تقف الشمس حتى ينتقم من أعدائه، فوقفت ولم تغرب مدة يوم أو نحو ذلك.

(١٠) الأوج: العلو.

(١١) لدات الإنسان: المقاربون له في السن. والغاب: جمع غابة، وهي مأوى الآساد.

(١٢) يصف شباب الأمة المصرية في ثورة سنة ١٩١٩.

يعقوب صرُّوف[١]

سمـاؤُكِ يـا دنـيـا خِـداعُ سَـرابِ … وأَرضُـكِ عُـمْـرانٌ وَشِـيـكُ خـراب[١]
وما أَنتِ إلاَّ جيِفةٌ طالَ حولَها … قـيـامُ ضِـبـاعٍ، أَو قُـعـودُ ذِئـاب
وكم أَلجأَ الجوعُ الأُسودَ فأَقبلَتْ … علـيـك بظُـفْـرٍ لـم يَـعِـفّ ونـاب
قَعَدْتِ من الأَظعان في مَقْطع السُّرَى … ومَـرُّوا رِكـابًـا فـي غُـبـارِ رِكـاب
وجُدْتِ عليهم في الوَداعِ بساخرٍ … من اللَّحْظِ عن مَيْتِ الأَحِبّةِ نابي[٢]
أَقاموا، فلم يؤنِسْكِ حاضرُ صحبةٍ … ومـالـوا فـلـم تـسـتـوحشـي لغِـيـاب
تسُـوقِـينَ لـلـموتِ البَـنـينَ كقائدٍ … يرى الجيشَ خلْقًا هَينًا كذُباب
رأى الحربَ سُلطانًا له وسلامةً … وإن آذنـتْ أَجـنـادَه بـتـبـاب[٣]
ولولا غرورٌ في لُبانكِ لم يجد … بَنوكِ مَذاق الضُرِّ شهدَ رُضاب[٤]
ولا كنتِ للأَعمى مَشاهِدَ فتنةٍ … ولـلـمُـقْـعَـدِ الـعـانـي مَـجـالَ وثـاب[٥]
ولا ضلّ رأْيُ الناشئ الغِرِّ في الصِّبا … ولا كَرَّ بعدَ الفُرصةِ المتصابي
ولا حسبَ الحفَّارُ للموتِ بعدَما … بَنى بيديه القبرَ أَلف حِساب
يقولون: يَرثِي كلَّ خِلَّ وصاحبٍ … أَجَلْ، إنما أَقضى حقوقَ صِحابي
جَزَيْتُهُمُ دمعي، فلمَّا جرى المدَى … جعلتُ عيونَ الشعرِ حُسْنَ ثوابي

---

[١] هو الدكتور يعقوب صرُّوف، أحد صاحبي مجلة المقتطف وجريدة المقطم، كان متبتلاً للعلم، معدودًا في طليعة الكُتَّاب والعلماء الذين يشار إليهم بالبنان، توفي سنة ١٩٢٨.

كفى بذُرَى الأَعوادِ منبرَ واعظٍ وبالمستقلِّيها لسانَ صَوابِ[٦]
دعوتُك يا يعقوبُ من منزلِ البِلَى ولولا المنايا ما تركْتَ جوابي
أُذكِّرك الدنيا، وكيف ولم يزلْ لها أَثَرا شَهدٍ بفيك وصابِ؟[٧]
حملنا إِليك الغارَ بالأَمسِ ناضرًا وسُقنا كتابَ الحمدِ تِلْوَ كتاب[٨]
وما انْفكّتِ الدنيا وإِنْ قلّ لُبْثُها لسانَ ثوابٍ، أَو لسانَ عِقاب
أَلا في سبيلِ العلمِ خمسون حِجَّةً مَضتْ بين تعليمٍ وبين طِلاب
قطعتَ طوالَيْ ليلها ونهارِها بآمال نفسٍ في الكمالِ رغاب
رأَى اللهُ تُلقى إِليك صحيفةٌ فنزّهْتها عن هَوشةٍ وكِذاب[٩]
ولم تتخذْها آلةَ الحقدِ والهوى ولا منتدَى لغوٍ وسوقَ سِباب
مَشيْنا بنُورَيْ علمِها وبيانِها فلم نسْرِ إِلاّ في شُعاع شِهاب
وعشنا بها جيليْن قمتَ عليهما معلِّمَ نشْءٍ، أَو إِمامَ شباب
رسائلُ من عَفْوِ الكلامِ كأَنها حواشي عُيونٍ في الطُّروس عِذاب[١٠]
هي المحْضُ، لا يَشْقى به ابنُ تمِيمَة غِذاءً، ولا يشقى به ابنُ خِضاب[١١]
سُهولٌ من الفُصحى وقفْتَ بها الهوى على ما لديها من رُبًى وهِضاب
وما ضِعتَ بين الشرقِ والغربِ مشيةً كما قيل في الأَمثال: حَجْلُ غراب
فلم أَرَ أَنقى منك سُمعةَ ناقلٍ إِذا وسَم النقلُ الرجالَ بعاب
وكم أَخذ القولَ السَّرِيَّ مُعرِّبٌ فما ردَّه لاسمٍ، ولا لِنصاب
وفدْتَ على الفُصحى بخيراتِ غيرها فواللهِ ما ضاقت مناكِبَ باب
وقِدْمًا دَنتْ (يونانُ) منها و(فارسٌ) و(روما) فحلُّوا في فسيح رِحاب
تبتَّلْتَ للعلم الشريفِ كأَنه حقيقةُ توحيدٍ وأَنت صَحابي
وجشَّمت مَيدان السياسةِ (فارسًا) وكلُّ جوادٍ في السياسة كابي[١٢]
وكنا و(نمرٌ) في شِغابٍ، فلم يَزلْ بنا الدهرُ حتى فضَّ كلَّ شِغاب
رأَى الثورة الكبرى، فسلَّ يَراعَه لتحطيم أغلالٍ وفكِّ رِقاب[١٣]
وما الشرقُ إِلاَّ أُسرةٌ أَو عشيرةٌ تلمُّ بنيها عندَ كلِّ مُصاب
سلامٌ على شيخ الشيوخِ ورحمةٌ تحدَّرُ من أَعطاف كلِّ سَحاب
ورفَّافُ رَيْحانٍ يروحُ ويَغتدي على طيِّباتٍ في الخِلال رِطاب
وذِكرى وإن لم ننْسَ عهدك ساعةً وشوقٌ وإِن لم نفتكر بإِياب

وويحَ السَّوافي هل عَرضْنَ على البِلَى جَبينَك، أَم ستَّرْنهُ بحِجابِ؟[14]
وهل صُنَّ ماءً كان فيه كأنَّه حياءُ بَتولٍ في الصلاة كَعابِ[15]
ويا لحياةٍ لم تدَعْ غيرَ سائلٍ أَكانت حياةً، أَم خليَّةَ دابِ؟[16]
وأَين يدٌ كانتْ وكان بنانُها يَراعَةَ وَشْيِ، أَو يَراعةَ غابِ؟
ولَهْفي على الأَخلاقِ في رُكْنِ هَيْكلٍ ببطن الثرى رَثِّ المعالم خابي
نعيش ونمضي في عذابٍ كلذَّةٍ من العيش، أَو في لذَّةٍ كعذاب
ذهبنا من الأَحلام في كلّ مذهبٍ فلمَّا انتهينا فُسِّرَتْ بذهاب
وكلُّ أَخى عيشٍ وإِن طال عيشُهُ تُرابٌ لعَمْرُ الموتِ وابنُ تُراب

هوامش

(١) السراب: هو ما يرى في وسط النهار كأنه الماء. ووشيك: سريع.

(٢) النابي: المتجافي المتباعد.

(٣) يقال: آذنته بكذا، أي أنذرته. والتباب: الهلاك.

(٤) اللبان — بتشديد اللام مضمومة —: جمع لبانة، وهي الحاجة يطلبها الإنسان من غير احتياج إليها، بل يدافع من علو الهمَّة والرغبة. الرضاب: هو ريق الإنسان ما دام في فمه.

(٥) العانى: المقيد، وهنا سمَّى الأسير بالعاني؛ لأن من شأنه أن يقيد.

(٦) بالمستقليها: أي براكبيها.

(٧) الشهد: عسل النحل. والصاب: المرُّ.

(٨) إشارة إلى الاحتفال بالفقيد في اليوبيل الفضي لمجلته المقتطف. والغار: ورق شجر كانت تتخذ منه أكاليل الظافرين.

(٩) هذه الصحيفة هي مجلة المقتطف التي تعدُّ بحق أمجد صحيفة علمية أدبية في الشرق العربي كله، وكان الفقيد مختصًا بتحريرها.

(١٠) قوله «كأنها حواشي عيون.. إلخ» العيون: هي عيون الماء، ويقصد بحواشيها: النباتات والزهور التي تنبت حواليها.

(١١) المحض: هو الخالص من كل شيء، وابن تميمة وابن خضاب: يقصد بالأول اليفع الناشئ، وبالثاني الشائب الذي يخضب شعره.

(١٢) المقصود بفارس في هذا البيت هو الدكتور فارس نمر، الشريك الثاني للفقيد في مجلتي المقتطف والمقطم، ولكنه الشريك المختصُّ بالسياسة، كما كان الفقيد مختصًا بالعلم، وقوله: وكل جواد في السياسة كابي، إشارة رقيقة إلى المثل القائل: «لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة».

(١٣) يريد أن الدكتور نمر لم يشاغب حبًا في المشاغبة، ولكنه كان متأثرًا بفكرة عامة.

(١٤) السوافي: الرياح.

(١٥) البتول: المنقطعة عن الرجال وعن الدنيا إلى الله تعالى.

(١٦) الداب: بمعنى الدأب.

حسين شيرين بك[1]

أَرأَيت زينَ العابدينَ مُجَهَّزًا … نقلوه نقلَ الوَرْدِ من محرابِه[1]
من دار توْأَمِهِ وصِنْوِ حياتِه … والأَوَّلِ المألوفِ من أَترابِهِ[2]
ساروا به من باطلِ الدنيا إِلى … بُحْبوحَةِ الحقِّ المبينِ وغابِه[3]
ومضَوْا به لسبيل آدمَ قَبله … ومَصايرِ الأَقوامِ من أَعقابه
تحنو السماءُ على زَكِيٍّ سَريرِه … ويَمَسُّ جِيدَ الأَرضِ طِيبُ رِكابه
وتَطيَّب هامُ الحاملين وراحُهم … من طِيب مَحْمِلِه، وطِيبِ ثيابه
وكأَنَّ مصرَ بجانِبَيْهِ رَبْوَةٌ … آذارُ آذنها بوَشْكِ ذَهابه
ويكاد من طربٍ لعادته الندى … يَنْسَلُّ للفقراءِ من أَثوابه[4]
الطَّيِّبُ ابنُ الطَّيِّبينَ، وربَّما … نضح الفتى فأَبان عن أَحسابه
والمؤمنُ المعصومُ في أَخلاقه … من كل شائنةٍ، وفي آدابه
أبدًا يراه اللهُ في غَلسِ الدُّجَى … من صَحْنِ مَسجده، وحول كِتابه
ويرى اليتامى لائذين بظلِّه … ويرى الأَرامِلَ يَعتصِمْنَ ببابه
ويراه قد أَدَّى الحقوقَ جميعَها … لم يَنْسَ منها غيرَ حقِّ شبابه
أَدَّى من المعروف حِصَّةَ أَهْلِه … وقضى من الأحساب حقَّ صِحابه[5]

[1] حسين بك شيرين: كان مثالاً عاليًا من أمثلة مكارم الأخلاق، وكانت بينه وبين أمير الشعراء صداقة تشبه القربى، وقد توفي في سنة ١٩٣١، فنظم فيه هذه القصيدة رثاء له وتعزية لشقيقه إسماعيل بك شيرين.

(مهويشُ). أَين أَبوكِ؟ هل ذهبوا به … لِمَ لَمْ يَعد؟ أَيَّانَ يومُ إِيابه؟[٦]
قد وكَّل اللهَ الكريمَ وعَيْنَه … بكِ، فاحسبيه على كريم رِحابه
ودَعِي البُكا، يكفيه ما حَمَّلْتِه … من دمعكِ الشاكي، ومن تَسْكابه
ولقد شرِبْتِ بحادث يا طالما … شربَتْ بناتُ العالمين بِصَابه
كلُّ امرئٍ غادٍ على عُوَّاده … وسؤالِهم: ما حالُه؟ ماذا به؟
والمرءُ في طلب الحياةِ طويلةً … وخُطى المنِيَّةِ من وراءِ طِلابه؟
في برٍّ (عَمِّكِ) ما يقوم مكانَه … في عَطْفه، وحنانِه، ودعابه
(إسكندريةُ)، كيف صَبْرُكِ عن فتًى … الصبرُ لم يُخلق لمثلُ مُصابه[٧]
عَطِلَتْ سماؤك من بَريق سَحابِها … وخَبا فَضاؤكِ من شُعاع شِهابه
زَيْنُ الشبابِ قَضَى، ولم تتزوَّدِي … منه، ولم تتمتَّعي بقَرابه
قد نابَ عنكِ؛ فكان أَصدقَ نائبٍ … والشعْبُ يَهْوَى الصِّدق في نُوَّابه
أَعلمتِه اتَّخذ الأَمانةَ مَرَّةً … سبَبًا يُبلِّغُه إِلى آرابه؟
لو عاش كان مؤمَّلاً لمواقفٍ … يرجو لها الوادي كِرامَ شبابه
يَجلو على الأَلبابِ هِمّةَ فِكْره … ويناوِلُ الأَسماعَ سحرَ خِطابه
ويَفِي كدَيْدَنِهِ بحقِّ بلادِه … ويَفِي بعهد المسلمين كَدابه[٨]
تَقْواكَ (إسماعيلُ)؛ كلُّ عَلاقةٍ … سَيَبُتُّها الدهرُ العَضوضُ بنابه[٩]
إنَّ الذي ذُقتَ العَشِيَّةَ فَقْدَه … بتَّ الليالي مُوجَعًا لعذابه
فارقتَ صِنْوَكَ مَرَّتَيْنِ، فَلاقِهِ … في عالَم الذكرى وبينَ شِعابه[١٠]
من عادة الذكرى تَرُدُّ من النوى … مَنْ لا يَدَيْنِ لنا بِطَيِّ غِيابه
حُلمٌ كأَحلام الكَرَى وسِناتِه … مُسْتَعْذَبٍ في صدقه وكِذابه
اسكُبْ دُموعَكَ لا أقول: اسْتَبْقِها … فأَخو الهوى يَبكي على أَحبابه

هوامش

(١) أراد تشبيهه بعلي زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضي الله عنهما، وفي زين العابدين هذا يقول الشاعر الفرزدق:

ما قال «لا» قط إلا في تشهُّده … لولا التشهُّد كانت لاؤه «نعم»

وتجهيز الميت: تهيئته للقبر.

(٢) الصنو: الأخ الشقيق. والتوأم: المولود مع غيره في بطن، وهذه حال الفقيد مع أخيه، والأتراب: لدات المرء وزملاؤه الذين وُلِدُوا في سن متقاربة معه.

(٣) بحبوحة المكان: وسطه.

(٤) الندى: الكرم.

(٥) المعروف هنا بمعنى البرِّ بالناس والقيام بواجب المحتاجين.

(٦) مهويش: اسم تركي، وهو علم على ابنة الفقيد.

(٧) كان الفقيد من الإسكندرية منشأ، وعضو مجلس بلديتها.

(٨) الديدن: العادة.

(٩) إسماعيل بك شيرين شقيق المرثي.

(١٠) يشير هذا البيت إلى أن الفقيد كان مغتربًا في سويسرا طيلة زمن الحرب الكبرى.

محمد عبد المطلب[١]

قام من عِلَّته الشاكي الوَصِبْ … وتلقَّى راحةَ الدَّهرِ التَّعِبْ[١]
أَيَّها النفسُ، اصبري واسترجعي … هتفَ الناعي بعبد المُطَّلِب[٢]
نزل التُّرْبَ على مَنْ قبلَه … كلُّ حيٍّ مُنتهاه في التُّرُب
ذهب اللَّيِّنُ في إرشادِه … كالأَبِ المُشْفِقِ والجَدِّ الحَدِب
القريبُ العَتْبِ مِنْ مَعْنَى الرِّضا … والقريبُ الجِدِّ من معنى اللَّعِب
والأَخُ الصادقُ في الوُدِّ إذا … ظَهرَ الإِخوانُ بالوُدّ الكَذِب
خاشعٌ في درسه، مُحْتَشِمٌ … فَكِهٌ في مجلس الصَّفْوِ طَرِب
قلَّد الأَوطانَ نَشْأً صالحًا … وشبابًا أَهلَ دين وحَسَب
ربّما صالتْ بهم في غدِها … صَولةَ الدولةِ بالجيش اللَّجِب[٣]
جعلوا الأقلاَم أَرماحَهُمُ … وأَقاموها مقاماتِ القُضُب
لا يميلون إلى البَغْيِ بها … كيف يَبغِي مَنْ إلى العلم انتسب؟
شاعِرَ البَدْوِ، ومنهم جاءَنا … كلُّ معنًى رَقَّ، أَو لَفْظٍ عَذُب
قد جرت أَلسُنُهُم صافيةً … جَريانَ الماءِ في أَصل العُشُب
سَلِمَتْ من عَنَتِ الطبعِ، ومن … كُلْفَةِ الأقلام، أَو حَشْوِ الكُتُب[٤]

[١] هو الأستاذ محمد عبد المطلب أستاذ الأدب في مدرسة دار العلوم، كان ينظم الشعر مؤثرًا في نظمه طريقة البادين؛ ولذلك كان يلقب بشاعر البدو. وقد توفي سنة ١٩٣١، وأقيمت له حفلة تأبين ألقيت فيها هذه القصيدة.

قد نزلْتَ اليوم في باديةٍ عَمَّرت فيها (امْرَأَ القيس) الحِقَب[٥]
ومشى (المجنونُ) فيها ساليًا نَفَضَ اللَّوْعةَ عنه والوَصَب[٦]
أَعِر الناسَ لسانًا ينظموا لك فيه الشعرَ أَو يُنْشُوا الخُطَب
قُمْ صِف الخُلْدَ لنا في مُلْكِه من جلال الخُلْق، والصُّنْعِ العَجَب
وثمارٍ في يواقيتِ الرُّبَى وسُلافٍ في أَباريق الذهب[٧]
وانثر الشعرَ على الأَبرار في قُدُس الساحِ وعُلوِيِّ الرحب
واستعِر (رضوانَ) عُودَىْ قَصَبٍ وتَرنَّمْ بالقوافي في القَصَب[٨]
واسْقِ بالمعنى إلهيًّا، كما تتَساقَوْنَ الرَّحِيقَ المنسكِب
كلَّما سبَّحْتَ للعرشِ به رَفعَ الرحْمنُ والرُّسلُ الحُجُب
قُمْ تأَمّلْ؛ هذه الدارُ وفَى لكَ من طُلاَّبها الجمعُ الأَرِب[٩]
وفَتِ الدارُ لباني رُكْنِها وقضى الحقَّ بنو الدارِ النُّجُب[١٠]
طلبوا العلمَ على شَيخِهُمُ زمنًا، ثم إذا الشيخُ طُلِب
غابَ عن أَعينهم، لكنّه ماثلٌ في كلِّ قلبٍ، لم يَغِب
صورةٌ مُحْسِنَةٌ ما تختفي ومثالٌ طيبٌ ما يحتجِب
رجلُ الواجبِ في الدنيا مضى يُنصِفُ الأُخرى ويقضي ما وَجب
عاش عَيْشَ الناسِ في دنياهُمُ وكما قد ذهب الناسُ ذهب
أَخذ الدرسَ الذي لُقِّنهُ عُجَمُ الناسِ قديمًا والعرب

هوامش

(١) يريد بالوصب: المتعب من مرض أو من علو الهمَّة.

(٢) الاسترجاع: هو قول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾

(٣) الجيش اللجب: الكثير العدد والعدَّة.

(٤) العنت: المشقة.

(٥) امرؤ القيس: الشاعر الجاهلي المعروف.

(٦) المجنون: مجنون ليلى، من شعراء البادية كامرئ القيس.

(٧) يواقيت الربى: الأكمام المتفتِّحة بالورد والثمار التي تشبه الياقوت. والسلاف: الخمر.

(٨) رضوان: هو الملك القائم على الجنة. والقصب: المزمار أو الناي الذي يترنم به.

(٩) الجمع الأرب: أي الكثير الحصافة والكياسة والدهاء.
(١٠) النُّجُب: جمع نجيب.

يرثي جدته[١]

خُلِقْنا للحياةِ وللمماتِ ... ومن هذين كلُّ الحادثاتِ
ومَنْ يُولَدْ يَعش ويَمُتْ كأَن لَّمْ ... يَمُرّ خيالُهُ بالكائنات
ومَهْدُ المرءِ في أَيدي الروَاقي ... كنعش المرءِ بينَ النائحات[١]
وما سَلِمَ الوليدُ من اشْتكاء ... فهل يخلو المعمَّرُ من أَذاة؟[٢]
هيَ الدنيا، قتالٌ نحن فيه ... مقاصدُ للحُسام وللقَناة
وكلُّ الناسِ مدفوعٌ إِليه ... كما دُفِعَ الجبانُ إِلى الثبات
نُرَوَّعُ ما نُرَوَّعُ، ثم نُرمَى ... بسهمٍ من يدِ المقدورِ آتي
صلاةُ اللهِ يا (تمزارُ) تجزِي ... ثَراكِ عن التِّلاوةِ والصَّلاة
وعن تسعين عامًا كنتِ فيها ... مثالَ المحسناتِ الفُضْليات
بَرَرْتِ المؤمناتِ، فقال كلٌّ: ... لعلكِ أَنتِ أَمُّ المومنات
وكانت في الفضائل باقياتٌ ... وأنتِ اليومَ كلُّ الباقيات
تبنَّاكِ الملوكُ. وكنتِ منهم ... بمنزلة البنينَ أو البنات
يُظِلُّون المناقبَ منكِ شتَّى ... ويُؤْوُنَ التُّقَى والصالحات
وما ملكوكِ في (سوقٍ) ولكنْ ... لدى ظلِّ القَنا والمرهَفات

[١] جدته هي المرحومة السيدة «تمزار» معتوقة جنتمكان إبراهيم باشا والي مصر، وسترى في القصيدة كيف بلغت الجدة المحترمة تلك المنزلة العالية.

عَنَنْتِ لهم (بمُورَةَ) بنتَ عشرٍ   وسيفُ الموتِ في هامِ الكُمَاةِ[٣]
فكنتِ لهم وللرّحمن صيدًا   وواسطةً لعِقْدِ المُسْلِمات
تَبِعْتِ محمدًا من بعد عيسى   لخيرِكِ في سنيكِ الأُولَيَات
فكان الوالدان هدًى وتَقْوَى   وكان الوِلْدُ هذي المعجزات
ولو لم تَظْهري في العُرْبِ إلاّ   بأَحمدَ كنتِ خيرَ الوالدات[٤]
تجاوزتِ الولائدَ فاخراتٍ   إلى فخر القبائل واللغات
وأَحكم مَنْ تَحكَّمَ في يَراعٍ   وأَبلغِ مَنْ تَبلَّغَ مِن دَواة
وأَبرإِ مَنْ تبرَّأَ من عداءٍ   وأَنزهِ مَنْ تنزَّه مِن شَمات
وأَصْوَنِ صائنٍ لأَخيه عِرْضًا   وأَحفظِ حافظٍ عهدَ اللِّدات
وأَقتلِ قاتلٍ للدَّهرِ خُبْرًا   وأَصْبَرِ صابرٍ للغاشيات
كأَني والزمانُ على قتالٍ   مُساجلةً بميدان الحياة[٥]
أَخاف إذا تثاقلَت الليالي   وأُشْفِقُ من خُفوف النائبات
وليس بنافعي حَذَرى، ولكنْ   إباءً أَن أَراها باغِتات
أَمأْمونٌ من الفَلَكِ العوادي   و(برجَلُهُ) يَخُطُّ الدائرات؟
تأَمَّلْ: هل ترى إلاَّ شِباكًا   من الأَيام حَوْلَك مُلْقَيات؟
ولو أَن الجهاتِ خُلقن سبعًا   لكان الموتُ سابعةَ الجهات
لَعًا للنعش، لا حُبًّا، ولكنْ   لأَجْلِكِ يا سماءَ المَكْرُمات[٦]
ولا خانته أَيدي حامِليه   وَإنْ ساروا بصبري والأَناة
فلم أَرَ قبله المريخَ مُلْقًى   ولم أَسمع بدفن النيِّرات
هناكَ وَقفْتُ أَسأَلكِ اتِّئادًا   وأُمسكُ بالصفات وبالصّفاة[٧]
وأَنظرُ في تُرابكِ، ثم أُغضِي   كما يُغضي الأَبِيُّ على القَذاة
وأَذكر من حياتكِ ما تقضَّى   فكان من الغداة إلى الغداة

هوامش

(١) المهد: الموضع يهيأ للطفل. والرواقي: جمع راقية، والراقية عند العرب هي الأم أو نحوها، تضع التمائم والتعاويذ على الطفل حفظًا له من العين أو من الشياطين، على زعمهم.

(٢) المعمَّر: هو الذي يمدُّ له في العمر. يقول في هذه الأبيات الثلاثة، إن الدنيا لا ثبات لها، فالإنسان كأنه لم يوجد، فالراقيات والنائحات والمهد والنعش والصغر والكبر في لقاء الأقدار سواءٌ، فلا شيء يردُّ الموت ولا يمنع القدر.

(٣) عننت لهم.. إلخ: مأخوذة من قولهم «عنَّ الصيد للصائد» إذا ظهر. ومورة: علم على صقع بعينه هو الوطن الأول لجدته. والكماة: جمع كمي، وهو الفارس المدجج بالسلاح. بعد أن قال إن جدته كانت متبناة للملوك بيَّن كيف وقع لها ذلك، فقال: إنها لاحت للفرسان المغيرين على وطنها (مورة) فأخذوها أسيرة حرب. وهي لم تجاوز العاشرة، وكان هذا لخيرها؛ حيث أكرمها الله، فنشأت مسلمة. ونزلت من الملوك بمنزلة بناتهم.

(٤) أحمد: هو الاسم الشريف لأمير الشعراء، يقول لجدته في هذا البيت: إذا لم يكن لك نسب في العرب إلا ولادتك لي لكنت بهذا خير أمهات العرب. لقد وضع هذا البيت نفسه توأمًا لبيت المتنبي الذي يخاطب به أمه فيقول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد   لكان أباك الضخم كونك لي أما

(٥) المساجلة في القتال هي من قولهم: «الحرب سجال يوم لك ويوم عليك».

(٦) لعًا: كلمة دعاء تقال للعاثر، تقول «لعًا له» إذا أردت سلامته و«لا لعًا له» إذا أردت غير ذلك.

(٧) الصفاة: الحجر الصلد، والمقصود بها هنا القبر.

محمد عبده[1]

مُـفـسِّـرَ آيِ الـلـه بـالأَمـس بـيـنـنـا قُـم اليومَ فسِّرْ للورى آيـةَ المـوتِ
رُحِمْتَ، مَصيرُ العالمين كما ترى وكـلٌّ هـنـاءٍ أَو عـزاءٍ إلى فَـوْت
هـو الـدهـرُ: مـيـلادٌ، فـشـغـلٌ، فـمـأْتـمٌ فذِكرٌ كما أَبقى الصَّدَى ذاهبَ الصَّوت[1]

هوامش

(١) يقول: إن الإنسان يشبه الصوت، وذكره من بعده يشبه الصدى، والصدى هو ما يردُّ على المصوِّت شبيهًا بصوته، ويقال له الرجع أيضًا.

[1] هو الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية. توفي سنة ١٩٠٥، وقد ظهرت أسمى ملكاته في فهم وتفسير القرآن الشريف.

رياض باشا[1]

مَماتٌ في المواكب، أَم حياةُ ونعشٌ في المناكب، أَم عِظاتُ؟
ويَوْمُكَ في البريَّةِ، أَم قيامٌ وموكبُك الأَدلَّةُ والشِّيات؟[1]
وخطْبُكَ يا (رياضُ)، أَم الدواهي على أَنواعها والنَّازلات؟
يجِلُّ الخْطبُ في رجلٍ جليلٍ وتَكبرُ في الكبير النائبات
وليس المْيتُ تَبكيه بلادٌ كمَنْ تَبكي عليه النائحات
وهل تَلْقَى مناهيا الرواسي فتَهْوِي، ثُمَّ تُضْمِرها فَلاة؟[2]
وتُكْسَرُ في مراكزها العَوالي وتُدْفَنُ في التراب المُرْهَفات؟[3]
ويُغشَى الليثُ في الغابات ظُهْرًا وكانت لا تَقرُّ بها الحَصاة؟
ويَرْمِي الدهرُ (نادِيَ عينِ شمسٍ) ولا يَحْمِي لِواءَهُم الرُّماة؟[4]
أَجَلْ؛ حُمِلَتْ على النعشِ المعالي ووُسِّدَتِ الترابَ المُكْرُمات
وحُمِّلَتِ المدافعُ ركنَ سلمٍ يُشيِّعه الفوارسُ والمُشاة
وحلَّ المجدُ حُفْرتَه، وأَمسَى يُطِيف به النوائحُ والبُكاة
هَوى عن أَوْج رِفْعتِه (رياضٌ) وحازَتْه القرونُ الخالياتُ
كأَن لم يملأِ الدنيا فِعالاً ولا هَتفَتْ بدولته الرُّواة

[1] يقترن تاريخ رياض باشا بتاريخ كبار الحوادث في مصر منذ الخديو إسماعيل إلى أواخر حكم عباس الثاني تقريبًا؛ فتاريخه في الواقع هو تاريخ مصر طيلة هذه الحقبة من الزمن.

نعاه (البرقُ) مُضْطرِبًا، فماجَتْ   نجومٌ في السماء مُحلِّقات
كأَن الشمسَ قد نُعِيَتْ عِشاءً   إليها فهْي حَسْرَى كاسفات
صحيفةُ غابرٍ طُوِيَتْ، وولَّت   على آثارِ مَنْ دَرجوا وفاتوا
يقول الآخرون إذا تَلَوْها: كذلك فَلْيَلِدْن الأُمَّهات
جزى اللهُ الرضا أَبَويْ (رياضٍ)   هما غرَسَا وللوطن النبات
بنو الدنيا على سَفرٍ عَقيمٍ   وأَسفارُ النوابغِ مُرجعات
أَرى الأَمواتَ يَجمعُهم نشورٌ   وكم بُعِثَ النوابغُ يومَ ماتوا
صلاحُ الأَرضِ أَحياءٌ ومَوْتَى   وزينتُها وأَنجُمُها الهُداة
قرائحُهم وأَيديهم عليها   هدىً، ويسارةٌ، ومُحسّنات
فلو طُلِبَتْ لهم دِيَةٌ لقالت   كنوزُ الأَرضِ: نحن هي الدِّيات
أَبا الوطن الأَسيفِ، بكتْكَ مصرُ   كما بكَت الأَبَ الكهلَ البَناتُ
قَضَيْتَ لها الحقوقَ فتًى وكهًلا   ويومَ كبرْتَ وانحنَتِ القَناة
ويومَ النَّهْىُ للأُمراءِ فيها   ويومَ الآمرون بها العُصاة[5]
فكنْتَ على حكومتها سِراجًا   إذا بَسَطتْ دُجاها المُشْكِلات
يزيد الشيبُ نفسَك من حياةٍ   إذا نقصَتْ مع الشيب الحياة
وتملؤك السُّنُونَ قوًى وعزمًا   إذا قيل: السِّنون مُثَبِّطات
كسيْفِ الهندِ أَبْلَى حين فُلَّتْ   ورَقَّتْ صَفحتاه والظُّبات[6]
رفيعُ القدرِ بالأَمصار يُرني   كما نَظرتْ إلى النَّجم السُّراة[7]
كأَنك في سماءِ المُلكِ (يحيى)   وآلُك في السماءِ النِّيرات[8]
تَسوسُ الأَمرَ، لا يُعطِي نفاذًا   عليك الآمرون ولا النُّهاة
إذا الوزراءُ لم يُعطوا قِيادًا   نبذتهُم كأَنهمُ النَّواة
زَماعُ في انقباضٍ في اختيالٍ   كذلك كان (بسمركُ) الثُّبات[9]
صِفاتٌ بَلَّغتْك ذُرَى المعالي   كذلك تَرفع الرجلَ الصِّفات
وجدتَ المجدَ في الدنيا لِواءً   تلقَّاه المقاديمُ الأُباة
ويبقى الناسُ ما داموا رَعايا   ويبقى المُقدِمون همُ الرُّعاة
(رياضُ)، طَوَيْتَ قرْنًا ما طوَتْه   مع (المأْمون) (دِجْلةُ) و(الفرات)[10]
تمنَّت منه أَيامًا تحلَّى   بها الدُّوَلُ الخوالي الباذخات

ووَدّ (القيصران) لَو آنَّ (روما) ... عليها من حَضارته سِمات[11]
حَباكَ اللهُ (حاشِيَتَيْهِ) عُمْرًا ... وأَعمارُ الكرام مُبارَكات
فقمتَ عليه تجرِبةً وخُبْرًا ... ومدرسةُ الرجال التجِربات
تمرُّ عليك كالآيات تَتْرَى ... صنائعُ أَهلِهِ والمحدَثات
فأَدركتَ (البخارَ) وكان طفلاً ... فشبَّ، فبايَعْته الصافِنات[12]
تُجاب على جناحَيْه الفيافي ... وتحكم في الرياح المنشآت
ويُصعَد في السماءِ على (بروج) ... غدًا هي في العوالم بارِجات[13]
وبَيْنما الكهرُباءُ تُعَدُّ خرقًا ... إذا هي كلَّ يومٍ خارقات
ودان البحرُ حتى خِيضَ عُمقًا ... وقِيدَتْ بالعِنان السافيات[14]
وبُلِّغَت الرسائلُ، لا جَناحٌ ... يَجوب بها البحارَ، ولا أَداة
كأَن القُطرَ حين يُجيب قُطرًا ... ضمائرُ بينها مُتناجِيات
رَهينَ الرَّمْسِ، حدَّثني مَليًّا ... حديثَ الموتِ تبْدُ لِيَ العِظات[15]
هو الخبرُ اليقينُ، وما سواه ... أَحاديثُ المُنى والتُّرَّهات[16]
سأَلْتُكَ: ما المنِيَّةُ؟ أَيُّ كأسٍ؟ ... وكيف مَذاقُها؟ ومَنْ السُّقاة؟
وماذا يُوجِس الإنسانُ منها ... إذا غَصَّت بعلْقَمها اللَّهاة؟[17]
وأَيُّ المَصْرَعَيْنِ أَشدُّ: موتٌ ... على عِلْمٍ، أَم الموتُ الفَوات؟[18]
وهل تقع النفوسُ على أَمانٍ ... كما وقعَتْ على (الحرم) القطاة؟[19]
وتَخْلُد أَم كزعم القول تَبْلَى ... كما تبلَى العِظامُ أَو الرُّفات؟
تعالى اللهُ قابضُها إِليه ... وناعِشُها كما انتعش النبات
وجازيها النعيمَ حِمىً أَمينًا ... وعيشًا لا تُكادِّره أَذاة
أَمثلُك ضائقٌ بالحقِّ ذَرْعًا ... وفي بُرْدَيْك كان له حماة؟[20]
أَليس الحقُّ أَن العيشَ فانٍ ... وأن الحيَّ غايتُه الممات؟
فنَمْ ما شِئْت، لا تُوحِشْكَ دنيا ... ولا يَحْزُنْكَ من عيشٍ فَوات
تصرَّمَت الشبيبةُ والليالي ... وغاب الأَهلُ، واحتجت اللِّدات
خَلَتْ (حِلْمِيّةٌ) ممَّنْ بناها ... فكيف البيتُ حولك والبنات؟[21]
أَفيه من (المحلة) قوتُ يوم ... ومن نِعمٍ مَلأْنَ (الطوْدَ) شاة؟[22]
وهل لك من حريرهما وِسَادٌ ... إذا خَشُنَتْ لجنبَيْك الصَّفاة؟[23]

تَولَّى الكلُّ، لم ينفعك منه ... سوى ما كان يَلتقِط العُفاة
عِبادُ اللهِ أَكرمُهم عليه ... كِرامٌ في بَرِيَّته، أُساة
كمائدةِ المسيحِ، يقوم بُؤْسٌ ... حواليها، وتَقعُد بائسات
أَخذتُكَ في الحياةِ على هَناتٍ ... وأَيُّ الناس ليس له هَنات؟[٢٤]
فصفحًا في الترابِ إذا التقينا ... ولُوشِيَتِ العداوةُ والتِّرات
خُلِقتُ كأَنَّني (عيسى)، حرامٌ ... على قلبي الضَّغِينةُ والشَّمات
يُساءُ إِلَّيَّ أَحيانًا، فأَمضي ... كريمًا، لا أَقوت كما أقات
وعندي للرجال — وإن تجافَوْا — ... مَنازلُ في الحفاوَة لا تُفات
طلعْتَ على (النَّدِيِّ) بعين شمسٍ ... فوافَتْها بشمسَيْنِ الغداة
على ما كان يَندو القومُ فيها ... توافَى الجمعُ وائْتمر السَّراة[٢٥]
تملَّكهم وقارُك في خشوعٍ ... كما نظمَتْ مُقيمَيها الصَّلاة
رأَيتَ وُجوهَ قومِك كيف جَلَّتْ ... وكيف تَرعرعَتْ مصرُ الفتاة
أُجيلَ الرأيُ بين يديك حتى ... تبيَّنَت الرَّزانةُ والحَصاة[٢٦]
وأَنتَ على أَعِنَّتهم قديرٌ ... وهم بك في الذي تقْضِي حُفاة[٢٧]
إذا أَبدى الشبابُ هَوىً وزَهْوًا ... أشار إليه حِلْمُكَ والأَناة
فهلاَّ قُمْتَ في النادي خطيبًا ... لك الكَلِمُ الكبارُ الخالدات؟
تُفَجِّر حكمةَ (التسعين) فيه ... فآذانُ الشَّبِيبةِ صاديات؟[٢٨]
تقول: متى أَرى (الجيرانَ) عادوا ... وَضُمَّ على الإِخاءِ لهم شَتات؟[٢٩]
وأَين أُولو النُّهَى مِنَّا ومنهم ... عسى يَأْسُون ما جرح الغُلاة؟[٣٠]
مَشَتْ بين العشيرة رُسْلُ شرٍّ ... وفَرَّقَت الظْنونَ السَّيِّئات
إذا الثقةُ اضمحلَّتْ بين قومٍ ... تمزَّقَت الرَّوابطُ والصِّلات
فثِقْ، فعسى الذين ارتَبْت فيهم ... على الأَيام إخوانٌ ثِقات
وربَّ مُحبَّبٍ لا صبرَ عنه ... بَدَتْ لك في مَحبَّته بَداة[٣١]
ومكروهٍ على أَخَذاتِ ظنٍّ ... تُحبِّبُه إليك التجرِبات
بني الأَوطان، هبُّوا، ثم هبُّوا ... فبعضُ الموتِ يَجلبه السُّبات[٣٢]
مشى للمجدِ خَطْفَ البرقِ قومٌ ... ونحن إذا مشينا (السلحفاة)
يُعِدُّون القُوَى برًّا وبحرًا ... وعُدّتُنا الأَمانِي الكاذبات

هوامش

(١) الشيات: جمع شية، وهي العلامة: يشبِّه يوم ممات رياض بيوم القيامة، ويشبِّه جنازته بأشراط وعلامات القيامة.

(٢) الفلاة: الصحراء.

(٣) العوالي: الرماح. والمرهفات: السيوف.

(٤) نادى عين شمس: موضع المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين ردًا على المؤتمر الذي أقامه أعيان القبط في فترة من خلاف وقع بين الطائفتين المصريتين، لا أعادها الله.

(٥) يشير إلى أيام الثورة العرابية في مصر وإلى لون الحكم قبل تلك الثورة.

(٦) الظبات جمع ظبة — بضم الظاء — حدُّ السيف.

(٧) السرَّاة — بضم السين —: جمع ساري، ولا يكون السرى إلا للمشي بالليل.

(٨) يحيى: هو يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد.

(٩) بسمرك: وزير ألماني ضُرِبَ مثلاً في الحنكة والمهارة والسياسة. والزماع: الذي يزمع الأمر في جرأة وإقدام ثم لا ينثني.

(١٠) المأمون: هو المأمون العباسي، ودجلة والفرات: نهران بالعراق.

(١١) سمات: علامات.

(١٢) الصافنات: الخيل.

(١٣) يريد بالبروج: الطائرات.

(١٤) العنان: الزمام، والسافيات: الرياح.

(١٥) الرمس: القبر.

(١٦) الترهات: جمع ترهة، بتشديد الراء مفتوحة، وهي الباطل.

(١٧) اللهاة — بفتح اللام — اللحمة المشرفة على الحلق من أقصى الفم.

(١٨) الموت الفوات: الموت المفاجئ.

(١٩) القطاة: الحمام، أو طير يشبه الحمام، ويقصد بالحرم: الحرم المكي حيث يحرم صيد الطيور اللائذة به.

(٢٠) حماة: جمع حامٍ، وهو المدافع والمانع من العدوان، والحامي: الأسد لحمايته عرينه.

(٢١) الحلمية: حيث كانت دار الفقيد. وقوله: «وكيف البيت حولك والبنات»: يسأله عن حاله في القبر وعن زاده هناك.

(٢٢) المحلة: محلة روح قرية في إقليم الغربية بمصر، حيث كانت توجد أملاك الفقيد الواسعة.

(٢٣) الصفاة: الحجر والمقصود به هنا القبر.

(٢٤) الهنات: جمع هنة، وهي الشيء الصغير، وقد تعرف أسباب تلك الهنات من قصيدة مطبوعة في الجزء الأول من الشوقيات.

(٢٥) يندو القوم: إذا اجتمعوا ليتشاوروا في ناديهم. والسراة: جمع سري، وهو السيد الشريف.

(٢٦) الحصاة: العقل والرأي.

(٢٧) الحفاة: جمع حفي، وهو هنا بمعنى العالم يتعلم باستقصاء. قال الله تعالى ﴿كأنك حفي عنها﴾؛ أي سائل عنها باستقصاء.

(٢٨) التسعين: هي مدة عمر الفقيد. وصاديات، أي ظامئات.

(٢٩) الجيران: هم القبط والمسلمون في مصر.

(٣٠) الغلاة: هم البالغون حد الإفراط في عقائدهم وآرائهم.

(٣١) البداة، من قولهم: بدا لي في هذا الأمر بداء، أي ظهر لي فيه شيء.

(٣٢) السبات: النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتًا﴾.

عثمان باشا غالب[1]

ضَجَّت؟ لمصرَع (غالبٍ) … في الأَرضِ (مملكةُ النباتِ)
أَمستْ (بتيجانٍ) عليـ … ـه من الحِدادُ مُنكَّسات[1]
قامت على (ساقٍ) لغيـ … ـبته، وأَقعدت الجهات
في مأْتمٍ تَلْقَى الطبيعـ … ـةَ فيه بين النائحات
وترى (نجومَ الأَرضِ) من … جَزعٍ مَوَائِدَ كاسفات
والزَّهرُ في (أَكمامِه) … يَبكي بدمع الغاديات
وشَقائقُ النُّعمانِ آ … بَتْ بالخدودِ مُخَمَّشات[2]
أَمَّا مُصابُ الطبِّ فيـ … ـه فسَلْ به مَلأَ الأُساةِ[3]
أَوْدَى الحِمامُ بشيخهم … ومَآبهم في المعضلات
مُلْقِي الدروس المُسْفِرا … تِ عن الغُروس المُثمِرات
قد كان حَرْبَ الظلمِ، حر … بَ الجهلِ، حربَ التُّرَّهات
والمُستضاءَ بنوره … في الخافيات المظلمات
عَلَمُ الورَى في عِلْمه … في الغربِ مُغْتَرِبُ الرُّفات
قد كان فيه محلَّ … إجلالِ الجهابذةِ الثقات

[1] عثمان باشا غالب: كان طبيبًا عظيمًا وعالمًا بالنبات يشار إليه بالبنان، توفي في باريس سنة ١٩٢٠.

ومُمَثِّلَ المصريِّ في حظِّ الشعوبِ من الهِبات
قُلْ للمُريب: إليكَ، لا تأْخذْ على الحرِّ الهنات
إن النوابغَ (أهلَ بَدْر) ما لهم من سيئات[٤]
هم في عُلا الوطنِ الأدا ةُ فلا تَحُطَّ مِن الأداة
وهمُ الأُلَي جمعوا الضما ئرَ والعزائم من شَتات
لهم التَّجِلَّةُ في الحيا ةِ، وفوق ذلك في الممات
(عثمانُ)، قُمْ ترَ آيةً اللهُ أحيا (المومياتِ)
خرجَتْ بَنِينَ من الثرى وتحرَّكَتْ منه بَناتِ
واسمَعْ بمصر الهاتفـ ـين بمجدها والهاتفات
والطالبين لحقها بينَ السَّكِينةِ والثبات
والجاعليها قِبْلةً عندَ الترنُّمِ والصَّلاة[٥]
لاقَوْا أُبُوَّتَهم على غُرِّ المناقبِ والصفات
حتى الشبابُ تراهُمُ غلبوا الشيوخَ على الأَناة
وزنوا الرجالَ، فكان ما أَعْطَوْا على قدر الزِّنات[٦]
قل للمُغالِطِ في الحقا ئق حاضرٍ منها وآت
الفكرُ جاءَ رسولُه وأَتى بإحدى المعجزات
عيسى الشُّعورِ إذا مشى ردَّ الشعوبَ إلى الحياة

هوامش

(١) التيجان للنبات: هي أكاليل الثمار، كالأكمام.

(٢) شقائق: جمع شقيقة، وهي الموضع ينبت الأعشاب، وشقائق النعمان موضع بعينه كثر فيه النبات المختلف الألوان والشيات، مرَّ عليه النعمان بن المنذر فأعجبه، فقال: هو لي، فلم يعد أحد يمسُّه، ومن ذلك سُمِّي شقائق النعمان، وصار كل موضع ينبت مثل ذلك يقال له: شقائق النعمان، والخدود في شقائق النعمان يقصد بها الورد، وتخميشها: يعني لطمها أو قطعها..

(٣) الملأ: الجماعة من الناس. والأساة جمع آسي: وهو الطبيب.

(٤) أهل بدر: هم أول الغزاة مع محمد ﷺ، شبَّه النوابغ بهم، ووجه الشبه بينهما، هو سبق كل منهما لإحراز أسمى مراتب الشرف والرفعة. نقول: وهذا نوع من وجه الشبه لم نر شاعرًا فطن إليه قبل شوقي حيَّاه الله.

(٥) الترنُّم: أحد ضروب العبادة في المسيحية، كالصلاة عند المسلمين.
(٦) الزنات: جمع زنة (كعدة) وهي المرة من الوزن.

عبد الحي[1]

طُوِيَ البِساطُ وجَفَّت الأَقداحُ … وغدَتْ عواطلَ بعدكَ الأَفراحُ[1]
وانفضَّ نادٍ بالشآم، وسامرٌ … في مصرَ أَنت هزارُه الصَّدَّاح[2]
وتَقوَّضَتْ للفن أَطْولُ سَرْحةٍ … يُغْدَى إِلى أَفيائها وُيراح[3]
واللهِ ما أَدري وأَنتَ وحيدُه … أَعليه يُبْكى، أَم عليكَ يُناح؟
(إِسحاقُ) مات، فلا صَبُوحَ، و(مَعْبَدٌ) … أَوْدَى، فليس مع الغبوقِ فَلاح[4]
مَلِكُ الغِناءِ أَزاله عن تخْتِهِ … قَدَرٌ يُزيل الراسياتِ مُتاح
في التُرِّب فوقَ (بني سويفَ) يتيمةٌ … ومن الجواهر زَيِّفٌ وصِحاح[5]
ما زال تاجُ الفن تيّاهًا بها … حتى استبدّ بها الردَى المُجتاح
لو تستطيع كرامةً لمكانها … مَشَتِ الرياضُ إِليه والأَدْواح
رُحْماكَ (عبدَ الحيِّ)؛ أُمُّكَ شَيْخَةٌ … قعدَتْ، وهِيضَ لها الغَداةَ جَناح
كُسِرَتْ عَصاها اليوم، فَهْيَ بلا عصًا … وقَضى فَتاها الأَجْوَدُ المِسْماح
الله يعلم، إِن يَكُنْ في قلبها … جُرحٌ ففي أَحشاءِ مصرَ جِراح
والناسُ مَبْكِيٌّ وباكٍ إِثْرَهُ … وبُكا الشعوبِ إِذا النوابغُ طاحوا
كان الندامَى إِن شَدَوْتَ وعاقروا … سِيّانِ صوتُك بينهم والراح[6]

[1] هو المرحوم عبد الحي المغني، ذاع صيته في مصر وجاوزها إلى الأقطار العربية حتى عُدَّ وحيد عصره وإمام فنه. توفي سنة ١٩١٢م.

فيما تقول مُغنِّيًا ومُحدِّثًا تتنافس الأَسماعُ والأَرواح[7]
فارقتَ دنيا أَرهَقتْك خَسارةً وغنِمْتَ قُرْبَ اللهِ وهو رَبَاح
يا مُخلِفًا للوعد، وَعْدُك ماله عندي ولا لك في الضمير بَراح
عَبَثَتْ به وبكَ المنيَّةُ، وانقضى سببٌ إِليه بأُنْسِنا نرتاح
لمَّا بلغنا بالأَحِبَّةِ والمنى بابَ السرورِ تغيَّبَ المفتاح
زعموا نَعِيَّكَ في المجامع مازحًا هَيْهاتَ! في رَيْبِ المَنونِ مِزاح
الجِدُّ غايةُ كلّ لاهٍ لاعبٍ عندَ المنيَّةِ يَجزع المِفراح[8]
رَمَت المنايا إِذ رمَيْنَك بُلْبُلا أَرداه في شَرَكِ الحياةِ جِماح
آهاتُه حُرَقُ الغرامِ، ولفظُه سجعُ الحَمام لَوَ أنَّهُنَّ فِصاح
وذَبَحْنَ حَنْجَرةً على أَوتارها تُؤسَى الجِراحُ، وتُذْبَحُ الأَتراح
وفَلَلْنَ من ذاك اللسان حديدةً يَخشى لئيمٌ بَأْسَها ووقاح
وأَبحْنَ راحتَك البِلَى، ولطالما أَمسى عليها المالُ وَهْوَ مُباح
روحٌ تناهتْ خِفَّةً فتخيَّرتْ نُزُلاً تَقاصَرُ دونَه الأَشباح
قُمْ غنِّ وِلْدانَ الجِنانِ وَحُورَها وابعثْ صَداك فكلُّنا أَرواح

هوامش

(١) طوي البساط: تعبير يكنى به عن انتهاء عوامل السرور.

(٢) الهزار: طائر حسن الصوت، وهو فارسي، معرب هزاردستان.

(٣) السرحة: الشجرة العظيمة. والأفياء: جمع فيء، وهو — من الشجر — الظل.

(٤) إسحاق ومعبد: علمان على مغنيين. والصبوح: الشرب أول الصباح. والغبوق. الشرب بالعشي.

(٥) دُفِنَ الفقيد في بني سويف وهي بلدة مشهورة بالقطر المصري. والجواهر الزائفة، هي ضد الجواهر الصادقة الصحيحة.

(٦) الندامي: جمع نديم. وعاقروا: من المعاقرة، وهي شرب الراح. والراح: الخمر، يشبه صوته بالخمر؛ لأن كليهما مسكر.

(٧) يقول: إن حديثه كان مثل غنائه. والمأثور عن عبد الحي أنه كان فكه الحديث النكتة.

(٨) المفراح: كثير الفرح.

محمد ثابت باشا[١]

سِرْ أَبا صالحٍ إلى الله واترك   مصرَ في مأْتمٍ وحزنٍ شديد
هذه غايةُ النفوسِ، وهذا   مُنتهَى العيشِ مُرِّهِ والرَّغيد
هل ترى الناسَ في طريقك إلاَّ   نَعْشَ كَهْلٍ تَلاه نعشُ الوَليد؟
إنّ أَوهَي الخيوطِ فيما بدا لي   خَيْطُ عيشٍ مُعلَّقٌ بالوريد[١]
مُضْغَةٌ بينَ خفْقَةٍ وسُكونٍ   ودَمٌ بينَ جَرْيَةٍ وجُمود
أَنزلوا في الثرى الوزيرَ، ووارَوْا   فيه تسعين حِجَّةً في صُعود
كنتَ فيها على يَدٍ من حرير   لِلَّيالي، فأَصبحَتْ من حَديد[٢]
قد بلوناك في الرياسة حينًا   فبلوْنا الوزيرَ عبدَ الحميد[٣]
آخذًا من لسانِ فارسَ قِسْطًا   وافرَ القسْمِ من لسان لَبِيد[٤]
في ظلال الملوكِ، تُدْنِي إليهم   كلَّ آوٍ لظلِّكَ الممدود
لستَ مَنْ مَرَّ بالمعالم مَرًا   إنما أَنت دولةٌ في فقيد
قُمْ فحدِّثْ عن السنين الخَوالي   وفُتوحِ المُمَلَّكِين الصِّيد[٥]
والذي مَرَّ بينَ حالٍ قديمٍ   أَنتَ أَدرَى به وحالٍ جديد
وصِف العزَّ في زمان (عليٍّ)   واذكر اليُمْنَ في زمان سعيد[٦]

---

[١] هو أحد باشوات مصر الكبار، عاصر أكثر ولاة مصر من الأسرة العلوية، وتوفي سنة ١٩٠١ بعد أن عمَّر حوالي تسعين عامًا.

كيف أُسْطولُهم على كل بحرٍ وسَراياهُمُ على كلِّ بِيدِ؟[٧]
قد تَولَّوْا وخلَّفوك وفِيًّا في زمانٍ على الوَفِيِّ شديد
فالْحَقِ اليومَ بالكرام كريمًا والْقَهم بينَ جَنَّةٍ وخُلود
وتقبَّلْ وداعَ باكٍ على فقـ ـدك، وافٍ لعهدك المحمود

هوامش

(١) الوريد: شريان بكسر الشين، وهو عرق رئيسي في جسم الإنسان، يشبه العروق في جسم الإنسان بالخيوط؛ ليتوصل بذلك إلى إثبات ضرورة الضعف في الحياة وعدم بقائها.

(٢) يد من حرير: كناية عن رفاهية العيش.

(٣) بلوناك في الرياسة: أي اختبرناك. والوزير عبد الحميد: هو عبد الحميد الكاتب المشهور.

(٤) القسم: هو العطاء أو الحظ. ولبيد: شاعر عربي قديم. والغرض أن المرثي كان ملمًا بالفارسية والعربية.

(٥) الصيد جمع أصيد، وهو العزيز الجانب.

(٦) يريد زمان محمد علي الكبير، ورفاهة العيش في زمن الخديو سعيد باشا.

(٧) السرايا: جمع سريَّة — بالياء المشددة مفتوحة — وهي القطعة من الجيش لا يزيد عددها عن الأربعمائة. والبيد: جمع بيداء، وهي الصحراء.

محمد فريد بك[1]

كلُّ حَيٍّ على المنيّة غادي   تتوالى الركابُ والموتُ حادي[1]
ذهب الأَوَّلونَ قَرْنًا فقرْنًا   لم يدُمْ حاضرٌ، ولم يَبْقَ بادي[2]
هل ترى منهُمُ وتَسمعُ عنهم   غيرَ باقي مآثرٍ وأَيادي؟[3]
كُرَةُ الأَرضِ كم رَمَتْ صَوْلجَانًا   وطوَتْ من ملاعبٍ وجِياد
والغبارُ الذي على صفحتَيْها   دَوَرانُ الرَّحَى على الأَجساد[4]
كلُّ قبر من جانب القَفْرِ يبدو   عَلَمَ الحقِّ، أَو منارَ المعَاد
وزِمامُ الرِّكابِ من كلِّ فَجٍّ   ومَحَطُّ الرِّحالِ من كل وادي
تطلع الشمسُ حيث تطلع نَضْخًا   وتَنَحَّى كمِنْجَل الحَصّاد[5]
تلك حمراءُ في السماءِ، وهذا   أَعوجُ النَّصْلِ مِنْ مِراس الجِلاد
ليت شعري تعمَّدَا وأَصرّا   أَم أَعانا جناية الميلاد
كذب (الأَزهران)؛ ماالأَمرُ إِلاَّ   قَدَرٌ رائحٌ بما شاءَ غادي[6]
يا حَمامًا ترنَّمَتْ مُسْعِداتٍ   وبها فاقةٌ إِلى الإسعاد[7]
ضاق عن ثُكْلِها البُكا، فتغنَّتْ   رُبَّ ثُكْلٍ سمِعْتَه من شادي[8]

[1] محمد بك فريد: الرئيس الثاني للحزب الوطني، وهو الضحية الغالية للوطنية المصرية، فقد ورث عن والده ثروة طائلة جدًا، بذلها إلى آخر درهم في سبيل طلب الاستقلال لمصر والسودان، وظل يجاهد إلى أن مات معدمًا فقيرًا في سنة ١٩٢٠، محكومًا عليه بالنفي والتشريد، حيث لم يسمح له بالعودة إلى وطنه إلا ميتًا.

الأَنَاةَ الأَنَاةَ؛ كلُّ أَليفٍ ... سابقُ الإِلْفِ، أَو مُلاقِي انفراد
هل رَجَعْتُنَّ في الحياة لفَهْمٍ؟ ... إن فهمَ الأُمورِ نِصفُ السَّداد
سَقمٌ من سلامةٍ، وعزاءٌ ... من هناءٍ، وفُرْقَةٌ من وِداد
يُجْتَنَى شهدُها على إِبَرِ النحـ ... ـلِ، ويُمْشَى لورْدِها في القَتاد[٩]
وعلى نائمٍ وسَهْرانَ فيها ... أَجَلٌ لا يَنامُ بالمِرْصاد
(لُبَدٌ) صادَه الرَّدَى، وأَظنّ النَّسْـ ... ـرَ من سَهمِه على ميعاد[١٠]
ساقةَ النَّعْشِ بالرئيس، رُوَيْدًا ... مَوْكِبُ الموتِ مَوْضِعُ الاتِّئاد[١١]
كلُّ أَعوادِ مِنبر وسريرٍ ... باطلٌ غيرَ هذه الأَعواد
تستريح المطِيُّ يومًا، وهذي ... تنقلُ العالَمين من عهد عادِ
لا وراءَ الجِيادِ زِيدَتْ جلالاً ... منذ كانت ولا على الأَجياد
أَسأَلتم حَقِيبةَ الموتِ: ماذا ... تحتَها من ذخيرةٍ وعَتاد؟
إنَّ في طَيِّها إمامَ صُفوفٍ ... وحَوارِيَّ نِيَّةٍ واعتقاد[١٢]
لو تركتم لها الزِّمامَ لجاءَت ... وحدَها بالشهيد دارَ الرشاد
انظروا، هل تَرَوْنَ في الجمعِ مصرًا ... حاسرًا قد تجلَّلتْ بسواد؟
تاجُ أَحرارِها غُلامًا وكهلاً ... راعَها أَن تراه في الأَصفاد
وسِّدُوه الترابَ نِضْوَ سِفارٍ ... في سبيلِ الحقوقِ نِضْوَ سُهاد[١٣]
واركزوه إلى القيامة رُمْحًا ... كان للحَشْدِ، والنَّدَى، والطِّراد
وأَقِرُّوه في الصفائح عَضْبًا ... لم يَدِنْ بالقَرار في الأَغماد
نازحَ الدارِ، أَقْصَرَ اليومَ بَيْنٌ ... وانتَهَتْ مِحْنةٌ، وكفَّتْ عوادي[١٤]
وكفَى الموتُ ما تخاف وترجو ... وشَفَى من أَصادقٍ وأَعادي
مَنْ دَنا أَو نأَى فإِنّ المنايا ... غايةُ القربِ أَو قُصارَى البِعاد
سِرْ مَعَ العمرِ حيثُ شِئْتَ تَئُوبا ... وافقد العمر لا تَؤُبْ من رُقاد
ذلك الحقُّ لا الذي زعموه ... في قديمٍ من الحديث مُعاد
وجرى لفظُه على أَلسُنِ النا ... سِ، ومعناه في صدور الصِّعاد[١٥]
يَتحلَّى به القويُّ ولكنْ ... كتحلِّي القتالِ باسم الجهاد
هل تَرى كالترابِ أَحسنَ عدلاً ... وقيامًا على حقوق العباد؟[١٦]
نزل الأَقوياءُ فيه على الضَّعْـ ... ـفَى، وحلَّ الملوكُ بالزُّهَّاد

صفحاتٌ نَقِيَّةٌ كقلوب الرُّسْــ ـــلِ، مَغسولةٌ من الأَحقاد
قُمْ إِنِ اسْطَعْتَ من سريرك، وانظر سِرَّ ذاك اللواءِ في الأَجناد
هل تَراهم وأَنتَ مُوفٍ عليهم غيرَ بُنْيَانٍ أُلْفَةٍ واتِّحاد؟[17]
أمةٌ هُيِّئَتْ وقومٌ لخير الدَّهْــ ـــرِ أَو شرِّه على استعداد
مصرُ تبكي عليك في كل خِدْرٍ وتَصوغُ الرثاءَ في كل نادي
لو تأَمَّلْتَها لراعَك منها غُرَّةُ البرِّ في سَوادِ الحِداد
مُنْتهَى ما به البلادُ تُعزَّى رجُلٌ مات في سبيل البلاد
أُمَّهاتٌ لا تحملُ الثُّكلَ إِلا للنجيب الجريء في الأَولاد
(كفريدٍ)، وأَين ثاني فريدٍ؟ أَيُّ ثانٍ لواحدِ الآحاد؟
الرئيسِ الجوادِ فيما علمنا وبَلَوْنا وابنِ الرئيسِ الجواد؟
أَكلَتْ مالَهُ الحقوقُ، وأَبْلى جِسمَهُ عائدٌ من الهمِّ عادي
لك في ذلك الضَّنَى رِقَّةُ الرو ح، وخَفْقُ الفوادِ في العُوَّاد
عِلَّةٌ لم تَصِلْ فِراشَك حتى وطِئتْ في القلوب والأَكباد
صادفَتْ قُرْحَةً يُلائمها الصبــ ـــرُ، وتأْبَى عليه غيرَ الفساد
وعَدَ الدهرُ أَن يكون ضِمادًا لك فيها، فكان شرَّ ضِماد
وإِذا الرُّوح لم تُنَفِّسْ عن الجســ ـــم (فبقراطُ) نافخٌ في رَماد[18]

هوامش

(١) الحادي: هو الذي يغني للقافلة فتنشط في مسيرها.

(٢) الحاضر: ساكن الحضر، والبادي: ساكن البادية.

(٣) الأيادي: جمع يد، ويقصد باليد، العطية أو الصنيعة، ولا تجمع اليد على أيادي إلا بهذا المعنى، فإذا أريد جمع اليد الحقيقية قيل: أيدي.

(٤) المفهوم من المقام أن الرحى المقصودة هي رحى المنون، فاكتفى بتعريفها بأل. كأنه يقول: الرحى المعهودة.

(٥) قوله: وتنحَّى كمجل الحصاد، أي هلالاً شكله كالمنجل في اعوجاجه.

(٦) الأزهران: الشمس والقمر.

(٧) الإسعاد: الإعانة، تقول: أسعدني على كذا، أي أعني عليه.

(٨) الثكل هنا: بمعنى الحزن. والشادي: المغني.

(٩) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبرة..

(١٠) لبد، بضم اللام وفتح الباء: علم على آخر نسور لقمان، زعموا أن لقمان هذا عاش عمر سبعة أنسر، كان آخرها النسر المسمى: لبد، أمَّا قوله «وأظن النسر» فليس المقصود الطائر المعروف بالنسر، وإنما يقصد أحد الكواكب في السماء معروفًا باسم النسر، يقول إن لكل كائن سهم من المنية مقدور.

(١١) ساقة الجيش أو ساقة النعش: هم السائرون في المقدمة. والاتئاد: بمعنى الترفُّق والتمهُّل.

(١٢) الحواري: مفرد الحواريين، وهم الصفوة المختارة من الصحاب.

(١٣) النضو: المهزول الجسم.

(١٤) عوادي الدهر: عوائقه.

(١٥) الصعاد: الرماح.

(١٦) يقول: إنه لم يجد الحق خالصًا في هذه الأرض إلا للقوة، ولم يجد العدل كاملاً إلا في التراب، حيث يسوَّى الأقوياء بالضعفاء، والطامعين بالقانعين.

(١٧) يشير هذا البيت إلى حقيقة تاريخية، هي أن عودة الفقيد ميتًا كانت في زمن اتحاد الأمة المصرية جميعًا على طلب الاستقلال التام، فلم يكن هناك أحزاب مختلفة المطالب وقتئذ.

(١٨) بقراط: هو أبو الطب، كما يقولون.

البنون والحياة الدنيا[1]

الـضـلـوعُ تَـتَّـقـدُ　　والـدمـوعُ تَـطَّـرِدُ
أَيُّـهَـا الـشَّـجِـيُّ، أَفِـقْ　　من عَـنـاءِ مـا تـجـد
قـد جـرَتْ لـغـايـتـهـا　　عَـبْـرَةٌ لـهـا أَمـد
كـلُّ مُـسْـرِفٍ جَـزَعًـا　　أَو بُـكـى؛ سـيَـقْـتَـصِـد
والـزمـانُ سُـنَّـتُـه　　فـي الـسُّـلُـوِّ يـجـتـهـد
قـل لـثـاكِـلَـيْـنِ مـشَـى　　فـي قـواهـمـا الـكَـمَـد
لـم يُـعـافَ قـبـلَـكـمـا　　والـدٌّ، ولا وَلَـد
الـذيـن مِـيـلَ بـهـم　　فـي سِـفَـارِهـم بَـعُـدُوا
مـا عـلـمـنـا أَشَـقُـوا　　بـالـرحـيـل أَم سَـعِـدوا؟
إِن مـنـزلاً نـزلـوا　　لا يَـرُدُّ مَـن يَـرِد
كـلُّـنـا إِلـيـه غـدًا　　لـيـس بـالـبـعـيـد غَـدُ
الـبـنـونَ هـم دَمُـنـا　　والـحـيـاةُ والـوُرُد[1]
لا تَـلَـدُّ مـثـلَـهـم　　مُـهْـجَـةٌ، ولا كَـبـد
يـسـتـوون واحِـدُهـم　　— فـي الحنان — والعَدَد

---

[1] نظم أمير الشعراء هذه القصيدة تعزيَّة للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل «بك» في فقد وحيده سنة ١٩٣٥.

زينةٌ، ومصلحةٌ   واستراحةٌ، ودَدْ[٢]
فتنةٌ إذا صَلحوا   مِحْنةٌ إذا فسدوا
شاغلٌ إذا مَرضوا   فاجعٌ إذا فُقِدوا
جُرحُهم إذا انتُزِعوا   لا تَلمُّه الضُّمدُ
العزاءُ ليس له   آسيًا، ولا الجَلَد
قل (لِهيكل) كَلِمًا   من ورائها رَشَد
لم يَشُبْ مهذَّبَها   باطلٌ ولا فَنَد[٣]
قد عَجِبْتُ من قَلَمٍ   ثاكلٍ ويَنْجَرِد
أَنتَ ليثُ معركةٍ   وهو صارمٌ فَرَد
والسيوفُ نَخْوَتُها   في الوَطِيس تَتَّقِد[٤]
أنت ناقدٌ أَرِبٌ   والأريبُ ينتقد
ما تقول في قَدَرٍ   بعضُ سِنّهِ الأَبَد؟
وهْوَ في الحياة على   كلِّ خُطْوَةٍ رَصَد
يَعثُر الأَنامُ به   إن سَعَوا، وإن قعدوا
يَنْزِلُ الرجالُ على   حُكْمِه وإن جَحَدوا
القضاءُ مُعْضِلةٌ   لم يَحلَّها أَحَد
كلَّما نقضْت لها   عُقْدَةً بدتْ عُقد
أَتعَبَتْ مُعالجها   واستراح مُعْتَقِد
عالَمٌ مُدَبِّرُه   بالبقاءِ مُنْفَرِد
مِن بِلى كَوائِنه   كائناتُه الجُدُد
لا تقل به إِددٌ   إنّ حُسْنه الإِدَد[٥]
تلتقي نقائضُه   غايةً وتَّتحِد
الفَناء فيه يدٌ   للبقاءِ أَو عَضُد
ائْتِلافُه رَشَدٌ   واختلافُه سَدَد
جَدَّ في عمارته   مُنْصَفٌ ومضْطَهَد
والغنى لخِدمته   كالفقير محتشِد
وهو في أَعِنَّتِه   مُمْعِنٌ ومُطَّرِد

والــحــيــاةُ حَــنْــظَــلَــةٌ   فــي حــروفــهــا شُــهُــد
هَــيــكــلُ الــشــقــاءِ لــه   مــن مَــدامِــعٍ عَــمَــد
قــامــت الــنــعــوش عــلــى   جــانِــبَــيْــهِ والــوُسُــد
عُــرْسُــه ومَــأْتَــمُــهُ   غــايــتــهُــمــا نَــفَــدُ

هوامش

(١) الورد: جمع وريد، كبريد وبرد.
(٢) الدد — بالفتح — اللهو واللعب.
(٣) الفند: هو الكذب.
(٤) الوطيس: الحرب.
(٥) الإدد — جمع إداة، بالكسر — وهي الداهية.

ثروت باشا[1]

يموت في الغابِ أَو في غيرِه الأسدُ ... كلُّ البلادِ وِسادٌ حين تُتَّسَدُ[1]
قد غَيَّبَ الغربُ شمسًا لا سَقامَ بها ... كانت على جَنَباتِ الشرقِ تَتَّقِد
حدا بها الأَجَلُ المحتومُ فاغتربَتْ ... إِن النفوسَ إِلى آجالِها تَفِد
كلُّ اغترابٍ مَتاعٌ في الحياةِ سوى ... يوم يُفارِقُ فيه المُهجةَ الجسدُ
نعى الغمامَ إِلى الوادي وساكنِهِ ... برقٌ تمايلَ منه السهلُ والجَلد
برقُ الفجيعةِ لمَّا ثار ثائِرُه ... كادتْ كأَمسٍ له الأَحزابُ تَتَّحِد
قام الرجالُ حيارَى مُنصِتين له ... حتى إِذا هدَّ من آمالهم قعدوا
علا الصعيدَ نهارٌ كلُّه شجَنٌ ... وجلَّل الريفَ ليلٌ كلُّه سُهُدُ
لم يُبْقِ للضاحكين الموتُ ما وجدوا ... ولم يَرُدَّ على الباكين ما فقدوا
وراءَ رَيْبِ الليالي أَو فُجاءَتِها ... دمٌ لكلِّ شماتٍ ضاحكٍ رَصَد[2]
باتت على الفُلْكِ في التابوتِ جَوْهَرَةٌ ... تكادُ بالليل في ظلِّ البِلَى تقِدُ[3]
يُفاخِرُ النيلُ أَصداف الخليج بها ... وما يدبُّ إِلى البحرين أَو يَرِدُ[4]

[1] هو المغفور له عبد الخالق ثروت باشا، كان زعيمًا وطنيًا عظيمًا، وسياسيًا إداريًا خطيرًا، تولَّى رياسة الحكم في البلاد أكثر من مرة، وظفر من السياسة الإنجليزية لمصر بتصريح ٢٨ فبراير، وقد سافر إلى أوربا لبعض المفاوضات السياسية المتممة لاستقلال مصر، فلم يمهله الموت، فقضى بفرنسا في سنة ١٩٢٨، وجيء به ميتًا، وكان بينه وبين أمير الشعراء صداقة حميمة، ومودة قديمة، ظهر أثرهما في هذه المرثية، التي تقرؤها فتحسُّ رجعها يعود إليك من أعماق الخلود.

إنّ الجواهرَ أَسناها وأَكرمُها … ما يقذِفُ المهدُ، لا ما يقذفُ الزَّبَدُ
حتى إذا بلغ الفلكُ المدى انحدَرتْ … كأَنها في الأَكُفِّ الصارمُ الفرِد
تلك البقيَّةُ من سيف الحمى كِسَرٌ … على السرير، ومن رُمح الحِمى قِصَد[٥]
قد ضمّها فزكا نعْشٌ يُطاف به … مُقدَّمٌ كلِواءِ الحقِّ مُنفرِد
مشتْ على جانبيه مصرُ تَنْشُدُه … كما تدَلَّهَت الثَّكْلَى، وتَفتقِد[٦]
وقد يموت كثيرٌ لا تُحِسُّهمُ … كأَنهم من هَوانِ الخطب ما وُجِدوا
ثُكْلُ البلاد له عقلٌ، ونكْبتُها … هي النجابةُ في الأَولاد، لا العدد
مُكلِّلُ الهامِ بالتصريح، ليس له … عودٌ من الهام يَحويه ولا نَضد[٧]
وصاحبُ الفضلِ في الأَعناقِ ليس له … من الصنائعِ أَو أَعناقهم سَنَد
خلا من المِدْفَع الجبَّارِ مَركَبُهُ … وحلَّ فيه الهدى والرفقُ والرَّشَد
إن المدافِعَ لم يُخْلَقْ لصُحبتها … جندُ السلام، ولا قُوّادُه المُجُد
يا بانِيَ الصرح لم يَشغَله مُمتدِحٌ … عن البناءِ، ولم يصرفه مُنتقِد
أَصمَّ عن غضبٍ مِنْ حَوْله ورِضىً … في ثورةٍ تَلِدُ الأَبطالَ أَو تَئِد[٨]
تصريحُك الخطوةُ الكبرى ومرحلةٌ … يدنو على مثلها، أَو يبعد الأَمَد
الحقُّ والقوةُ ارتدّا إلى حَكمٍ … من الفياصل، ما في دينه أَوَد
لولا سِفارتُك المهديّةُ اختصما … ومَلَّ طُولَ النِّضالِ الذئبُ والنَّقَد[٩]
مازِلْت تَطرقُ بابَ الصلح بينهما … حتى تفتَّحت الأَبوابُ والسُّدَد
وجَدْتها فرصةً تُلْقي الحِبالُ لها … إنَّ السياسةَ فيها الصَّيْدُ والطَّرَد[١٠]
طلبْتَها عندَ هُوجِ الحادثاتِ كما … يمشي إلى الصيد تحتَ العاصفِ الأَسَد
لمَّا وجدت معُدّاتِ البناءِ بنتْ … يداك للقوم ما ذمُّوا وما حمدوا
بنيت صَرحك من جُهد البلاد، كما … تُبْنَى مِن الصَّخَرِ الآساسُ والعُمُد
فيه ضحايا من الأَبناءِ قَيِّمةٌ … وفيه سَعْيٌ من الآباءِ مُطَّرِد
وفي أَواسِيه أَقلامٌ مُجاهدةٌ … على أَسنَّتِها الإحسانُ والسَّدَد[١١]
وفيه أَلويةٌ عزَّ الجهادُ بهم … لولا المنيَّةُ ما مالوا، ولا رقدوا
رميْت في وَتِدِ الذلِّ القديمِ به … حتى تَزعزعَ من أَسبابه الوتِد
طوى حِمايتَهُ المحتَلُّ، وانبسطتْ … حمايةُ اللهِ، فاسَتذْرَى بها البلد
نَمْ غيرَ باكٍ على ما شِدْت من كرمٍ … ما شِيدَ للحقِّ فَهْوَ السَّرْمَدُ الأَبَد

يا (ثروةَ) الوطنِ الغالي، كفَى عظةً ... للناس أَنك كنزٌ في الثرى بَدَد[١٢]
لم يُطْغِك الحكمُ في شتَّى مَظاهرِه ... ولا استخفَّك لِينُ العيشِ والرَّغَد
تغْدُو على الله والتاريخِ في ثِقةٍ ... ترجو فتُقْدِمُ، أَو تخْشَى فتَتَّئِد
نشأْتَ في جَبْهة الدنيا، وفي فمِها ... يدورُ حيثُ تدور المجدُ والحسَد
لكلِّ يومٍ غَدٌ يمضي بَروْعَتِهِ ... وما ليومِك يا خيرَ اللِّداتِ غدُ
رَمَتْكَ في قنواتِ القلبِ فانصدعَتْ ... منِيَّةٌ ما لها قلبٌ، ولا كَبِد
لمَّا أَناخَتْ على تامُورِك انفجرَتْ ... أَزكَى من الوَرْدِ، أَو من مائه الوُرُد[١٣]
ما كلُّ قلبٍ غدا أو راح في دمه ... فيه الصديقُ وفيه الأَهلُ والولد
ولم تطاوِلْكَ خوفًا أَن يُناضلَها ... منك الدهاءُ ورأيٌ مُنقِذٌ نَجِد
فهل رثى الموت للبرِّ الذَّبِيحِ؟ وهل ... شجاه ذاك الحنانُ الساكنُ الهَمِد؟
هَيْهَات! لو وُجِدَتْ للموت عاطفةٌ ... لم يَبكِ من آدمٍ أَحبابَه أَحد
مَشَتْ تَذُودُ المنايا عن وَديعتها ... مدينةُ النُّورِ، فارتدَّتْ بها رَمَد[١٤]
لو يُدفعُ الموتُ رَدَّتْ عنك عادِيَةٌ ... للعلم حولكَ عينٌ لم تنُم ويَد
«أَبا عزيز» سلامُ اللهِ، لا رُسُلٌ ... إِليك تحمل تسليمي، ولا بُرُدُ[١٥]
ونفحةٌ من قوافي الشعر كنت لها ... في مجلسِ الراحِ والريْحانِ تحْتشِد
أَرسلتُها وبعثْتُ الدمعَ يكنُفُها ... كما تَحدَّرَ حولَ السَّوْسَنِ البَرَد[١٦]
عطفتُ فيك إِلى الماضي، وراجعني ... وُدٌّ من الصغَرِ المعسولِ مُنعقِد
صافٍ على الدهر لم تُقْفِرْ خليَّته ... ولا تغيّر في أَبياتها الشُّهُد
حتى لمحتُكَ مَرموقَ الهلالِ على ... حداثةٍ تَعِدُ الأَوطانَ ما تَعِد
والشعرُ دمعٌ، ووجدانٌ، وعاطفةٌ ... يا ليت شعريَ هل قُلْتُ الذي أَجِد؟[١٧]

هوامش

(١) هذا المطلع يشير إلى موته بفرنسا.

(٢) رصد: بمعنى مترقب.

(٣) يشير إلى مجيئه من أوربا في نعش على الباخرة. وتقد: تضيء.

(٤) يريد بالخليج: الخليج الفارسي. وبالبحرين: مجموعة جزر عربية بالقرب من الشاطئ الغربي للخليج الفارسي، وعندها يصاد اللؤلؤ.

(٥) القصد — بكسر القاف —: جمع قصدة — بكسرها أيضًا هي القطعة مما يكسر، ويقال: رمح قصد، بكسر الصاد: أي منكسر.

(٦) التدلُّه: ذهاب الفؤاد من عشق أو حزن ونحوهما، وقوله: «تفتقد» من قولهم: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

(٧) العود هنا: هو السرير، النضد — محركة الضاد — ما نضد من متاع والسرير ينضد عليه، كأنه يعجب لِمَنْ كلل هامات مصر بمجيئه لها بهذا الفوز السياسي في تصريح ٢٨ فبراير، كيف لا يحويه ميتًا سرير متخذ من الهام أو منضد بها، حتى يكون الجزاء من جنس العمل، ومن هذا النحو يقول البيت التالي: «وصاحب الفضل في الأعناق ... إلخ».

(٨) يريد بالثورة: ثورة مصر سنة ١٩١٩، والوأد: دفن الأحياء، يريد أنه كان يعمل في بناء صرح الوطن، بدون رغبة في مدح، أو خوف من ذم، في شجاعة لا تخاف الثورة، وهي لا عقل لها.

(٩) النقد: جنس من الغنم قبيح الشكل، من الهزال أو غيره.

(١٠) الطرد: مطاردة الصيد.

(١١) الأواسي: جمع آسية، وهي من البناء: المحكم الدعامة، والسدد: بمعنى السداد، أي الصواب.

(١٢) البدد: المتفرق.

(١٣) التامور: القلب. والورد، جمع وريد: العرق في الجسم.

(١٤) مدينة النور: تطلق في هذا العصر على باريس.

(١٥) البرد: جمع بريد.

(١٦) السوسن: نوع من الزهر، والبرَد: هو ما يتساقط من المطر كحبات الثلج.

(١٧) أي هل قلت الذي يجيش في وجداني؟

عبد العزيز جاويش[1]

أَصاب المجاهدُ عُقْبَى الشهيد   وأَلقى عَصاه المضافُ الشَّريد
وأَمسى جَمادًا عدوُّ الجمودِ   وباتَ على القيد خَصمُ القيود
حَداه السِّفارُ إِلى مَنزلٍ   يلاقي الخفيفَ عليه الوئيد
فقَرَّ إِلى موعدٍ صادقٍ   مُعِزُّ اليقينِ مُذِلُّ الجحود
وبات الحَوارِيُّ من صاحِبَيْهِ   شَهيدَيْن أَسْرَى إِليهم شهيد
تَسَرَّبَ في مَنْكِبَيْ (مصطفى)   كأَمسِ، وبينَ ذِراعَيْ (فريد)[1]
فيالَكَ قبرًا أَكَنَّ الكنوزَ   وساجَ الحقوقَ، وحاط العهود
لقد غيَّبوا فيك أَمضى السيوفِ   فهل أَنت يا قبرُ أَوفى الغُمود؟
ثَلاثُ عقائدَ في حفرةٍ   تَدُكُّ الجبالَ، وتُوهِي الحديد
قعَدْنَ فكُنّ الأَساسَ المتينَ   وقام عليها البناءُ المَشِيد
فلا تَنْسَ أَمسِ وآلاءَه   أَلا إِن أَمسِ أَساسُ الوجود[2]
ولولا البِلَى في زوايا القبورِ   لما ظهرَتْ جِدَّةٌ للمُهود
ومَنْ طلب الخُلْقَ من كنزه   فإِن العقيدةَ كنزٌ عَتيد

[1] هو الشيخ عبد العزيز جاويش، أحد السابقين في خدمة القضية المصرية، كان زعيمًا سياسيًا دينيًا عظيمًا، وقد كرَّس حياته لخدمة سياسة بلاد الإسلام عامة، ومصر وتركيا خاصة، ثم حُكِمَ عليه بالنفي والتشريد مدَّة طويلة، ثم عاد إلى مصر ولم يلبث إلا بضع سنين، ومات في سنة ١٩٢٩، وله رسائل سياسية كانت مضرب المثل في الفصاحة والقوة في وقتها.

تعلَّمَ بالصبر، أَو بالثباتِ   جَلِيدُ الرجالِ، وغيرُ الجليد
طَريدَ السياسةِ منذُ الشبابِ   لقد آن أَن يَسْترِيحَ الطريد
لقيتَ الدواهِيَ من كيْدها   وما كالسياسة داهٍ يكيد[٣]
حَمَلْتَ على النفس ما لا يطا   قُ، وجاوزَتِ المستطاعَ الجهود
وقُلِّبْتَ في النار مثلَ النُّضا   رِ، وغُرِّبْتَ مثلَ الجُمانِ الفريد
أتذكر إِذْ أَنتَ تحت (اللواءِ)   نَبِيهَ المكانةِ، جَمَّ العديد؟[٤]
إذا ما تطلَّعْتَ في الشاطئين   رَبا الريفُ، وافتنّ فيك الصعيد
وهزَّ النديُّ لك المنكِبَيْنِ   وراحَ الثرى من زحامٍ يَميد
رسائل تُذرِي بسجع البديعِ   وتُنْسِي رسائلَ عبدِ الحميد
يَعِيها شيوخُ الحِمى كالحديث   ويحفظها النَّشْءُ حِفْظ النشيد
فما بالُها نَكِرَتْها الأُمورُ   وطولُ المدَى، وانتقالُ الجُدود؟[٥]
لقد نسِيَ القومُ أَمسِ القريبَ   فهل لأَحاديثه من مُعيد؟
يقولون: ما (لأَبي ناصرٍ)   وللتُّرْكِ؟ ما شأْنُه والهنود؟
وفِيمَ تحمَّل هَمَّ القريبِ   من المسلمينَ وهَمَّ البعيد؟
فقلتُ: وما ضرَّكم أَن يَقومَ   من المسلمين إمامٌ رشيد؟
أَتستكثرون لهم واحدًا   ولَّى القديم نصيرَ الجديد؟
سَعى ليؤلِّف بينَ القلوبِ   فلم يَعْدُ هَدْيَ الكتابِ المجيد
يَشُدُّ عُرا الدينِ في داره   ويدعو إِلى الله أهلَ الجحود
ولِلقومِ حتى وراءَ القفارِ   دعاةٌ تُغنِّي، ورُسْلٌ تشيد
جزى الله مَلْكًا من المحسنين   رءُوفُ الفؤادِ، رحيمُ الوريد[٦]
كأَنَّ البيانَ بأَيامه   أَو العِلْمَ تحتَ ظلالِ (الرشيد)[٧]
يُداوِي نداه جِراحَ الكرامِ   ويدركهم في زوايا اللُّحود
أَجارَ عِيالَك من دهرهم   وجاملهم في البلاءِ الشديد
تولَّى الوليدة في يُتمها   وكفكفَ بالعطف دمعَ الوليد
سلامٌ (أَبا ناصرٍ) في التراب   يُعِير الترابَ رَفِيفَ الوُرود
بَعُدْتَ وعزَّ إِليك البريدُ   وهل بينَ حَيٍّ ومَيْتٍ بريد؟
أَجَلْ؛ بيننا رسلُ الذكرياتِ   وماضٍ يُطِيفُ، ودمعٌ يجود

وفكرٌ وإن عقلَتْه الحياةُ يَظَلُّ بوادي المنايا يَرود[8]
أَجَلْ؛ بيننا الخُشُبُ الدائباتُ وإن كان راكبُها لا يعود
مضى الدهرُ وهْيَ وراءَ الدموعِ قيامٌ بمُلْكِ الصَّحارى قُعود
وكم حملَتْ من صَديدٍ يَسيلُ وكم وضَعَتْ من جِناشٍ ودُود
نَشَدْتُكَ بالموت إلا أَبنْتَ أأَنت شَقيٌّ به أَم سعيد؟
وكيف يُسَمَّى الغريبَ امروٌ نَزِيلُ الأُبُوّةِ، ضَيْفُ الجُدود؟[9]
وكيف يُقال لجار الأَوائـ ـلِ جارِ الأَواخرِ: ناءٍ وَحيد؟

هوامش

(١) هو مصطفى كامل الزعيم الوطني الأول، وفريد: هو محمد فريد الزعيم الوطني الثاني، وكانا صاحبي الفقيد في المبدأ والجهاد.

(٢) الآلاء: النعم.

(٣) الداهي: هو الذي يأتي بالداهية، وهي الأمر العظيم.

(٤) كان الفقيد محرِّر جريدة اللواء في عهدها الأول.

(٥) الجدود هنا: بمعنى الحظوظ.

(٦) هو جلالة فؤاد الأول ملك مصر، حيث تعطَّف على أبناء الفقيد ولم يتركهم بعد وفاة أبيهم لتصاريف الزمن؛ فأنعم عليهم بهبة ملكية وافرة.

(٧) هو هارون الرشيد، وقد اعتزَّ العلم والأدب في عهده اعتزازًا كبيرًا.

(٨) يرود: أي يبحث ويكتشف.

(٩) يقول: إن الميت ينزل في التراب ضيفًا على آبائه وجدوده، إذن فليس يصح أن نعتبره غريبًا ولا وحيدًا.

تعزية ورثاء[1]

كـأْسٌ مِـن الـدنـيـا تُـدارْ   مَـنْ ذاقـهـا خَـلـع الـعِـذارْ[1]
الــلــيــلُ قــوَّامٌ بــهــا   فـإذا وَنَـى قـام الـنـهـار
وحَـبـا بـهـا الأَعـمـارَ، لـم   تدُم الطِّوالُ، ولا الـقِـصـار
شَـرِبَ الـصـبـيُّ بـهـا، ولـم   يـخـل الـمُـعَـمَّـرُ مِـن خُـمـار
وحَـسـا الـكـرامُ سُـلافَـهـا   وتـنـاول الـهَـمَـلُ الـعُـقـار[2]
وأَصـاب مـنـهـا ذو الـهـوى   ما قد أَصاب أَخو الوقار
ولـقـد تـمـيلُ عـلـى الـجـمـا   د، وتصرَع الـفـلَـكَ الـمُـدار
كـأسُ الـمـنـيّـةِ فـي يـدٍ   عَـشْـراءَ، ما منـهـا فِـرار[3]
تـجـرى الـيـمـينَ، فَـمَـنْ تـو   لَّـى يَـسْـرَةً جَـرَت الـيَـسـار
أَوْدَى الـجـريءُ إذا جـرى   والـمـسـتـمـيـتُ إذا أَغـار
لـيـثُ الـمـعـامـعِ، والـوقـا   ئـع، والمواقِع، والـحِـصـار
وَبَـقـيَّـةُ الـزُّمَـرِ الـتـي   كـانـت تَـذود عـن الـذِّمـار
جندُ الخلافةِ، عَسكُر الســ   ــلطانِ، حـامـيـةُ الـديـار
ضـاقـت (كـريـدُ) جـبـالُـهـا   بك يا (خلوصي) والـقِـفـار

---

[1] وجَّه هذه التعزية إلى صديقه حامد بك خلوصي حين مات والده المرحوم الأميرالاي مصطفى بك خلوصي، وقد كان من الضباط الكرام الذين مجدوا في قمع الثورة في الجزيرة (كريد) أيام كانت تابعة للدولة العثمانية.

أَيّامُكم فيها — وإن طال المدى — ذاتُ اشْتِهار
عَلِمَ العدوُّ بأَنكم أَنتم لِمِعْصمِها سِوار
أَحْدَقْتُمُ بمقرِّه فتركتموه بلا قرار
حتى اهتدى مَنْ كان ضـ ـلَّ، وثاب من قد كان ثار
واعْتزَّ ركنٌ للولا ية كان مُنْقضَّ الجدِار
عِشْ للعُلا والمجدِ — يا خيرَ البنين — ولِلفخار
أَبكي لدمعك جاريًا ولدمع إِخوتِكَ الصِّغار
وأَوَدُّ أَنكُمُ رجا لٌ مثل والدِكم كِبار
وأُريد بيتَكُمُ عما را، لا يُحاكيه عمَار
لا تخرجُ النَّعماءُ منـ ـه، ولا يُزايِلُه اليَسار

هوامش

(١) العذار: الحياء والوقار.

(٢) السلاف والعقار: من أسماء الخمر، يقال: حسا فلان الماء إذا شربه شيئًا بعد شيء.

(٣) يقال للرجل: أعسر، إذا عمل بيده الشمال. والعرب تصف ما ليس محبوبًا بالأعسر إذا كان مذكرًا، وبالعسراء إذا كان مؤنثًا، فيد المنية عسراء، لأنها كذلك.

ذكرى هيجو[1]

ما جلَّ فيهم عيدُك المأْثورُ   إلا وأَنت أَجلُّ يا فكتورُ
ذكروكَ بالمئة السنينَ، وإنها   عُمرٌ لمثلكَ في النجوم قصير
ستدوم ما دام البيانُ، وما ارتقت   للعالمين مَداركٌ وشعور
ولئن حُجِبْتَ فأَنت في نظر الورى   كالنجم لم يُرَ منه إلا النور
لولا التُّقَى لفتحْتُ قبرَك للمَلا   وسأَلتُ: أَين السيِّدُ المقبور؟[1]
ولقلتُ: يا قومُ انظروا إنجيلَكم   هل فيه من قلم الفقيد سُطور؟
مَنْ بعدَه مَلكَ البيانَ؟ فعندك   تاجٌ فقدتم رَبَّهُ وسرير
مات القريضُ بموت (هوجو)، وانقضى   مُلْكُ البيانِ، فأَنتُمُ جُمهور
ماذا يزيد العيدُ في إجلاله   وجَلاله بيرَاعِه مَسطور؟
فقدَتْ وجوهُ الكائناتِ مُصَوِّرًا   نزل الكلامُ عليه والتصوير
كُشِفَ الغطاءُ له، فكلُّ عبارةٍ   في طَيِّها للقارئين ضَمير
لم يُعْيِهِ لفظٌ، ولا معنىً، ولا   غرضٌ، ولا نظمٌ، ولا منثور
مُسْلِي الحزينِ يَفُكُّهُ من حزنه   وبَرُدُّه لله وهْوَ قرير
ثأرَ الملوك، وظلَّ عندَ إبائه   يرجو ويأْمل عفوَه المثؤور

[1] نُظِمَت هذه القصيدة في ذكرى شاعر فرنسا الكبير (فيكتور هيجو) لمناسبة مرور مائة عام على وفاته.

وأَعــارَ (واتــرلــو) جــلالَ يَـراعِـه   فجلالُ ذاك السيفِ عنه قصير[٢]
يا أَيُّها البحرُ الذي غمر الثرى   ومِـنَ الـثـرى حُـفَـرٌ لـه وقـبـور
أَنت الحقيقةُ إن تَحجَّب شخصُها   فلها على مرِّ الزمانِ ظهور
ارفعْ جِدادَ العالمين وعُدْ لهم   كَـيْـمـا يُـعَـيِّـد بـائـسٌ وفـقـيـر
وانظرْ إلى البُؤساءِ نظرةً راحمٍ   قد كان يُسعد جَمْعَهم ويُجير[٣]
الحالُ باقيةٌ كما صَوَّرْتَها   من عهد آدَم ما بها تغيير
البؤس والنُّعْمى على حاليهما   والحظُّ يَعدِل تارةً ويجور
ومن القويِّ على الضعيف مُسَيْطِرٌ   ومن الغنيِّ على الفقير أَمير
والنفسُ عاكفةٌ على شهواتها   تَـأوِي إلى أَحقادها وتثور
والعيشُ آمالٌ تَجِدُّ وتنقضي   والموتُ اَصدقُ، والحياةُ غرور[٤]

هوامش

(١) الملأ: جماعة الناس.

(٢) واترلو: علم على موضع من المواضع الذي حصلت فيه الموقعة التي هُزِمَ فيها نابليون هزيمته الكبرى.

(٣) يشير إلى رواية البؤساء، تأليف فكتور هيجو.

(٤) العيش آمال تجد: أي تتجدد.

عبده الحامولي[1]

ساجعُ الشرقِ طار عن أَوْكارِه — وتَوَلَّى فنٌّ على آثاره[1]
غاله نافذُ الجناحين ماضٍ — لا تَفِرُّ النسورُ من أَظفاره
يطْرُق الفرخَ في الغُصون ويَغشَى — (لُبَدًا) في الطويلِ من أَعماره[2]
كان مِزمارَه، فأَصبح داو — دُ كئيبًا يبكي على مِزماره[3]
(عبدُهُ) بَيْدَ أَن كلَّ مُغَنٍّ — عَبْدُه في افتنانِه وابتكاره
مَعْبَدُ الدَّولَتيْنِ في مصرَ، وإِسحا — قُ (السَّمِيَّيْنِ) ربِّ مصرٍ وجاره[4]
في بِساط الرشيدِ يومًا، ويومًا — في حِمَى جعفرٍ وضافي سِتاره[5]
صَفْوُ مُلْكيْهما به في ازديادٍ — ومن الصَّفو أَن يلوذَ بداره
يُخْرِج المالكين من حِشْمَةِ المُلْـ — ـكِ، ويُنْسِي الوقورَ ذِكْرَ وَقاره
رُبَّ ليلٍ أَغارَ فيه القَماري — وأَثارَ الحِسانَ من أَقماره[6]
بصَبًا يُذْكِرُ الرِّياضَ صَباهُ — وحجازٍ أَرق مِن أَسحاره[7]
وغناءٍ يُدارُ لحْنًا فلَحْنًا — كحديثِ النديمِ أَو كعُقاره
وأَنِينٍ لو أَنه من مَشوقٍ — عرف السامعون مَوْضِعَ ناره
يتمنَّى أَخو الهوى منه آهًا — حينَ يُلْحَى تكون من أَعذاره

[1] توفي عبده الحامولي في ١٩٠٢، وكان نادرة الزمن في حسن الصوت وفي ابتكار الألحان، هذا إلى أريحية ومروءة يضرب بهما المثل.

زَفَراتٌ كأَنها بَثُّ (قيسٍ) في معاني الهوى وفي أَخباره[٨]
لا يُجاريه في تَفَنُّنِه العو دُ، ولا يَشْتَكِي إذا لم يُجارِه
يسمع الليلُ منه في الفجر: يا ليـ ـلُ، فيُصْغِي مُسْتَمْهِلاً في فِراره
فُجِعَ الناسُ يومَ مات (الحمولي) بدواءِ الهمومِ في عَطَّاره
بأَبي الفنِّ، وابنِه، وأَخيهِ القويِّ المكينِ في أَسراره
والأَبيِّ العفيفِ في حالَتيْهِ والجوادِ الكريمِ في إيثاره
يَحْبِسُ اللحنَ عن غَنِيٍّ مُدِلٍّ ويُذيقُ الفقيرَ من مُختاره[٩]
يا مُغيثًا بصوته في الرزايا ومُعينًا بماله في المَكاره
ومُحِلَّ الفقيرِ بين ذَويه ومُعِزَّ اليتيمِ بين صِغاره
وعِمادَ الصديقِ إن مال دهرٌ وشِفاءَ المحزونِ من أَكداره
لستَ بالراحلِ القليلِ فتُنسى واحدُ الفنِّ أُمَّةٌ في ديارِه
غايةُ الدهرِ إن أَتى أَو تَوَلَّى ما لقيتَ الغداةَ من إدباره
نزل الجد في الثرى، وتساوَى ما مضى من قيامه وعِثاره
وانقضى الداءُ باليقين من الحا لَيْن، فالموتُ مُنتهَى إقصاره
لَهْفَ قومي على مخايلِ عزٍّ زال عنّا بروضِهِ وهَزاره[١٠]
وعلى ذاهبٍ من العيش، ولَّيْـ ـتَ فولَّى الأَخيرُ من أَوطاره
وزمانٍ أَنتَ الرِّضَى من بقايا هُ، وأَنت العَزاءُ من آثاره
كان للناس ليلُه حينَ تشدو لحقَ اليومَ ليلُه بنهاره

هوامش

(١) الأوكار: جمع وكر، وهو عش الطائر.

(٢) لبد: اسم نسر.

(٣) يشبه صوت المرثي في صفائه بمزمار داود النبي صاحب المزامير.

(٤) يشبهه بمعبد وإسحاق. ويقصد بقوله «رب مصر وجاره» ملك مصر وجاره من أرباب الأقطار العربية. يعني أن عبده كان يطرب الأقطار العربية جميعها كما كان معبد وإسحاق كذلك.

(٥) الرشيد: هو هارون الرشيد. وجعفر: هو جعفر البرمكي وزيره، والغرض أن المرثي كان يتنقل من بساط الملوك المشابهين للرشيد، إلى بساط الوزراء المشابهين لجعفر.

(٦) القماري: جمع قمرية، نوع من الحمام حسن التغريد. والأقمار: جمع قمر. يريد أنه كان يطرب الحسان الشبيهات بالأقمار.

(٧) صبا الرياض — بفتح الصاد —: نسيمها. أمَّا كلمة «صبا» الواقعة في أول البيت فمقصود بها نغمة معروفة في فن الغناء، وهي مفتوحة الصاد أيضًا، كأنها سميت بذلك تشبيهًا لها بالنسيم المعروف بالصبا، وكذلك «حجاز»: نغمة معروفة في الغناء أيضًا.

(٨) قيس: هو ابن الملوح الشهير بمجنون ليلى.

(٩) المدِّل بالمال: المتباهي به، يشير هذا البيت على بعض ما يؤثر عن عبده رحمة الله عليه، أنه كان يلجأ إليه الفقراء ليحيي أفراح أولادهم، فيحسن إليهم، ويجيب طلبهم، وينفق من ماله في تشييد الاحتفال اللائق بسهرته. وربما آثر هذه الليلة الفقيرة على دعوة أحد الأغنياء الكبار، ويروى له في هذا الباب حكايات كثيرة.

(١٠) الهزار: طائر حسن الصوت، فارسي.

قاسم بك أمين[١]

يا أَيُّهـا الـدَّمـعُ الـوَفِـيُّ، بَدارِ … نقضي حقوقَ الرفقةِ الأَخيار[١]

أَنا إِن أَهنتُك في ثراهم فالهوى … والعهدُ أَن يُبْكَوْا بدمعٍ جاري[٢]

هانوا وكانوا الأَكرمين، وغُودروا … بـالـقَـفْـر بـعـدَ مـنـازلٍ وديـار

لهفي عليهم؛ أُسْكِنوا دورَ الثرى … من بعد سُكْنَى السمعِ والأَبصار

أَين البشاشةُ في وسيم وجوههم … والـبـشـرُ لـلـندمـاءِ والـسُّـمّـار؟[٣]

كنا من الدنيا بهم في رَوْضةٍ … مَـرّوا بـهـا كـنسـائم الأَسـحـار

عطفًا عليهم بالبكاءِ وبالأَسى … فـتَـعـهُّـدُ الـموتـى مـن الإِيـثـار[٤]

يا غائبينَ وفي الجوانح طيْفُهم … أَبـكـيـكُـمُ مـن غُـيَّـبٍ حُـضَّـار

بيني وبينكمُ وإِن طال المدَى … سَـفـرٌ سـأَزمَـعُـه مـن الأَسـفـار

إِنـي أَكادُ أَرى مـحِّـلـيَ بـيـنـكم … هـذا قَـرارُكُـمُ، وذاك قَـراري

أَوَ كُلَّما سَمح الزمانُ وبُشِّرَت … مصرٌ بفردٍ في الرجال مَنار[٥]

فُـجِـعَـتْ بـه، فـكـأَنـه وكـأَنـهـا … نجمُ الهدايةِ لم يَدُمْ للساري؟

إِنّ المصيبةَ في (الأَمين) عظيمةٌ … مَـحـمـولـةٌ لـمـشـيـئـةِ الأَقـدارِ

فـي أَرْيَـحـيٍّ مـاجـدٍ مُـسـتَـعْـظَـمٌ … رُزْءُ الـمـمـالـكِ فـيـه والأَمـصـار

أَوْفَـى الـرجـالِ لـعـهـدِه ولِـرأيـه … وأَبَـرّهـم بـصـديـقـهِ والـجـار

---

[١] المرحوم قاسم بك أمين هو الزعيم صاحب دعوة تحرير المرأة في مصر، وقد توفي في سنة ١٩٠٩.

وأَشَدّهم صَبرًا لمعتقَداتِه ... وتأدُّبًا لمجادلٍ ومماري
يَسقي القرائحَ هادئًا مُتواضعًا ... كالجَدول المُترقْرِقِ المتواري
قلْ للسَّماءِ تَغُضُّ من أقمارها ... تحت الترابِ أَحاسنُ الأَقمار
من كل وضَّاءِ المآثر فائتٍ ... زُهرَ النجوم بزَهْره السيار
تمضي الليالي لا تنال كمالَه ... بمعيب نقصٍ أَو مَشينِ سرار[٦]
آثارُه بعدَ المواتِ حياتُه ... إِنّ الخلودَ الحقَّ بالآثار
يَا مَنْ تَفَرَّدَ بالقضاءِ وعِلمِه ... إلا قضاءَ الواحدِ القهّار
ما زِلتَ ترجوه، وتخشى سهْمَه ... حتَّى رمَى فأَحطْتَ بالأَسرار
هلا بُعثتَ فكنت أَفصحَ مُخْبِرًا ... عمَّا وراءَ الموتِ من (لازار)؟[٧]
انفُضْ غُبارَ الموتِ عنك وناجِني ... فعَسَايَ أَعلمُ ما يكون غُباري
هذا القضاءُ الجِدُّ، فارْوِ، وهات عن ... حُكْمِ المنيةِ أَصدقَ الأَخبار
كَلٌّ وإن شَغَفَتْهُ دُنياه هوًى ... يومًا مُطلِّقُها طلاقَ (نَوار)[٨]
لله (جامعةٌ) نَهضْتَ بأَمرها ... هي في المشارق مَصدرُ الأَنوار[٩]
أُمْنِيَّةُ العُقلاءِ قد ظفِروا بها ... بعد اختلافِ حوادثٍ وطَواري
والعقلُ غايةُ جَرْيه لأَعنَّةٍ ... والجهلُ غايةُ جَرْيه لعِثَار
لو يعلمون عظيمَ ما تُرْجى له ... خرجَ الشحيحُ لها من الدينار
تشْرِي الممالكُ بالدَّم استقلالَهَا ... قوموا اشتروه بفضَّةٍ ونُضار
بالعلم يُبنى الملكُ حقَّ بِنائه ... وبه تُنال جلائلُ الأَخطار
ولقد يُشاد عليه من شُمِّ العُلا ... ما لا يُشادُ على القنا الخطَّار[١٠]
إن كان سَرَّك أَن أَقمتَ جِدارها ... قد ساءَها أَن مالَ خيرُ جِدار
أَضحت من الله الكريم بذمّةٍ ... مَرْموقةِ الأَعوانِ والأَنصار
كُلِئَتْ بأَنظار (العزيزِ)، وحُصِّنتْ ... (بفؤادَ)؛ فهي مَنيعةُ الأَسوار[١١]
وإذا العزيزُ أَعارَ أَمرًا نظرةً ... فاليمنُ أَعجلُ، والسُّعودُ جَواري
ماذا رأَيتَ من الحجاب وعُسره ... فدعَوْتنا لِتَرَفُّقٍ ويَسار؟
رأيٌ بَدا لك لم تجدْه مُخالفًا ... ما في الكتاب وسُنَّةِ المختار
والباسِلان: شجاعُ قلبٍ في الوَغى ... وشُجَاعُ رأي في وَغى الأَفكار
أَوَدِدْت لو صارت نساءُ النيل ما ... كانت نساءُ (قُضاعةٍ) و(نِزار)؟[١٢]

يَجمعن في سلم الحياةِ وحربِها … بأْسَ الرِّجالِ وخَشيةَ الأَبكار
إِن الحجابَ سماحةٌ ويَسارةٌ … لولا وحوشٌ في الرجال ضَواري
جَهِلوا حقيقتَه وحِكْمة حُكمه … فتجاوزوه إِلى أَذىً وضِرار
يا قُبّة (الغوري) تحتكِ مأْتمٌ … تَبقى شعائرُه على الأَدهار
يُحييه قومٌ في القلوب على المدى … إِن فاتهم إِحياؤه في دار
هيهات! تُنسَى أُمةٌ مدفونةٌ … في أَربعين من الزمان قِصار
إِن شئتَ يومًا أَو أَردت فحقبةً … كلٌّ يمرُّ كليلةٍ ونهار
هاتوا ابنَ (ساعدةٍ) يُؤبِّنُ قاسمًا … وخذوا المراثِيَ فيه من (بَشَّار)[١٣]
من كلِّ لائقةٍ لباذخ قدرِه … عَصماءَ بينَ قلائدِ الأَشعار

هوامش

(١) بدار: يعني بادر.

(٢) يقول: إن الذين أبذل دمعي وأهينه في ترابهم هم هواي وموضع حبي، وليس عجيبًا أن يبكي الإنسان أهل حبه وهواه.

(٣) السمار: جمع سامر، والسمر: حديث الأصدقاء بالليل.

(٤) الإيثار: هو أن تعطي لغيرك ما أنت محتاج إليه.

(٥) المنار: هو العلم يهتدي الناس به في الطريق.

(٦) سرار — بفتح السين وكسرها —: مشتق من قولهم: استسر القمر، إذا خفي ليلة السرار، وهي آخر ليلة أو ليلتين في الشهر.

(٧) لآزار أو عازار: اسم الرجل الذي أحياه سيدنا عيسى، ويقول لو بعثت لكنت أفصح في إخبارك عن الموت من هذا الرجل.

(٨) نوار: اسم امرأة بعينها كانت زوجة الفرزدق الشاعر، فطلَّقها فندم كثيرًا حتى ضُرِبَ المثل بندامته في كل طلاق نادم.

(٩) هي الجامعة المصرية، وكان للفقيد فضل مذكور في إنشائها.

(١٠) الخطار: أي المهتز، واهتزاز القنا: كناية عن استعداده للقتال.

(١١) العزيز: هو كل ملك لمصر: وكان الخديو عباس وقتئذ، وفؤاد، هو جلالة ملك مصر فؤاد الأول.

(١٢) ليس الغرض نساء هاتين القبيلتين قضاعة ونزار بالذات، وإنما المقصود المرأة العربية الموصوفة في البيت التالي.

(١٣) ابن ساعدة، هو قسٌّ بن ساعدة الإيادي، أحد خطباء العرب الحكماء، يضرب به المثل فلا بلاغة الخطب، وبشَّار: هو بشَّار بن برد الشاعر المشهور، يقول إن قاسمًا لا يؤبنه إلا أَمثال قس من الخطباء وأمثال بشار من الشعراء.

تولستوي[1]

(تولستُويُ)، تُجرِي آيةُ العلمِ دمعَها
عليك، ويَبكي بائسٌ وفقيرُ
وشعبُ ضعيفُ الركنِ زال نَصيره
وما كلَّ يومٍ للضعيف نصير
ويَندُب فلاَّحون أَنت مَنارُهم
وأَنت سراجٌ غيّبوه مُنير
يعانونَ في الأَكواخِ ظُلمًا وظلمةً
ولا يملكون البثَّ وهْوَ يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضى
عليهم، وتَغْشَى دورَهم وتزور
ويَأْسَى عليك الدِّينُ، إِذ لك لُبُّه
وللخادمين الناقمين قُشور
أَيكفر بالإنجيل مَنْ تلك كُتْبُه
أَناجيلُ منها مُنذِرٌ وبَشير؟

[1] تولستوي: هو الفيلسوف الروسي الشهير، كان عالمًا عاملاً بما يقول، فتخلى عن ماله الجمِّ ليساوي نفسه بالفقراء، ولعل رواياته ومؤلفاته كانت الأناجيل الأولى للثورة الأخيرة في روسيا وقد توفي سنة ١٩١٠ وهو شيخ كبير.

ويبكيك إِلفٌ فوق (ليلى) ندامةً
غداةَ مشى (بالعامريِّ) سَرير
تناولَ ناعيكَ البلادَ كأَنه
يراعٌ له في راحَتَيْك صَرير[١]
وقيل: تولَّى الشيخُ في الأَرض هائمًا
وقيل: (بدَيْرِ) الراهباتِ أَسير
وقيل: قَضَى لم يُغْنِ عنه طبيبهُ
وللطبِّ من بطشِ القضاءِ عَذير
إِذا أَنت جاورْت (المعرِّيَّ) في الثرى
وجاور (رَضْوَى) في التراب (ثَبير)[٢]
وأَقبلَ جمعُ الخالدينَ عليْكما
وغالَى بمقدار النظيرِ نظير
جَماجِمُ تحتَ الأَرضِ عَطَّرها شذَى
جَنَاهُنَّ مسكٌ فوقها وعَبير
بهنّ يُباهِي بطنُ (حَوَّاءَ)، واحتوَى
عليهن بطنُ الأَرضِ وهْوَ فَخور
فقُلْ يا حكيمَ الدهر حَدِّثْ عن البِلَى
فأَنت عليمٌ بالأُمور خبير
أَحطْتَ من الموتى قديمًا وحادثًا
بما لم يُحَصِّلْ مُنْكرٌ ونَكير[٣]
طوانا الذي يطوي السماواتِ في غادِ
ويَنشُرُ بعدَ الطيِّ وهْو قدير[٤]
تقادم عَهدانا على الموتِ، واسْتوى
طويلُ زمانٍ في البِلَى وقصير
كأَن لم تَضِقْ بالأَمس عَنِّي كنيسةٌ
ولم يُؤوِني دَيْرٌ هناك طَهور
أَرى راحةً بين الجنادلِ والحصى
وكلُّ فِراشٍ قد أَراح وَثير[٥]

نظرنا بنُور الموتِ كلَّ حقيقةٍ
وكنَّا كِلانا في الحياة ضَرير
إِليكَ اعترافي، لا لقَسٍّ وكاهنٍ
ونجْوايَ بعدَ اللهِ وهْوَ غفور
فزهدُك لم يُنْكِرْه في الأَرض عارفٌ
ولا مُتعالٍ في السماءِ كبير
بيانٌ يشَمُّ الوحيُ من نفحاته
وعلمٌ كعلم الأنبياءِ غَزير
سلكتُ سبيلَ المُتْرَفِينَ، ولذَّ لي
بنونَ ومالٌ، والحياةُ غُرور
أَداةُ شتائي الدفءُ في ظلِّ شاهقٍ
وعُدَّةُ صيفي جَنّةٌ وغَدير
ومُتِّعْتُ بالدنيا ثمانين حِجَّةً
ونضَّر أَيّامي غنىً وحُبور
وذكرٌ كضوءِ الشمسِ في كلِّ بَلدةٍ
ولا حَظَّ مثلُ الشمسِ حينَ تَسير
فما راعني إلا عَذارَى أَجَرْنني
ورُبَّ ضعيفٍ تحْتَمِي فُيجير
أَردْتُ جِوارَ اللهِ والعمرُ مُنْقضٍ
وجاورتُه في العمر وهْوَ نَضير
صِبًا، ونعيمٌ بين أَهلٍ ومَوْطنٍ
ولذَّاتُ دنيا، كلُّ ذاك نَزور[٦]
بهنّ — وما يدرين: ما الذنبُ؟ — خشيةٌ
ومن عَجَبٍ تَخْشَى الخطيئَة حُور[٧]
أَوانسُ في داجٍ من الليل مُوحِشٍ
ولله أَنسٌ في القلوب ونُور

وأَشبهُ طُهْرٍ في النساءِ بِمَرْيَمٍ
فتاةٌ على نَهج المسيحِ تسير
تُسائلُني: هل غيَّر الناسُ ما بهم؟
وهل حَدَثَتْ غيرَ الأُمور أُمور؟
وهل آثر الإِحسانَ والرفقَ عالمٌ
دواعي الأَذى والشرِّ فيه كثير؟
وهل سلكوا سُبْلَ المحبَّةِ بينهم
كما يتصافى أُسرةٌ وعَشير؟
وهل آنَ مِنْ أَهل الكتابِ تسامُحٌ
خَليقٌ بآدابِ الكتابِ جَدير؟
وهل عالجَ الأَحياءُ بؤسًا وشِقْوَةً
وقلَّ فسادٌ بينهم وشرور؟
قم انظر وأَنت المالئُ الأَرضَ حكمةً
أَأَجدى نظيمٌ، أَم أَفادَ نثير؟
أُناسٌ كما تدري، ودنيا بحالها
ودهرٌ رَخِيٌّ تارةً وعَسير
وأَحوالُ خلقٍ غابرٍ مُتجدِّدٍ
تشابه فيها أَوَّلٌ وأَخير
تمرَّ تِباعًا في الحياة كأَنها
ملاعبُ لا تُرْخَى لهنّ سُتور
وحرصٌ على الدنيا، ومَيْلٌ مع الهوى
وغِشٌّ، وإِفكٌ في الحياة، وزُور
وقام مقامَ الفردِ في كلِّ أُمّةٍ
على الحكم جَمٌّ يستبدّ غَفير
وحُوِّر قولُ الناس: مَوْلًى وعَبْدُه
إِلى قولهم: مُستأْجِرٌ وأَجير

وأَضحى نفوذُ المال لا أَمرَ في الورى
ولا نَهْي إلا ما يرَى ويُشير
تساسُ حكوماتٌ به وممالكٌ
ويُذْعِن أَقيالٌ له وصدور[8]
وعصرٌ بنوه في السلاحِ، وحِرْصُهُ
على السلم يُجْرِي ذكرَه ويُدير
ومن عجبٍ في ظلِّها وهْوَ وارفٌ
يُصادف شعبًا آمنًا، فيُغير
ويأْخذُ من قوت الفقيرِ وكَسْبِه
ويُؤوِي جيوشًا كالحصى ويَمير
ولمَّا استقلّ البرَّ والبحرِ مذهبًا
تَعَلَّقَ أَسبابَ السماءِ يطير

هوامش

(١) الصرير: التصويت. واليراع: القلم.

(٢) المعري: هو أبو العلاء المعري، وشعره الفلسفي الاجتماعي مشهور. ورضوى وثبير علمان على جبلين: أولهما بالمدينة وثانيهما بمكة: يريد تشبيهه هو والمعري بهذين الجبلين.

(٣) يريد أنه كان يعرف أشرار النفوس جد المعرفة.

(٤) النشر: هو البعث من الموت، وهو أيضًا ضد الطي.

(٥) الفراش الوثير: اللين الناعم.

(٦) نزور: أي قليل.

(٧) الحور: جمع حوراء، وهي الجارية في عينها حور. والحور: اشتداد بياض العين وسوادها.

(٨) أقيال: جمع قيل، وهو الملك. والصدور: جمع صدر، وهو العظيم من الناس كالوزير ونحوه.

عمر بك لطفي[1]

قِفوا بالقبور نُسائِلْ عُمَرْ متى كانت الأَرضُ مَثْوَى القمرْ؟
سلوا الأَرضَ: هل زُيِّنَتْ للعليـ ـم؟ وهل أُرِّجَتْ كالجِنانِ الحُفَر؟
وهل قام (رضوانُ) من خلفها يُلاقي الرَّضِيَّ النَّقِيَّ الأَبرّ؟
فلو علِمَ الجمعُ مِمَّنْ مَضَى تنَحَّى له الجمعُ حتى عَبر
إِلى جَنَّةٍ خُلِقَتْ للكريم ومَن عَرَفَ اللهَ، أَو مَنْ قَدَر
بِرَغْمِ القلوبِ وحبَّتِها ورَغْمِ السماعِ، ورَغْمِ البصر
نزولُكَ في التُّرْبِ زَيْنَ الشبابِ سناءَ «النَّدِيِّ» سَنَى «المؤتمر»[1]
مُقيلَ الصديقِ إِذا ما هَفا مُقيلَ الكريمِ إِذا ما عثر
حَيِيتَ فكنتَ فخارَ الحياةِ ومُتَّ فكنتَ فخارَ السِّير
عجيبٌ رَداكَ، وأَعجبُ منه حياتُك في طولها والقِصَر
فما قبلَها سمعَ العالمون ولا علموا مُصحفًا يُختصر
وقد يَقتلُ المرءَ همُّ الحياةِ وشغلُ الفؤادِ، وكدُّ الفِكر
دَفَنَّا التجاربَ في حُفرةٍ إِليها انتهى بك طولُ السَّفر
فكم لكَ كالنَّجم من رِحلةٍ رأَى البدوُ آثارَهَا والحَضَر

[1] توفي عمر بك لطفي في سنة ١٩١١، وكان عالمًا قانونيًا ضليعًا، كما كان في حياته يكاد يتقَّد غيرة على قوميته وحبًا لمصلحة بلاده، وهو في طليعة مؤسسي نقابات التعاون في مصر.

«نِقاباتُك» الغُرُّ تَبكي عليك ... ويَبكي عليك «النَّدِيُّ» الأَغر
ويـبـكـي فـريـقٌ تـخـيَّـرتَـه ... شَريفَ المَرامِ، شَريفَ الوَطَر
ويَبكي الأُلَي أَنتَ علَّمتَهُمْ ... وأَنت غرسْتَ، فكانوا الثمر
حَياتُك كانَتْ عِظاتٍ لهم ... وموتُك بالأَمسِ إِحدى العِبَر
سَهِرنا قُبيْلَ الرَّدى ليلةً ... وما دارَ ذكرُ الرَّدى في السمر[٢]
فقمتَ إِلى حفرة هُيِّئَتْ ... وقمتُ إِلى مثلِها تُحْتَفَر
مَددتْ إِليك يدًا للوَداع ... ومدَّ يدًا للِّقاءِ القدَر
ولو أَنّ لي علمَ ما في غدٍ ... خَبَأْتُك في مُقْلتِي مِن حذًر
وقالوا: شَكَوْتَ، فما راعني ... وما أَوَّلُ النارِ إلا شَرَر
رثيتُك لا مالكًا خاطري ... من الحُزن، إلا يسيرًا خطر[٣]
ففيك عرفتُ ارتجالَ الدُّموعِ ... ومنك عَلِمْتُ ارتجالَ الدُّرر
فمثلُك يُرثَى بآي الكتابِ ... ومثلُك يُفدَى بنصف البشر
فيا قبرُ، كنْ روضةً من رِضًى ... عليه، وكنْ باقةً من زهَر
سقتْك الدموعُ، فإن لم يَدُمْنَ ... كعادتِهنّ سقاك المطر

هوامش

(١) الندى: يريد نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيسًا له. ويريد بالمؤتمر المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين في هليوبوليس، ردًا على المؤتمر الذي أقامه أعيان الأقباط في أسيوط. والسناء — بالمد —: الضوء، — وبالقصر —: الرفعة.

(٢) السمر: حديث الليل.

(٣) يريد: لا مالكًا من خاطري إلا بقية قليلة الخير لا تغني في رثائك.

عمر بك لطفي[١]

اليومَ أَصْعَدُ دونَ قبرِكَ مِنْبَرا وأُقلِّدُ الدنيا رِثاءَك جَوْهَرا
وأَقصُّ مِن شِعري كتابَ محاسنٍ تتقدَّم العلماءَ فيه مسَطِّرا
ذكرًا لفضلك عندَ مصرَ وأَهلِها والفضلَ من حُرُماتِه أَنْ يُذْكَرا
العلمُ لا يُعْلي المراتبَ وحدَه كم قدَّم العملُ الرجالَ وأَخَّرا
والعلمُ أَشبهُ بالسماءِ رجالُه خُلِطَتْ جَهامًا في السحابِ ومُمْطِرا
طُفنا بقبرِكَ، واستلمنا جَنْدلاً كالركنِ أَزْكَى، والحَطيمِ مُطهَّرا[١]
بين التشرُّفِ والخشوع، كأَنما نستقبلُ الحرمَ الشريفَ منوَّرا
لو أَنصفوكَ جنادلاً وصفائحًا جعلوكَ بالذكر الحكيم مُسَوَّرا
يا مَنْ أَراني الدهرُ صحةَ ودِّه والودُّ في الدنيا حديثٌ مُفْتَرى
وسمعتُ بالخُلُقِ العظيمِ روايةً فأَرانيَ الخلقَ العظيمَ مُصَوَّرا
ماذا لقيتَ من الرُّقاد وطوله؟ أَنا فيك أَلقى لوعةً وتحسُّرا
نَمْ ما بَدا لك آمنًا في منزلٍ الدهرُ أَقصرُ فيه من سِنَةِ الكرَى
مازلتَ في حَمْد الفِراشِ وذمِّه حتى لقيتَ به الفِراشَ الأَوْثرا[٢]
لا تَشكُوَنَّ الضُّرَّ من حشراته حشراتُ هذا الناسِ أَقبحُ مَنظرا

[١] نُظِمَت هذه القصيدة لتُلْقَى في حفلة أقيمت لتأبين عمر بك لطفي بعد الأربعين، أمَّا القصيدة السابقة فقد نُظِمَت عقب الوفاة في سرعة تشبه الارتجال.

يا سيّدَ (النادي) وحاملَ همِّه ... خلَّفتَه تحت الرَّزيَّةِ مُوقَرا[٣]
شهدَ الأَعادي كم سَهِرْتَ لمجده ... وغدَوْتَ في طلب المزيدِ مُشمِّرا
وكم اتَّقيْتَ الكَيْدَ واستدفعْته ... ورميْتَ عُدْوانَ الظنونِ فأَقصرا
ولَبِثْتَ عن حَوْض الشَّبيبة ذائدًا ... حتى جزاكَ اللهُ عنه الكَوْثرا
شُبانُ مصرَ حِيالَ قبرِكُ خُشَّعٌ ... لا يملكون سوى مدامعهم قِرى[٤]
جمعَ الأَسى لك جمعَهم في واحدٍ ... كان الشبابَ الواجِدَ المُسْتعْبِرا[٥]
لولاك ما عرفوا التعاوُن بينهم ... فيما يسُرُّ، ولا على ما كدَّرا
حيث التفَتَّ رأَيتَ حولك منهمُ ... آثارَ إحسانٍ وغرسًا مُثمِرا
كم منطقٍ لك في البلاد وحكمةٍ ... والعقلُ بينهما يُباع ويُشْترَى
تمشي إِلى الأَكواخ تُرشِد أَهلَها ... مشَي الحواريِّينَ يَهْدون القُرى[٦]
متواضعًا لله بينَ عِبادِه ... واللهُ يبغضُ عبدَه المتكبِّرا
لم تَدْرِ نفسُك: ما الغُرورُ؟ وطالما ... دخل الغُرورُ على الكبار فصغَّرا
في كلِّ ناحيةٍ تَخُطُّ نِقابةً ... فيها حياةُ أَخي الزراعةِ لو دَرَى
هي كيمِياؤُكَ، لا خُرافَةُ (جابرٍ) ... تَذَرُ المُقِلَّ من الجماعة مُكْثِرا[٧]
والمالُ لا تجنى ثِمَارَ رءُوسِه ... حتى يصيبَ من الرءُوس مُدَبِّرا
والملكُ بالأموالِ أَمنعُ جانبًا ... وأَعزُّ سلطانًا، وأَصدقُ مَظهرا
إِنا لفي زمنٍ سِفاهُ شعوبِه ... في ملكهم كالمرءِ في بيت الكِرا[٨]
أَسِواكَ مِنْ أَهلِ المبادئِ مَنْ دَعا ... للجِدِّ، أَو جمعَ القلوب النُّفَّرا؟
الموتُ قبلَك في البَريَّةِ لم يَهَبْ ... طه الأمين، ولا يسوع الخيِّرا[٩]
لمَّا دُعيتُ أَتيتُ أَنثُرُ مَدْمَعي ... ولو استطعتُ نثْرتُ جَفني في الثرى
أَبكي يمينَك في التراب غمامة ... والصَّدْرَ بحرًا، والفوادَ غضَنْفَرا
لم أُعْطَ عنك تَصَبُّرًا، وأَنا الذي ... عَزَّيْتُ فيك عن الأَمير المَعْشَرا[١٠]
أَزِنُ الرجالَ، ولي يَراعٌ طالما ... خلَع الثناءَ على الكرام مُحَبَّرا
بالأمسِ أَرسلْتُ الرثاءَ مُمَسَّكًا ... واليومَ أَهتِفُ بالثناءِ مُعَنْبَرا
غيَّرْتَني حزنًا، وغيَّرك البِلَى ... وهواك يأْبَى في الفؤاد تغيُّرا[١١]
فعَليَّ حفظُ العهد حتى نَلتقي ... وعليك أَن ترعاه حتى نُحشَرا

هوامش

(١) يقول: إننا نطوف بقبرك ونستلم أحجاره، كما يطوف حجَّاج بيت الله فيستلمون الركن والحطيم المطهرين.

(٢) الفراش الأوثر: هو الفراش الأكثر ليونة ونعومة، ويريد به تراب القبر.

(٣) النادي: هو نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيسًا له. وموقرًا: أي مثقلاً بما يحمله من فقدك.

(٤) القرى — بكسر القاف: ما يقدَّم للضيف من إكرام ونحوه.

(٥) الواجد المستعبر: هو الحزين الباكي.

(٦) الحواريون: هم أصحاب عيسى ابن مريم.

(٧) جابر: هو جابر بن حيَّان صاحب الكيمياء القديمة. والمقلُّ: هو الفقير أو هو الذي لا يملك إلا شيئًا قليلاً.

(٨) بيت الكرا: هو بيت الأجرة.

(٩) يسوع: المسيح.

(١٠) كان أمير الشعراء هو نائب الخديو عباس في تعزية الفقيد.

(١١) يشير إلى قصيدته السابقة في الفقيد.

الأميرة[1]

حَـلَـفْـتُ بـالـمُـسَـتَّـرَهْ　　والـرَّوْضـةِ الـمـعـطَّـرَهْ[1]
ومجلِسِ الزّهراءِ في الـ　　ـحـظـائـر الـمـنـوَّرة[2]
مراقدِ السُّلالةِ الطَّيِّبَـ　　ـةِ الـمـطـهَّـره
ما أَنزَلوا إِلى الثَّرَى　　بـالأَمـسِ إلا نَـيِّـره[3]
سـيـروا بـهـا تَـقِـيَّـةً　　نـقـيـةً مُـبَـرَّرَه
نُجِلُّ سِتْرَ نَعْشِها　　كـالـكُسْـوَةِ الـمُـسَيَّره[4]
ونَـنْـشُـقُ الـجـنَّـةَ من　　أَعـوادِه الـمُـنـضَّـره
في موكِبٍ تَمَثَّل الـ　　ـحقُّ فكان مَظْهَرَه
دع الـجـنـودَ والـبـنـو　　دَ والـوفـودَ الـمُـحْـضَـره
وكـلَّ دمـعٍ كَـذِبٍ　　ولَـوْعَـةٍ مُـزَوَّره
لا ينفع الميْتَ سوى　　صـالـحـةٍ مُـدَّخَـره
قد تُرْفَعُ السُّوقةُ عنـ　　ـدَ اللهِ فوقَ القَيْصَرَه[5]
يا جزَعَ العِلْمِ على　　(سُـكَـيْـنَـة) الـمُـوَقَّـره![6]
أَمسى بـرَبْـعٍ مُوحِشٍ　　مـنـهـا ودارٍ مُـقْـفِـره

[1] هي الأميرة فاطمة إسماعيل، كان لها الفضل الأول في تأسيس وإنشاء الجامعة المصرية، وقد انتقلت إلى دار الجنان في سنة ١٩٢٠.

مَنْ ذا يُؤسِّي هذه الـ   ـجامعةَ المُستْعْبِره[٧]
لو عِشْتِ شِدْتِ مثلَها   لـلـمـرأَةِ الـمـحـرَّره
بنيتِ رُكنَيْها، كما   يبني أَبوكِ المَأْثُرَه
قـرنْـتِ كـلَّ حـجـرِ   فـي أُسِّـهـا بـجـوهَـره
مَـفـخـرةٌ لـبـيـتـكـم   كم قبلها من مَفخرة!
يا بنتَ إسماعيلَ، في الـ   ـميْتِ لحيٍّ تَبْصِره[٨]
أَكـان عـنـدَ بـيـتِـكـم   لـهـذه الـدنـيـا تِـرَه؟[٩]
هـلاَّ وصَـفْـتِـهـا لـنـا   مُـقـبـلـةً ومُـدبـره؟
ولـونَـهـا صـافـيـةً   وطـعـمَـهـا مـكـدَّره؟
كالحلم، أَو كالوهم، أَو   كالظلِّ، أَو كالزَّهَره؟
(فاطمُ)، مَنْ يُولَدْ يَمُتْ   المهدُ جسرُ المقبره[١٠]
وكلُّ نفسٍ في غدٍ   مَـيِّـتـةٌ فـمُـنْـشَـرَه
وإنه مَنْ يَعملِ الـ   ـخيرَ أَو الشَّرَّ يَرَه
وإنـمـا يُـنَـبَّـهُ الـ   ـغافلُ عندَ الغَرْغَرَه[١١]
يَـلـفِـظـهـا حَـنـظـلـةً   كانت بفِيهِ سُكَّره[١٢]
ولـن تَـزالَ مـن يَـدٍ   إلى يَدٍ هذي الكُرَه
أيـنَ أبـوكِ؟ مـالُـه   وجـاهُـه، والـمـقـدره؟
وادي الـنَّـدَى، وغَـيْـثُـه   وعَـيْـنُـه الـمُـفـجَّـره[١٣]
أَيـن الأُمورُ، والـقـصـو   رُ، والبدورُ المُخْدَره؟
أَين الليالي البيضُ، والـ   ـأَصائلُ المزَعْفَره؟[١٤]
وأَين في ركن البِلا   دِ يَدُه المُعَمِّره؟
وأَين تلك الهِمَّةُ الـ   ـماضيةُ المشمِّره؟
تبغي لمصر الشرق أَو   أَكـثـرَهُ مُـسـتـعـمَـرَه
جرى الزمانُ دونَها   فـردَّه وأَعْـثَـره
فإن همَمْتَ فاذكر الـ   ـمَـقـادرَ الـمُـقَـدَّره
مَنْ لا يُصِبْ فالناسُ لا   يَـلـتـمسـون الـمـعـذِرَة

هوامش

(١) المسترة: الكعبة.

(٢) يقصد فاطمة الزهراء، بنت الرسول صلوات الله عليه، ومجلسها في حجرات النبوة.

(٣) نيِّرة: هي واحدة النجوم النيرة.

(٤) الكسوة: هي كسوة الكعبة المكرَّمة، وتسير من مصر إلى الحجاز كل عام في موكب عظيم الإجلال.

(٥) القيصرة: علم على كل ملكة للروم. والقيصر: علم على ملكها.

(٦) يشبهها بسكينة بنت الحسين في عطفها على العلم والأدب.

(٧) المستعبرة: أي الباكية لفقدها عطفك.

(٨) التبصرة: بمعنى الموعظة.

(٩) ترة: هي الثأر.

(١٠) فاطم: أي فاطمة، وحذفت التاء للترخيم، كقول امرئ القيس.

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل

(١١) الغرغرة: وقت حشرجة الروح في الصدر.

(١٢) يلفظها: أي يلفظ الحياة.

(١٣) الندى: الكرم. والعين: بمعنى النبع.

(١٤) الأصائل: الوقت من بعد العصر إلى المغرب. والمزعفرة: أي الملونة بلون الزعفران. والليالي البيض والأصائل المزعفرة: يقصد بهما الكناية عن السعادة الوارفة الظليلة.

ذكرى مصطفى كامل[١]

لم يَمُتْ مَنْ له أَثَرْ   وحياةٌ مِنَ السِّيَرْ
أُدْعُه غائبًا، وإن   بعُدَتْ غايةُ السفر
آيبُ الفضلِ كلَّما   آبتِ الشمسُ والقمر[١]
رُبَّ نورٍ مُتمِّمٍ   قد أَتانا مِنَ الحُفَر[٢]
إنما الميْتُ مَنْ مشى   مَيتَ الخيرِ والجبَر
مَنْ إذا عاشَ لم يُفِدْ   وإذا مات لم يَضِر
ليس في الجاهِ والغِنَى   منه ظِلٌّ ولا ثمر
قبُح العِزُّ في القُصو   رِ إذا ذَلَّتِ القَصرَ
أَعْوَزَ الحقَّ رائدٌ   وإلى (مصطفى) افْتَقَر
وتمنَّت حِياضُه   هَبَّةَ الصارِمِ الذَّكَر
الذي يُنْفِذُ المُدى   والذي يَركبُ الخطر[٣]
أَيُّها القومُ، عظِّموا   واضعَ الأُسِّ والحجر
أُذكروا الخُطبةَ التي   هي من آيِهِ الكُبَر[٤]
لم يَرَ الناسُ قبلَهَا   مِنبرًا تحتَ مُحْتضرَ

[١] لأمير الشعراء عدة قصائد في مصطفى كامل باشا، هذه إحداها، وقد ألقيت في الاحتفال الذي أقيم تمجيدًا لذكراه في فبراير سنة ١٩٢٦.

لـسـتُ أَنـسَـى لِـواءَه   وهو يَمشي إِلى الظَّفَر
جَـشَـرَ الـنـاسَ تـحـتَـه   زُمَـرًا إِثْـرَهـا زُمَـر
وتَـرى الـحـقَّ حـولَـه   لا ترى البيضَ والسُّمُر[٥]
كـلَّـمـا راح أَو غَـدا   نَفخَ الرُّوحَ في الصُّوَر
يا أَخا النَّفْسِ في الصِّبا   لَذَّةُ الروحِ في الصِّغر
وخـلـيـلاً ذَخَـرْتُـه   لـم يُـقَـوَّمْ بـمُـدَّخَـر
حـالَ بَـيـنـي وبـيـنـه   فـي فُـجـاءَاتِـه الـقَـدَر
كـيـف أَجـزِي مَـوَدَّةً   لم يَشُبْ صَفْوَها كدَر؟
غـيـرَ دَمْـعٍ أَقـولـهُ   قَلَّ في الشَّأْنِ أَو كَثُر؟
وفُـؤادٍ مُـعَـلَّـلٍ   بـالـخـيـالات والـذُّكَر؟
لـم يـنـم عـنك ساعةً   في الأَحاديث والسَّمَر؟
قُـمْ تَـرَ الـقـومَ كتلـةً   مثلَ مَلمومةِ الصَّخر[٦]
جَـدَّدوا أُلـفـةَ الـهـوى   والإخـاءَ الـذي شُـطِـر
لـيـس لـلـخُـلْـف بينهم   أَو لأسـبـابـه أَثَـر
أَلَّـفَـتْـهـم روائِـحٌ   غـاديـاتٌ مـن الـغِـيـر
وصـحَـوْا مـن مُـنـوِّمٍ   وأَفـاقـوا مـن الـخَـدَر[٧]
أَقـبـلـوا نـحـوَ حـقِّـهـم   مـا لـهـم غـيْـرَه وَطَـر
جـعـلـوه خَـلِـيَّـةً   شـرعـوا دونَـهـا الإبر[٨]
وتـواصَـوْا بـخُـطَّـةٍ   وتـداعَـوْا لـمـؤتـمـر[٩]
وقُـصَـارَى أولـي الـنُّـهَـى   يَـتـلاقـوْنَ فـي الـفِـكَـر
آذنـونـا بـمـوقـفٍ   من جلالٍ ومن خَطَـر
نـسـمـع الـلـيـثَ عـنـده   دون آجـامـه زأَر
قُـلْ لـهـم فـي نَـدِيِّـهـم   : مصرُ بالباب تنتظِر[١٠]

هوامش

(١) ويقول: في كل أوبة شمس، وفي كل عودة قمر، يئوب للفقيد فضل، ويتجدد له ذكر، وإذن فهو لا يحسب ميتًا، وغاية الأمر أنه غائب في سفر بعيد.

(٢) الحفر: القبور.

(٣) الذي ينفذ المدى: يراد به صاحب الطعنات النافذة.

(٤) يريد آخر خطبة للفقيد، وقد ظنَّها الناس يومئذ خطبة الوداع.

(٥) البيض: السيوف. والسمر: الرماح.

(٦) ملمومة: بمعنى مجتمعة، ويقال للدرع: ملمومة، وكذا يقال للكتيبة — وهي الفرقة من الجيش — ملمومة أيضًا.

(٧) الخدر: الكسل، وهو مصدر خدر، كفرح.

(٨) الخليَّة: موضع سكن النحل. شرعوا الإبر: رفعوها استعدادًا للنضال بها، كما يقال: شرع سيفه، إذا انتضاه من غمده.

(٩) تداعوا: تجمَّعوا.

(١٠) يريد بالندي: البرلمان، وكان وقتئذ يهيأ.

المنفلوطي[1]

اخترتَ يومَ الهولِ يومَ وَداعِ	ونعاكَ في عَصْفِ الرياحِ الناعي[1]
هتفَ النُّعاةُ ضُحىً، فأَوْصَدَ دونهم	جُرحُ الرئيسِ منافذَ الأَسماعِ
مَنْ ماتَ في فَزَعِ القيامةِ لم يَجِدْ	قدَمًا تُشَيِّع أَو حفاوة ساعي
ما ضرَّ لو صبَرتْ ركابُك ساعةً	كيف الوقوفُ إِذا أَهاب الداعي؟
خَلِّ الجنائزَ عنك، لا تحفِل بها	ليس الغرورُ لميِّتٍ بمتاع
سِرْ في لواءِ العبقريَّةِ، وانتظِمْ	شتَّى المواكب فيهِ والأَتباع
واصعد سماءَ الذكر من أَسبابها	واظهر بفضلٍ كالنهار مُذاع
فُجِعَ البيانُ وأَهلُهُ بمصوِّرٍ	لَبِقٍ بوشْي الممتِعاتِ صَناع
مَرموقِ أَسبابِ الشبابِ وإِن بَدَتْ	للشيب في الفَودِ الأَحَمِّ رَواعي[2]
تتخيلُ المنظومَ في منثوره	فتراهُ تحت روائِع الأَسجاع
لم يَجْحَدِ الفُصحَى، ولم يَهجُم على	أُسلوبها، أَو يُزْرِ بالأَوضاع
لكنْ جَرى والعصرَ في مِضمارِها	شَوْطًا، فأَحْرَز غايةَ الإِبداع
حُرُّ البيانِ، قديمُه وجديدُه	كالشمسِ جدَّةَ رُقعةٍ وشُعاعِ
يونانُ لو بِيعت (بهوميرٍ) لما	خَسِرَتْ — لعَمْرُكَ — صفْقةُ المبتاع

[1] هو الكاتب الذائع الصيت مصطفى لطفي المنفلوطي، اشتهر بأسلوب إنشائي خاص لفت إليه أنظار القُرَّاء في عصره، وقد توفي سنة ١٩٢٤.

يا مُرسلَ (النظراتِ) في الدنيا وما … فيها على ضَجَرٍ وضِيقِ ذِراع[٣]
ومُرَقْرِقَ (العبراتِ) تجري رِقَّةً … للعالم الباكي من الأَوجاع[٤]
مَنْ ضَاقَ بالدنيا فليس حكيمَها … إنَّ الحكيمَ بها رَحيبُ الباع
هِيَ والزمانُ بأَرضِهِ وسمائِه … في لُجَّةِ الأَقدارِ نِضْو شِراع[٥]
مَنْ شَذَّ ناداه إليه فردَّهُ … قَدَرٌ كراعٍ سائقٍ بقطاع[٦]
ما خَلْفهُ إلا مَقودٌ طائعٌ … مُتلفِّتٌ عن كبرياءِ مُطاع
جبارُ ذِهْنٍ، أَو شديدُ شكيمةٍ … يمضي مُضيَّ العاجزِ المُنصاع
من شَوَّهَ الدنيا إليك فلم تَجِدْ … في الملكِ غيرَ مُعذَّبين جِياع؟
أَبكل عينٍ فيه أَو وَجْهٍ ترى … لمحاتِ دمعٍ أَو رسومَ دِماع؟[٧]
ما هكذا الدنيا، ولكنْ نُقْلةٌ … دمعٌ القَريرِ وعَبْرَةُ المُلتاع
لا الفقرُ بالعَبَراتِ خُصَّ ولا الغنى … غيَرُ الحياةِ لهنّ حُكْمُ مشاع[٨]
ما زالَ في الكوخِ الوضيعِ بَواعِثٌ … منها، وفي القصرِ الرفيعِ دَواعي
في القفرِ حَيَّاتٌ يُسيِّبها به … حاوي القضاءِ، وفي الرياضِ أَفاعي
ولَرُبَّ بُؤْسٍ في الحياةِ مُقنَّعٍ … أَرْبَى على بُؤسٍ بغير قِناع
يا (مصطفى) البلغاءِ، أَيَّ يَراعةٍ … فقدوا؟ وأَيّ مُعلِّمٍ بيَراع؟
اليومَ أَبصرتَ الحياةَ؛ فقلْ لنا … : ماذا وراءَ سرابِها اللمَّاع؟
وصِفِ المنونَ؛ فكم قعدْتَ ترى لها … شَبَحًا بكلِّ قرارة ويَفاع[٩]
سكن الأَحبّةُ والعِدَى، وفَرغْتَ مِنْ … حِقْدِ الخُصوم، ومِنْ هوى الأَشياع
كم غارةٍ شَنُّوا عليكَ دفعْتَها … تصِلُ الجهودَ فكُنَّ خيرَ دِفاع
والجهدُ مُوتٍ في الحياةِ ثِمارَه … والجهدُ بعدَ الموتِ غيرُ مُضاع
فإذا مضى الجيلُ المِراضُ صدورُه … وأَتى السليمُ جوانبَ الأَضلاع
فافزعْ إلى الزمن الحكيم؛ فعنده … نَقْدٌ تنزَّهَ عن هوى ونِزاع
فإذا قضى لك أُبْتَ مِن شُمِّ العُلا … بثَنِيَّةٍ بَعدَت على الطَّلاع[١٠]
وأَجلُّ ما فوقَ الترابِ وتحتَه … قلمٌ عليه جَلالةُ الإجماع
تلك الأَناملُ نام عنهنّ البِلَى … عُطِّلْنَ من قلمٍ أَشَمَّ شُجاع
والجبنُ في قلم البليغِ نظيرُه … في السيف مُنْقَصَةٌ وسوءُ سماع

هوامش

(١) يشير بيوم الهول إلى أن وفاة الفقيد كانت في يوم إطلاق الرصاص على الزعيم سعد باشا.

(٢) الفود: أحد الفودين، وهما جانبا الرأس من الأمام، والأحم: الأسود. والرواعي: جمع راعية. ويريد «بالرواعي» الشعرات البيض اللواتي ظهرت في جانبي رأسه.

(٣) النظرات: اسم كتاب للفقيد.

(٤) العبرات: اسم كتاب له أيضًا.

(٥) نضو شراع: أي شراع هزيل متمِّزق لا يكاد يقوى على مصارعة أمواج تلك اللجة، بل لا يكاد يرى في خضمها المحيط.

(٦) القطاع: طائفة من الغنم.

(٧) رسوم دماع: أي آثار تبدو في مجرى الدمع، كأن الدموع لكثرتها تصنع لها طريقًا في موضع مسيلها.

(٨) غير الحياة: نوائبها المغيرة على الناس.

(٩) اليفاع: ما ارتفع من الأرض، كالنجاد. والقرار: ما انخفض منها كالوهاد.

(١٠) الثنية: الطريق في أعالي الجبال ويجمع على الثنايا، وقد تمثَّل الحجاج في خطبته الشهيرة بقول بعضهم: أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايا.

عاطف بركات باشا[1]

خَفضْتُ لِعِزَّةِ الموتِ اليَراعا
وجَدَّ جلالُ مَنْطِقِهِ، فراعا

كفَى بالموتِ للنُّذُرِ ارتجالاً
وللعَبَراتِ والعِبَرِ اختراعا

حكيمٌ صامتٌ فضَح الليالي
ومَزَّق عن خَنا الدنيا القِناعا

إِذا حضر النفوسَ فَلا نعيمًا
ترى حولَ الحياةِ ولا مَتاعا

كشفتُ به الحياةَ فلم أَجِدْها
ولَمْحةَ مائها إلا خِداعا

وما الجرَّاحُ بالآسي المرجَّى
إذا لم يقتل الجُثَثَ اطِّلاعا[1]

فإِن تَقُل الرِّثاءَ فقُلْ دموعًا
يُصاغ بهنَّ، أَو حِكَمًا تُراعَى

ولا تكُ مثلَ نادبةِ المُسجَّى
بَكت كَسْبًا، ولم تَبْكِ الْتِياعا[2]

خلَتْ دولُ الزمانِ وزُلْنَ رُكنًا
وركنُ الأَرض باقٍ، ما تَداعى[3]

كأَنَ الأَرضَ لم تَشْهدْ لِقَاءً
تكاد له تَمِيدُ، ولا وَداعا

ولو آبتْ ثواكلُ كلِّ قَرْن
وجَدْنَ الشمسَ لم تَثْكَل شُعاعا

ولكن تُضْرَب الأَمثالُ رُشدًا
ومنهاجًا لمن شاءَ اتِّباعا

ورُبَّ حديثِ خيرٍ هاجَ خيرًا
وذكرِ شجاعةٍ بَعث الشُّجاعا

(معارفُ) مصرَ كان لهنَّ ركنٌ
فذُقْنَ اليومَ للركنِ انصِداعا

---

[1] عاطف بركات باشا: أحد رجالات مصر المقدّمين، وأحد نوابغ جيله المعلمين، ترقَّى إلى منصب وكيل وزارة المعارف، وقد توفي سنة ١٩٣٥.

مضى أَعْلى الرجالِ لها يمينًا وأَرْحَبُهم بحَلَّتها ذِراعا
وأَكثرُهُم لها وَقَفاتِ صِدقٍ إباءً في الحوادث أَو زَماعا
أَتَتْهُ فنالَها نَفَلاً وفَيْئًا فلا هبةً أَتَتْه ولا اصطِناعا[٤]
تنقل يافعًا فيها وكهلاً ومن أَسبابها بَلَغَ اليَفاعا
فتًى عجمَتْه أَحداثُ الليالي فلا ذُلاً رأَيْن، ولا اختِضاعا
سَجَنَّ مُهنَّدًا، ونَفَيْن تِبْرًا وزِدْنَ المسك من ضغْطٍ فضاعا[٥]
شديدٌ صُلَّبٌ في الحق حتى يقولَ الحقُّ: لِينًا واتِّداعا[٦]
ومدرسةٍ سَمَتْ بالعلم ركنًا وأَنْهضَتِ القضاءَ والاشتِراعا[٧]
بناها محسنًا بالعلم بَرًّا يَشيد له المعالمَ والرباعا[٨]
وحاربَ دونها صرْعَى قديمٍ كأَنَّ بهم عن الزمنِ انقطاعا
إذا لمحَ الجديدُ لهم تَوَلَّوْا كذي رَمَدٍ على الضوءِ امتناعا
أَخا «سيشيلَ»، لا تذكرْ بحارًا بَعدنَ على المزار ولا بقاعا[٩]
وربِّك ما وراءَ نَواكَ بُعدٌ وأَنتَ بظاهر الفُسْطاطِ قاعا[١٠]
نزلْتَ بعالَم خَرق القضايا وأَصبح فيه نظمُ الدهرِ ضاعا
فَخلِّ الأَربعين لحافليها وقُمْ تَجِد القرونَ مَررْنَ ساعا[١١]
مَرِضتَ فما أَلَحَّ الداءُ إلاَّ على نفْسٍ تعوَّدَت الصِّراعا
ولم يكُ غيرَ حادثةٍ أَصابت مُفلِّلَ كلّ حادثةٍ قِراعا[١٢]
ومَنْ يتجرَّع الآلامَ حيًّا تَسُغْ عند المماتِ له آجتراعا
أَرِقْتَ، وكيف يُعطَى الغمضَ جفنٌ تَسُلُّ وراءَه القلبَ الرُّواعا؟[١٣]
ولم يَهدَأْ وِسادُك في الليالي لعلمك أَنْ ستُفنيها اضطجاعا
عَجِبْتُ لشارحٍ سببَ المنايا يُسَمِّي الداءَ والعِللَ الوِجاعا
ولم تكن الحتوفُ محلَّ شكٍّ ولا الآجالُ تحتملُ النزاعا
ولكنْ صُيَّدٌ ولها بُزاةٌ ترى (السَّرطانَ) منها والصُّداعا[١٤]
أَرَى التعليم لمَّا زلت عنه ضعيفَ الركنِ، مَخذولاً، مُضاعا
غريقٌ حاولت يَدُه شِراعًا فلمَّا أَوْشكَتْ فقد الشِّراعا
سَراةُ القومِ مُنصرفون عنه وصُحْفُ القوم تَقتضِب الدفاعا[١٥]
لقد نسَّاه يومُك ناصباتٍ مِن السّنوات قاساها تِباعا[١٦]

قُم ابنِ الأُمَّهاتِ على أَساسٍ ولا تبْنِ الحصونَ ولا القِلاعا
فهُنَّ يَلِدْن للقَصبِ المذَاكي وهُنَّ يلِدْن للغابِ السِّباعا[17]
وَجدْتُ مَعانيَ الأَخلاق شتَّى جُمِعْن فكنَّ في اللفظ الرِّضاعا
عَزاءَ الصابرين (أَبا بهيٍّ) ومثلُك مَنْ أَناب ومَنْ أَطاعا[18]
صَبَرتَ على الحوادث حينَ جَلَّتْ وحينَ الصبرُ لم يَكُ مُستطاعا
وإِن النفسَ تهدأُ بعدَ حينٍ إذا لم تَلْقَ بالجزع انتِفاعا
إذا اختلف الزمانُ على حزينٍ مَضى بالدمع، ثم مَحا الدِّماعا.
قُصارَى الفَرْقَدَيْنِ إلى قضاءٍ إذا عثرا به انفصَما اجتماعا
ولم تَحْوِ الكِنانة آل سعدٍ أَشدَّ على العِدا منكم نِباعا[19]
ولم تحمِل كشيخكمُ المُفدَّى نُهوضًا بالأَمانةِ واضطِلاعا
غَدًا فَصْلُ الخِطابِ، فمَنْ بَشيري بأَنّ الحقَّ قد غلب الطِّماعا؟
سَلُوا أَهلَ الكِنانةِ: هل تداعَوْا؟ فإِن الخصمَ بعدَ غدٍ تَداعى
وما (سعدٌ) بمُتَّجِرٍ إذا ما تعرَّضت الحقوقُ شَرَى وباعا
ولكنْ تحتمِي الآمالُ فيه وتدَّرِعُ الحقوقُ به ادِّراعا[20]
إذا نظرَتْ قلوبُكُمُ إليه علا للحادثات وطال باعا[21]

هوامش

(١) يقال: قتل الأمر اطلاعًا، إذا بحثه طويلاً. والآسي: الطبيب.

(٢) المسجَّي: الميت. والالتياع: شدة الحزن.

(٣) تداعى الركن: أي سقط متهدمًا.

(٤) النفل: مفرد الأنفال، يعني العطايا المكتسبة من الفيء. والفيء: الغنيمة. والاصطناع: هو ما يعبَّر عنه في زماننا بالمحسوبية.

(٥) ضاع المسك والطيب: سطع عطره. لمَّا قال: «فتى عجمته أحداث الليالي» شرح كيف كان ذلك، فأخبر أنه سُجِنَ فكان أشبه بالمهنَّد، ونفي فكان مثل التبر، وحين اشتدت أحداث الليالي ضغطًا، كان الفقيد أشبه بالمسك الذي يُسْحَقُ فيزيد أرجًا وطيبًا.

(٦) صلب «باللام المشددة»: أي كثير الصلابة. والاتَّداع: من الوداعة، وهي رقة الخلق.

(٧) يشير بهذا البيت إلى أن الفقيد كان هو أول قيم على مدرسة القضاء الشرعي، وقد أنشئت تلك المدرسة لتخريج القضاة الشرعيين، ولم يستغن عنها إلا بعد إصلاح الأزهر والاكتفاء بأبنائه.

(٨) الرباع: جمع ربع: الدار.

(٩) سيشل، إحدى جزر الهند النائية، نُفِي إليها الفقيد، حين اتهمته السلطات الإنجليزية بالتحريض السياسي في ثورة مصر الكبرى.

(١٠) الفسطاط: مدينة مصر. وظاهر الفسطاط: أي ضاحيتها. والقاع في الأصل: هو المنخفض من الأرض، ويريد به هنا موضع القبر حيث دُفِنَ الفقيد.

(١١) الأربعين في هذا البيت، مقصود بها الأيام التي مضت على وفاته، أو السن التي توفي فيها. والساعا: جمع ساعة.

(١٢) القراع: نوع من الحرب والمغالبة.

(١٣) الرواع: من قولهم: ناقة رواع الفؤاد، بضم الراء وفتح الواو، أي شهمة زكية.

(١٤) البزاة: جمع بازي، وهو ضرب من الصقور.

(١٥) سراة القوم: سادتهم. والاقتضاب: بمعنى القطع أو الإيجاز والاختصار.

(١٦) ناصبات، من قولهم: عيش ناصب، أي فيه كدٌّ وجهد. وتباعًا: أي متتابعة.

(١٧) المذاكي: الخيل التي كملت قوتها. والقصب: هو الخط الذي يتراهن عليه المتسابقون.

(١٨) أبا بهي: ينادي بهذه الكنية فتح الله بركات باشا شقيق الفقيد. وأناب: رجع إلى الله.

(١٩) النباع: جمع نبع، وهو شجر للقسي والسهام، ينبت في قمة الجبال. آل سعد: آل زغلول باشا أخوال الفقيد.

(٢٠) تدرع الحقوق به: أي تجعل منه درعًا لها. والدرع: ثوب حديد يلبسه المحارب ليحتمي به من السيوف وأشباهها.

(٢١) طال باعًا: أي طال شأوًا وعظم قوة.

المويلحي[١]

كاتبٌ مُحْسِنُ البيانِ صنَاعُه   استخَفَّ العقولَ حينًا يَراعُه[١]
اِبنُ مصرٍ، وإنما كلُّ أَرضٍ   تنْطِقُ الضادَ مَهْدُهُ ورِباعُه[٢]
إِنما الشرقُ منزلٌ لم يُفرِّق   أَهلَه إن تفرَّقتْ أَصقاعه[٣]
وطنٌ واحدٌ على الشمس والفصـ   ـحي، وفي الدمع والجراحِ اجتماعه
علمٌ في البيان، وابنُ لواءٍ   أَخذَ الشرقَ حِقبةً إبداعه
حَسْبُه السحرُ من تُراثِ أَبيه   إن تَولَّتْ قصورُه وضِياعه[٤]
إِنما السحرُ والبلاغةُ والحكـ   ـمةُ بَيْتٌ، كلاهما مِصراعه
في يَدِ النَّشْءِ من بيان (المويلحِي)   مثلٌ يَنْفع الشبابَ اتِّباعه
صُوَرٌ من حقيقة وخيالٍ   هي إِحسانُ فِكْرِهِ وابتداعه
رُبَّ سجعٍ كمُرْقِص الشعرِ لمَّا   يَختلِفْ لَحْنُهُ ولا إيقاعه
أَو كَسجعِ الحمامِ لو فصَّلتْهُ   وتأَنَّتْ به، ودَقَّ اختراعه
هو فيه بديعُ كلِّ زمانٍ   ما بديعُ الزمانِ؟ ما أَسجاعه؟[٥]
عجِبَ الناسُ من طباعِ المويلحِّي،   وفي الأُسْدِ خُلْقُه وطِباعه
فيه كِبْرُ اللُّيوثِ حتى على الجو   ع، وفيها إِباؤُه وامتِناعه
تعب الموتُ في صَبورٍ على النز   عِ، قليلٍ إلى الحياةِ نِزاعه[٦]

[١] هو الكاتب الكبير محمد المويلحي المتوفي سنة ١٩٣٠، وقد ألقيت هذه القصيدة في حفلة تأبينه.

صارع العيشَ حِقْبَةً، ليت شعري ساعةَ الموتِ كيف كان صِراعه؟
قهرَ الموتَ والحياةَ، وقد تحـ ـكمُ في رائض السِّباع سِباعه
مُـهـجـةٌ حـرّةٌ، وخُـلْـقٌ أَبِـيٌّ عَيَّ عنه الزمانُ وارتدَّ باعه
في الثمانين — يا (محمدُ) — عِلْمٌ لِعليمٍ، وإن تَناهَى اطِّلاعه[7]
لِمْ تقاعَدْتَ دونها وتَوانَى سائقُ الفُلْكِ، واضمحلَّ شِراعه؟
رُبَّ شَيْبٍ بَنَتْ صُروحَ المعالي سَنتاه، وشادت المجدَ ساعه
فيه من هِمَّة الشبابِ، ولكن ليس فيه جِماحُه واندفاعه
سيِّدُ المنشئين حَثَّ المطايا ومضى في غُباره أَتباعه
حطَّهم (بالإمامِ) للموت رَكبٌ يَتلاقى بِطاؤُه وسِراعه
قَنَّعوا بالتراب وجهًا كريمًا كان من رُقعةِ الحياءِ قِناعه
كسَنا الفجرِ في ظلال الغوادي كرمٌ صفحتاه، هَدْيٌ شُعاعه
يا وحيدًا كأَمس في كِسْر بيتٍ ضيقٍ بالنَّزيلِ، رحبٍ ذِراعه[8]
كلُّ بيتٍ تَحلُّه يستوي عنـ ـدك في الزُّهدِ ضِيقُهُ واتِّساعه
نمْ مَلِيًّا؛ فلست أَوّلَ ليثٍ بفَلاةٍ (الإمام) طال اضطجاعه[9]
حولَك الصالحون، طابوا وطابَتْ أَكَماتُ (الإمامَ) منهم وقاعه[10]
قلَّدوا الشرقَ من جمالٍ وخيرٍ ما يَئُودُ المُفنِّدين انتزاعه[11]
أُسِّسَتْ نهضةُ البناءِ بقومٍ وبقومٍ سما وطالَ ارتفاعه
كلُّ حَيٍّ — وإن تراختْ منايا هُ — قضاءٌ عن الحياة انقطاعه
والذي تحرص النفوسُ عليه عالمٌ باطلٌ قليلٌ مَتاعه

هوامش

(١) يقال: يد صناع، أي ماهرة حاذقة، وبيان صناع أيضًا.

(٢) رباع: جمع ربع، وهو الدار.

(٣) أصقاعه، جمع صقع بضم الصاد: الناحية.

(٤) تولَّت القصور: أي ذهبت. والضياع: جمع ضيعة، وهي العقار والأرض المغلَّة.

(٥) بديع الزمان: هو الهمذاني صاحب المقامات المشهورة.

(٦) النزاع للميت: ساعات احتضاره. يقول إنه مع زهده في الحياة فقد طال زمن احتضاره، ولا يكون هذا إلا من قوة الحيوية التي تستطيع مغالبة الموت.

(٧) في الثمانين: يقصد ثمانين عامًا.

(٨) كسر البيت — بكسر الكاف وفتحها: جانبه.

(٩) فلاة الإمام: صحراء الإمام الشافعي، حيث مدفن الفقيد.

(١٠) أكمات: جمع أكمة: المرتفع من الأرض. والقاع: المنخفض منها.

(١١) يئود: بمعنى يثقل ويتعب: والمفندين: المكذبين.

إسماعيل باشا صبري[١]

أَجَلٌ وإِن طال الزمانُ مُوافي … أَخْلى يدَيْكَ من الخليلِ الوافِي
داعٍ إِلى حقٍّ أَهابَ بخاشعٍ … لبس النذيرَ على هُدًى وعفاف[١]
ذهب الشبابُ، فلم يكن رُزْئى به … دونَ المصابِ بصَفوة الآلاَّف
جَللٌ من الأَرزاءِ في أَمثاله … هِمَمُ العزاءِ قليلةُ الإِسعاف
خَفَّتْ له العَبراتُ، وهي أَبِيَّةٌ … في حادثاتِ الدهر، غيرُ خِفاف
ولكلِّ ما أَتلفْتَ من مُستكرَمٍ … إلا مودَّاتِ الرجالِ تَلاف[٢]
ما أَنتِ يا دُنيا؟ أَرؤيا نائمٍ … أَم ليلُ عُرْسٍ، أَم بِسَاط سُلاف؟
نَعماؤكِ الرَّيْحانُ، إلا أَنه … مَسَّتْ حَواشِيه نَقيعَ زُعاف[٣]
ما زِلْتُ أَصحَبُ فيكِ خُلْقًا ثابتًا … حتى ظفِرْتُ بخُلْقِكِ المتنافي
ذهب الذّبيحُ السمحُ مثل سَمِيِّه … طُهْرَ المُكَفَّنِ، طيِّبَ الأَلفاف[٤]
كم بات يذبحُ صدرَه لشكاته … أَتُراه يحسبها من الأَضياف؟[٥]
نَزَلتْ على سَحْرِ السَّماح ونَحْرِه … وتقلَّبَتْ في أَكرمِ الأَكناف[٦]
لَجَّتْ على الصَّدر الرحيبِ وبرَّحَتْ … بالكاظم الغيْظِ، الصَّفوحِ، العافي

[١] إسماعيل باشا صبري: أحد الشعراء السابقين الفحول، وكان يلقَّب بشيخ الشعراء، وكان أحد رجال الدولة في عصره، فقد تسنَّم أعلى المناصب القضائية، وترقَّى إلى منصب وكيل وزارة الحقَّانية، ثم وافاه الموت سنة ١٩٢٣.

ما كان أَقسَى قلبَها من عِلَّةٍ … عَلِقتْ بأَرحم حَيَّةٍ وشَغاف[7]
قلبٌ لو انتظم القلوبَ حَنانُهُ … لم يبْق قاسٍ في الجوانح جافي
حتى رماه بالمنيَّة فانجلتْ … مَنْ يَبتلي بقضائه ويُعافى
أَخْنَتْ على الفلَكِ المُدارِ فلم يَدُرْ … وعلى العُباب فقرَّ في الرجّاف[8]
ومَضَتْ بنارِ العبقريّةِ، لم تَدَعْ … غيرَ الرَّمادِ، ودارساتِ أَثافي[9]
حَملوا على الأَكتاف نورَ جلالة … يذرَ العيونَ حواسدَ الأَكتاف
وتَقلَّدوا النعشَ الكريمَ يتيمةً … ولكَمْ نعوشٍ في الرقاب زياف
مُتمايلَ الأَعوادِ ممّا مَسَّ من … كَرَمٍ، ومما ضَمَّ من أَعطاف
وإِذا جلالُ الموتِ وافٍ سابغٌ … وإِذاً جلالُ العبقريّةِ ضافي
ويْحَ الشبابِ وقد تَخطَّر بينهم … هل مُتِّعوا بتمسُّحٍ وطَواف؟
لو عاش قدوتُهم وربُّ «لِوائهم» … نَكَسَ «اللواءَ» لثابتٍ وقّاف[10]
فلكَمْ سقاه الودَّ حينَ وِدادُه … حربٌ لأَهل الحكمِ والإِشراف
لا يومَ للأَقوامِ حتى يَنهضوا … بقوادمٍ من أَمسِهم وخوافي[11]
لا يُعْجِبنَّكَ ما ترى من قُبَّةٍ … ضربوا على موتاهُم، وطِراف[12]
هجموا على الحقِّ المبينِ بباطلٍ … وعلى سبيل القصدِ بالإِسراف[13]
يبنون دارَ اللهِ كيف بدا لهم … غُرُفاتِ مُثْرٍ، أَو سقيفةَ عافي[14]
ويُزوِّرون قبورَهم كقصورهم … والأَرضُ تضحك والرُّفاتُ السافي
فُجِعَتْ رُبى الوادي بواحد أَيكِها … وتجرَّعَت ثُكْلَ الغدير الصافي
فقدتْ بنانًا كالربيع، مُجيدةً … وشْيَ الرياضِ وصنعَةَ الأَفواف[15]
إِن فاته نسَب «الرَّضيِّ» فربَّما … جَريًا لغاية سُؤْدَدٍ وطِراف[16]
أَو كان دون أَبي «الرَّضيِّ» أُبوَّةً … فلقد أَعادَ بيانَ «عبدِ مَنافِ»
شرفُ العصاميِّين صُنْعُ نفوسِهم … مَن ذا يقيس بهم بني الأَشراف؟
قل للمشير إِلى أَبيهِ وجَدهِ … أَعَلِمْتَ للقمرَينِ من أَسلاف؟
لو أَن (عمرانًا) نِجارُك لم تَسُدْ … حتى يُشارَ إِليك في الأَعراف[17]
قاضي القضاة جَرَتْ عليه قضيّةٌ … للموتِ، ليس لها من استئناف
ومُصَرِّفُ الأَحكامِ مَوكولٌ إِلى … حُكم المنيَّة، مالَه من كافي
ومُنادِمُ الأَملاكِ تحت قِبابهم … أَمسَى تُنادِمُه ذِئابُ فَيافي[18]

في منزلٍ دارت على الصِّيدِ العُلا   فيه الرَّحَى ومشتْ على الأَرداف[19]
وأُزِيلَ من حُسن الوُجودِ وعِزِّها   ما كان يُعبد من وراءِ سِجاف[20]
من كلِّ لمَّاحِ النعيم تَقلَّبتْ   دِيباجَتاهُ على بِلًى وجَفاف
وترى الجماجِمَ في الترابِ تماثَلتْ   بعدَ العقولِ تماثُلَ الأَصداف
وترى العيونَ القاتِلاتِ بنظرةٍ   مَنهوبَةَ الأَجفانِ والأَسياف[21]
وتُراعُ من ضِحِكِ الثُّغورِ، وطالما   فتنَتْ بحُلْو تبسُّمٍ وهُتاف
عَزَت القرونَ الذاهبين غزالةٌ   دمُهم بذِمّة قرْنِها الرَّعاف[22]
يَجري القضاءُ بها، ويجري الدهرُ عن   يَدِها، فيا لثلاثةٍ أَحلاف!
ترْمي البريَّةَ بالحُبولِ، وتارةً   بحبائلٍ من خَيْطها وكفاف[23]
نَسجتْ ثلاثَ عَمائِمٍ، واستحدَثتْ   أَكفانَ موتى من ثيابِ زفاف[24]
«أأَبا الحُسين»، تحيةً لثراكَ من   رُوحٍ وريْحانٍ وعَذْبِ نِطاف
وسَلامُ أَهلٍ وُلَّهٍ وصَحابةٍ   حَسرَى على تلك الخِلالِ لِهاف
هل في يَدَيَّ سوى قريضٍ خالدٍ   أُزجيهِ بين يَدَيْكَ للإتحاف؟
ما كان أَكرَمَه عليك! فهل ترى   أَنى بَعثتُ بأَكرمِ الأَلطاف؟
هذا هو الرَّيحانُ، إلا أَنه   نَفحاتُ تلك الروْضةِ المِئْناف[25]
والدُّرُّ، إلا أَن مَهْدَ يتيمِه   بالأَمسِ لُجَّةُ بحرِك القذَّاف
أَيامَ أَمرَحُ في غُبارِكَ ناشئًا   نَهْجَ المِهار على غُبار «خِصاف»[26]
أَتعلَّمُ الغاياتِ كيف تُرامُ في   مِضمارِ فضلٍ أَو مَجالِ قوافي
يا راكبَ الحدباءِ، خلِّ زِمامَها   ليس السبيلُ على الدليل بِخافي
دانَ المطيَّ الناسُ، غيرَ مطيَّةٍ   للحقِّ، لا عَجْلَى، ولا مِيجاف[27]
لا في الجيادِ، ولا النِّياقِ، وإنما   خُلِقَتْ بغير حوافرٍ وخِفاف
تنتاب بالركبانِ منزلةَ الهدى   وتَؤُمُّ دار الحقِّ والإنصاف
قد بَلَّغَتْ ربَّ المدائنِ، وانتهتْ   حيثُ انتهيْتَ بصاحبِ الأَحقاف[28]
نَمْ مِلءَ جَفنِك، فالغُدُوُّ غوافلٌ   عمّا يَروعُك، والعَشِيُّ غوافي
في مَضجع يكفيك من حسناتِه   أَن ليس جَنْبُك عنه بالمتجافي
واضحك مِن الأَقدارِ غير معجَّزٍ   فاليوم لست لها من الأَهداف
والموتُ كنتَ تخافه بك ظافرًا   حتى ظفِرْت به، فدَعْه كَفاف

قُلْ لي بسابقةِ الوِدادِ: أَقاتِلٌ ... هو حين يَنزِلُ بالفَتى، أَم شافي؟
في الأَرضِ من أَبوَيْكَ كنزا رحمةٍ ... وهوًى، وذلك من جِوارٍ كافي
وبها شبابُك واللِّداتُ، بكيته ... وبكيتهم بالمدْمَعِ الذَّرَّاف
فاذهب كمصباحِ السماءِ، كلاكما ... مال النهار به، وليس بطافي
الشمسُ تُخْلَفُ بالنجومِ، وأَنت بالـ ... ـآثار، والأَخبار، والأوصاف
غلب الحياةَ فتًى يسدُّ مكانَها ... بالذكرِ، فهو لها بَدِيلٌ وافي

هوامش

(١) النذير: الموت.

(٢) المستكرم: هو كل كريم عليك من مال ونحوه.

(٣) نقيع زعاف: أي سم ناجع بالغ.

(٤) يشبِّه الفقيد بالذبيح، والذبيح قيل: سيدنا إسحاق، والمراد هنا سيدنا إسماعيل، ومن أجل ذلك صار الفقيد سميًا له، والألفاف: يقصد بها الكفن. يريد أنه ذهب طيب المظهر والمخبر.

(٥) الشكاة: هي العلة التي يشكوها المريض.

(٦) السحر: الرئة. والنحر: أعلى الصدر. والأكتاف: جمع كتف، وهو الجانب.

(٧) يريد بقوله «أرحم حية»: القلب. والشغاف (بالفتح): غلاف القلب.

(٨) العباب: هو الموج. والرجاف: البحر.

(٩) الأثافي: جمع أثفية، وهي ما يوضع عليه القدر.

(١٠) رب لوائهم: يقصد به صاحب جريدة اللواء، ومنشئها زعيم الشباب الأول المرحوم مصطفى كامل باشا.

(١١) القوادم والخوافي: ريش في جناح الطائر. وقد ورد في قول بعضهم:

فإن الخوافي قوة للقوادم

(١٢) طراف — على وزن كتاب: بيت من أدم، ويقصد بها المقاصير الموضوعة على بعض القبور.

(١٣) القصد: الاعتدال، وهو في كل شيء ضد الإسراف.

(١٤) العافي: الفقير.

(١٥) الأفواف: الثياب الرقيقة.

(١٦) الطراف: هنا من قولهم: توارثوا المجد طرفًا، أي عن شرف ورفعة. والرضي: هو الشريف الرضي الشاعر المشهور.

(١٧) عمران: أبو موسى (عليه السلام)، وقد نزلت في القرآن المجيد سورة باسم آل عمران، كما نزلت سورة باسم الأعراف.

(١٨) الأملاك: الملوك. والفيافي: الصحاري.

(١٩) الصيد العلا: الملوك. والأرداف: أبناء الملوك، أو الذين يلونهم في المرتبة.

(٢٠) السجاف: الستر، كالكلل ونحوها.

(٢١) يريد «بأسياف العيون»: اللحاظ، وكثيرًا ما تعمل اللحاظ في الناس عمل السيوف، وعبَّر بالأسياف ليجانس بينها وبين الأجفان.

(٢٢) غزالة: هي الشمس. والرعاف: أي قرنها الأحمر الذي يشبه الدم.

(٢٣) الكفاف: حبائل الصائد.

(٢٤) ثلاث عمائم: الشعر الأسود، والأسود فيه شيب، والأبيض، أي أدوار العمر الثلاثة.

(٢٥) الروضة المئناف والأنف: هي التي تحمى فلا يكاد أحد يمرُّ بها أو يجتني منها.

(٢٦) المهار: جمع مهر، وخصاف: فرس مشهور في العرب.

(٢٧) الميجاف: السريعة.

(٢٨) رب المدائن: كسرى. وصاحب الأحقاف: عاد.

فوزي الغزي[١]

جرحٌ على جرحٍ! حَنانَكِ (جِلَّقُ) — حُمِّلْتِ ما يُوهِي الجبالَ ويُزْهِقُ[١]
صبرًا لباة الشرقِ؛ كلُّ مصيبةٍ — تبْلَى على الصبر الجميلِ وتخْلقُ[٢]
أَنسيتِ نار الباطشين، وهزّةً — عَرَتِ الزمانَ، كأَن (روما) تُحرَقُ[٣]
رعناءَ أَرسلها ودسَّ شُواظَها — في حجرةِ التاريخ أَرْعَنُ أَحمق[٤]
فمشتْ تُحطِّم باليمين ذخيرةً — وتَلُصُّ أُخرى بالشمال وتَسْرِق؟
جُنَّتْ، فضعضعها، وراضَ جِمَاحَها — من نَشْئِكِ الحُمْسِ الجنونُ المُطْبِق
لقِيَ الحديدُ حَمِيَّةً أَمَوِيَّة — لا تكتسي صَدَأً، ولا هي تُطْرق
يا واضعَ الدّستورِ أَمسِ كخُلْقِه — ما فيه من عِوَجٍ، ولا هُو ضيِّق
نظمٌ من الشورى، وحكمٌ راشدٌ — أَدبُ الحضارةِ فيهما والمنطِق
لا تَخْشَ مّما أَلحقوا بكتابه — يَبقَى الكتابُ وليس يبقَى المُلْحق
مَيْتَ الجلالِ، من القوافي زَفْرةٌ — تجري، ومنها عبْرَةٌ تترقرق
ولقد بَعثْتُهما إِليكَ قصيدةً — أَفأَنتَ مُنتظِرٌ كعهدكَ شَيِّق؟
أَبكي ليالِينَا القِصار وصحبةً — أَخذَتْ مُخِيلتُها تجِيش وتَبْرُق[٥]
لا أَذكرُ الدنيا إِليك؛ فربَّما — كرِه الحديثَ عن الأَجاجِ المغرَق[٦]

[١] فوزي الغزي: هو أحد سراة الزعماء في الشام، وأحد ألوية الثورة العربية في نهضتها العظمى، توفي وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق، وألقيت فيها هذه القصيدة العصماء، في سنة ١٩٢٠.

طُبعتْ من السّمّ الحياةُ، طعامُها ... وشرابُها، وهواؤها المتنشَّق
والناسُ بين بَطيئها وذُعافِها ... لا يعلمون بأَيِّ سمَّيْها سُقُوا[٧]
أَمَّا الولِيُّ فقد سقاكَ بسمَّه ... ما ليس يَسقيك العدوُّ الأَزرق[٨]
طلبوك والأَجلُ الوَشِيكُ يَحُثُّهم ... ولكلِّ نفسٍ مُدَّةٌ لا تُسبَق
لمَّا أَعان الموتُ كَيْدَ حِبالهم ... عَلِقَتْ، وأَسبابُ المنيةِ تَعلَق
طَرَقَتْ مِهادَك حَيةٌ بَشَريةٌ ... كفرتْ بما تنتابُ منه وتطرُق[٩]
يا (فوز)، تلك دمشقُ خلفَ سَوادِها ... ترمي مكانَكَ بالعيون وتَرْمُق[١٠]
ذَكَرَتْ ليالِيَ بدرِها، فتلفَّتَتْ ... فعساك تَطلُع، أَو لعلَّك تُشْرِق
(برَدَى) وراءَ ضِفافِه مُستعبِرٌ ... والحورُ مَحلولُ الضفائر مُطْرِق[١١]
والطيرُ في جَنَباتِ (دُمَّرَ) نُوَّحٌ ... يَجِدُ الهمومَ خَلِيُّهن ويَأْرَق[١٢]
ويقول كلُّ مُحدِّثٍ لسميره ... أَبذاتِ طَوْقٍ بعدَ ذلك يُوثَق؟[١٣]
عَشِقَتْ تَهاويلَ الجمالِ، ولم تَجِدْ ... في العبقريَّة ما يُحَبُّ ويُعْشق[١٤]
فمشَتْ كأَنَّ بنانَها يَدُ مُدْمِنٍ ... وكأَن ظلَّ السمِّ فيها زِئْبَق
ولو آنّ مقدورًا يُرَدُّ لردَّها ... بحياته الوطنُ المَرُوعُ المُشْفِق
أَشقى القضاءُ الأَرض، بعدَك أُسرة ... لولا القضاءُ من السماءِ لما شَقوا
قَسَتِ القلوبُ عليهمُ وتحجَّرَتْ ... فانظر فؤادَك، هل يلينُ ويَرفُق؟
إِن الذين نزلْتَ في أَكنافهم ... صَفحوا، فما منهم مَغِيظٌ مُحْنَق
سَخِروا من الدنيا كما سَخِرَتْ بهم ... وَأَنْبَتَّ من أَسبابها المُتَعَلَّق[١٥]
يا مأْتمًا من (عبدِ شمسٍ) مثلُه ... للشمس يُصْنعُ في الممات ويُنْسَق
إِن ضاق ظهرُ الأَرضِ عنك فبطنُها ... عمّا وراءَكَ من رُفاتٍ أَضْيق[١٦]
لمَّا جَمَعْتَ الشامَ من أَطرافِه ... وافَى يُعزِّي الشامَ فيك المشرِق
يبكي لواءً من شبابِ أُميّةٍ ... يَحمي حِمَى الحق المبينِ ويَخفق
لمستْ نواصِيها الحصونُ ترومُه ... وتلَمَّسْتهُ فلم تجدْه الفيْلَق[١٧]
ركنُ الزعامةِ حين تطلب رأْيَه ... فيَرَى، وتسْأَلُه الخطابَ فينْطِق
ويكاد من سحرِ البلاغةِ تحتَه ... عودُ المنابرِ يُستخَف فيُورِق[١٨]
(فيحاءُ)، أَين على جِنانِك وردةٌ ... كانت بها الدنيا ترِفُّ وتعْبَق؟[١٩]
علويَّة تجد المسامع طيَّها ... وتُحِسُّ ريَّاها العقولُ وتَنشَق

وأَرائِكُ الزَّهرِ الغصونُ، وعرشُها   يَدُ أُمةٍ وجبينُها والمفْرق
مَنْ مُبْلِغٌ عنّي شُبولة جِلَّقٍ   قولاً يَبرُّ على الزمان ويصْدُق؟
باللهِ جلَّ جلالُه، بمحمدٍ   بيسوعَ، بالغزِّيِّ لا تتفرّقوا
شاةٌ تنِدُّ من القطيع وتَمْرُق   قد تُفْسِدُ المرْعَى على أَخواتها

هوامش

(١) جلق (بشدة اللام مفتوحة أو مكسورة): دمشق.

(٢) اللباة: أنثى الأسد.

(٣) يشير إلى ضرب الفرنسيين لها بالمدافع. وحادثة حرق روما: هي إحدى الحوادث التاريخية الكبرى، وهي مضرب المثل منذ صار نيرون مثلاً للظلم والجبروت.

(٤) الشواظ (بضم الشين وكسرها): لهب لا دخان فيه.

(٥) السحابة المخيِّلة: التي تُحْسَبُ ماطرة، أي أن صحبة الفقيد كانت مرجوَّة الخير كما تكون السحابة المخيلة مرجوَّة المطر.

(٦) الأجاج: الملح المرُّ.

(٧) الذعاف: سمُّ الساعة.

(٨) العدوُّ الأزرق: هو الكثير العداوة.

(٩) المهاد: الفراش، وفي هذا البيت إشارة إلى حادثة قتل الفقيد بواسطة زوجته.

(١٠) سواد دمشق: أي القرى التابعة لها.

(١١) بردى: نهر بالشام. المستعبر: بمعنى الباكي. الحور: شجر. ضفائر الحور: غصونه. التي تشبه جدائل الشعر.

(١٢) دمر (بضم الدال وتشديد الميم المفتوحة): عقبة في دمشق. خليهن: الخالي من الهموم، وهو ضد الشجي.

(١٣) ذات الطوق: الحمامة، وهي في هذا البيت كناية عن المرأة.

(١٤) التهاويل: الألوان المختلفة.

(١٥) انبت، أي قُطِعَ.

(١٦) الرفات: بقايا الميت.

(١٧) نواصي الحصون: أعاليها.
(١٨) يستخف، بمعنى يسرُّ ويطرب.
(١٩) فيحاء: دمشق.

كريمة البارودي[١]

أَحيثُ تَلوحُ المُنى تأفلُ؟ — كفى عِظةً أَيها المنزلُ![١]
حكيْتَ الحياة وحالاتِها — فهلاَّ تخطَّيْتَ ما تنقل؟
أَمِن جنْحِ ليلٍ إِلى فجرِه — حِمًى يَزْدَهِي، وحِمًى يَعْطل؟[٢]
وذلك يوحِش من ربةٍ — وذلك من رَبَّةٍ يَأْهَل؟[٣]
أجاب النَّعِيُّ لديْكَ البشيرَ — وذاقَ بكأْسَيْهما المحفِل
وأَطرق بينهما والدٌ — أَخو ترْحَةٍ، ليلُه أَلْيَل[٤]
يَفيء إِلى العقل في أَمره — ولكِنَّهُ القلبُ، لا يعقِل
تهاوت عن الوردِ أَغصانُه — وطارَ عن البيْضة البُلْبُل[٥]
وراحت حياةٌ، وجاءَت حياةٌ — وأَظهرَ قدرتَه المُبْدِل
وما غيرُ مَنْ قد أَتى مُدْبِرٌ — ولا غيرُ مَنْ قد مضى مُقبِل
كأَني (بسامي) هلوعُ الفؤادِ — إِذا أَسمعَتْ همْسةٌ يَعجَل
يَرى قدرًا يأَمُلُ اللُّطفَ فيه — وعادِي الرَّدَى دون ما يَأْمُل
يُضيءُ لضِيفانه بِشْرُه — وبين الضلوعِ الغَضَى المُشْعَل[٦]
ويَقْرِيهُمُ الأَنسَ في منزلٍ — ويَجمعُه والأَسى منزِل

[١] وجَّه هذه القصيدة يعزي بها المرحوم محمود سامي باشا البارودي في كريمته التي توفيت أثناء زفاف شقيقتها.

فمن غادةٍ في مَجالي الزِّفافِ إلى غادةٍ داؤها مُعْضِل
وذي في نفاستِهَا تَنطوي وذي في نفائسها تَرفُل[٧]
تَقسَّمَ بينهما قلبُه وخانته عيناه والأَرْجُل
فيا نكدَ الحُرِّ، هل تنقضي؟ ويا فرح الحرِّ، هل تكْمُل؟
ويا صبر (سامي)، بلغْتَ المَدى ويا قلبه السهلَ، كم تَحْمِل؟
لقد زدْتَ من رِقَّةٍ كالصراط ودون صَلابتِكَ الجَنْدَل
يَمرُّ عليك خليطُ الخُطوب ويجتازك الخِفُّ والمُثقِل[٨]
ويا رجل الحِلْمِ، خُذ بالرضى فذلك من مُتَّق أَجْمَل
أَتحسَب شهدا إِناءَ الزّمانِ وطينتُه الصابُ والحَنْظَل؟
وما كان مِن مُرِّهِ يَعتلي وما كان مِن حُلوِهِ يسْفل
وأَنت الذي شربَ المترَعاتِ فأَيُّ البواقي به تَحفِل؟
أَفي ذا الجلالِ، وفي ذا الوقارِ تُخِيفُك ضَراءُ أَو تُذهِل؟
أَلم تكن الملْكَ في عزِّه وباعُك من باعه أَطْوَل؟
وقولُك من فوق قولِ الرِّجالِ وفعلُك من فعلهم أَنْبَل؟[٩]
ستعرِفُ دنياك من ساومتْ وأَن وقارَك لا يُبْذَل
كأَنك (شمشونُ) هذي الحياةِ وكلُّ حوادِثها هَيْكَل[١٠]

هوامش

(١) تلوح المنى: بمعنى تشرق، تأفل: بمعنى تغرب.
(٢) جنح الليل (بضم الجيم وكسرها): طائفة منه. يعطل: بمعنى يخلو. والأَصل في العطل: التجرُّد من الحلي.
(٣) الربَّة هنا: يقصد بها صاحبة البيت. يأهل: يمتلئ أو يعمر.
(٤) الترحة: الحزن. الأليل: الشديد السواد.
(٥) تهاوت: أي تساقطت أو تخلَّت.
(٦) الغضى: شجر إذا اشتعل بقي جمره طويلاً.
(٧) النفاسة من قولهم: هذا شيء نفيس، أي ثمين يرغب فيه. والنفائس: الحلي وما أشبهها.
(٨) الخف: الخفيف. المثقل: الثقيل.

(٩) يشير إلى زمن الثورة العرابية، وموقف البارودي منها.

(١٠) شمشون: أحد أنبياء التوراة، وله قصة هناك تدلُّ على أنه أُعْطِي بسطة عظيمة في القوة.

فتحي ونوري[1]

أُنظر إِلى الأَقمار كيف تزولُ ... وإِلى وُجوهِ السَّعْدِ كيف تَحول
وإِلى الجبالِ الشُّمِّ كيف يُميلُها ... عادي الرَّدى بإِشارةٍ فتميل
وإِلى الرِّياح تَخِرُّ دون قَرارِها ... صرْعَى عليهن التُّرَابُ مَهيل
وإِلى النُّسورِ تقاصرت أَعمارها ... والعهدُ في عُمر النُّسورِ يَطول
في كلِّ منزلةٍ وكل سمِيَّة ... قمرٌ من الغُرِّ السُّماةِ قتيل
يهوِي القضاءُ بها، فما من عاصِمٍ ... هيهات! ليس من القضاءِ مُقيل
(فتحُ السماءِ) و(نورُها) سكنا الثرى ... فالأَرضُ وَلْهى، والسماءُ ثَكول
سِرْ في الهواءِ، ولُذ بناصيةِ السُّها ... الموتُ لا يخفَى عليه سبيل[1]
واركبْ جَناحَ النسر لا يَعْصِمْك من ... نسرٍ يُرفرفُ فيه عزرائيل
ولكلّ نفسٍ ساعةٌ، مَنْ لم يَمُتْ ... فيها عزيزًا مات وهْوَ ذليل
أَإِلى الحياةِ سَكنْتَ وهْي مَصارعٌ ... وإِلى الأَماني يَسكنُ المسلول؟
لا تَحفِلنّ ببؤسِها ونعيمِها ... نُعْمى الحياةِ وبؤسُها تضليل
ما بين نَضرَتِها وبين ذُبولِها ... عمرُ الورودِ، وإِنه لقليل
هذا بَشيرُ الأَمسِ أَصبح ناعيًا ... كالحلم جاءَ بصدِّه التأويل

---

[1] فتحي ونوري: هما الطياران العثمانيان اللذان قدما إلى مصر في سنة ١٩١٣ يقودان طيارتهما، فسقطت بهما؛ فماتا، فكان لمصابهما في مصر أسف شديد، وكانت الخلافة الإسلامية وقتئذ ما تَزال تربط المصريين بالعثمانيين.

يجري من العَبراتِ حولَ حديثِه … ما كان من فرَحٍ عليه يَسيل
ولـرُبَّ أَعـراسٍ خَـبَـأْنَ مـآتـمًـا … كالرُّقْط في ظلِّ الرياضِ تقيل[٢]
يا أَيُّها الشهداءُ، لن يُنْسى لكم … فتحٌ أَغرُّ على السماءِ جميل
والمجدُ في الدنيا لأَوَّلِ مُبْتَنٍ … ولِمن يُشيِّد بعده فيُطيل
لولا نفوسٌ زُلْنَ في سُبُل العُلا … لم يَهْدِ فيها السالكين دَليل
والناسُ باذلُ روحِه، أَو مالِهِ … أَو علمِه، والآخرون فُضول
والنَّصْرُ غرَّتُه الطلائعُ في الوغَى … والتابعون من الخميس حُجول[٣]
كم أَلف مِيلٍ نحو مصرَ قطعتمُ … فِيم الوقوفُ ودون مصرٍ ميل؟
(طوروسُ) تحتكم ضئيلٌ، طرْفُه … لمَّا طلَعتم في السحاب كَلِيل
تُرخون للريح العِنان، وإِنها … لكمُ على طُغيانها لذَلول
اِثنين إِثر اثنين، لم يخطر لكم … أَنَّ المنيّة ثالثٌ وزَميل
ومن العجائب في زمانِك أَن يَفِي … لك في الحياةِ وفي الممات خليل
لو كان يُفدَى هالكٌ لفَداكمُ … في الجوِّ نسرٌ بالحياة بَخيل
أَيُّ الغُزاةِ أَولِي الشهادةِ قبلكم … عرْضُ السماءِ ضريحُهم والطُّول؟[٤]
يَغْدو عليكم بالتحيَّةِ أَهلُها … ويرفرِفُ التسبيح والتهليل
(إدريسُ) فوقَ يمينِه ريْحَانةٌ … ويَسوعُ فوق يمينِه إكليل[٥]
في عالم سُكَّانُه أَنفاسُهم … طِيب، وهَمْسُ حديثِهم إِنجيل[٦]
إِني أَخاف على السماءِ من الأَذى … في يومِ يُفْسِد في السماءِ الجيل[٧]
كانت مطهَّرة الأَديمِ، نَقِيَّةً … لا آدمٌ فيها، ولا قابيل[٨]
يَتوجَّه العاني إِلى رحماتِها … ويرَى بها برقَ الرجاءِ عليل
ويُشيرُ بالرأْس المُكَلَّلِ نحوَها … شيخٌ، وباللحظِ البريء بَتول[٩]
واليومَ للشهواتِ فيها والهوى … سَيْلٌ، وللدَّمِ والدموعِ مسيل
أَضحتْ ومن سُفن الجواءِ طوائفٌ … فيها، ومن خيل الهواءِ رَعيل[١٠]
وأزيل هيكلُها المصونُ وسِرُّه … والدهرُ للسرِّ المصونِ مُذيل[١١]
هلِعَت (دِمشْقُ)، وأَقبلَتْ في أَهلها … ملهوفةً، لم تدر كيف تقول
مَشَت الشُّجونُ بها، وعمَّ غِياطَها … بينَ الجداولِ والعيونِ ذُبول[١٢]
في كلِّ سهلٍ أَنّةٌ وَمناحةٌ … وبكلِّ حَزْنٍ رنَّةٌ وعويل

وكأنما نُعِيَتْ أُميَّةُ كلُّها ... للمسجد الأَمَوِيِّ، فهْوَ طُلول[١٣]
خضَعتْ لكم فيه الصفوفُ، وأُزْلِفَتْ ... لكمُ الصَّلاةُ، وقُرِّبَ الترتيل
من كلِّ نَعْشٍ كالثُّريّا، مَجْدُه ... في الأَرضِ عالٍ، والسماء أَصيل
فيه شهيدٌ بالكتاب مُكفنٌ ... بمدامعِ الروحِ الأَمينِ غَسيل
أَعواده بين الرجالِ، وأَصلُه ... بين (السُّهى) و(المُشتَرِي) مَحمول[١٤]
يَمشي الجنودُ به، ولولا أَنهم ... أَوْلَى بذاكَ مَشى به جِبريل
حتى نزلتمُ بُقعةً فيها الهوى ... من قبلُ ثاوٍ، والسماحُ نَزيل
عَظُمَتْ، وجلَّ ضَريحُ (يوسفَ) فوقَها ... حتى كأَنّ الميْت فيه رسول[١٥]
شِعري، إذا جُبْتَ البحار ثلاثةً ... وحواكَ ظلٌّ في (فروقَ) ظَليل[١٦]
وتداولَتْكَ عصابةٌ عربيّةٌ ... بينَ المآذنِ والقِلاعِ نُزول
وبَلغْتَ من بابِ الخِلافةِ سُدَّةً ... لِستُورِها التمسيحُ والتقبيل
قلْ للإِمام محمدٍ، ولآله ... صبرُ العظامِ على العظيم جميل
تلك الخطوبُ — وقد حملتم شطَرها — ... ناءَ الفراتُ بشطرها والنيل
إن تَفقِدوا الآسادَ أَو أَشبالَها ... فالغابُ من أَمثالها مَأهول
صبرًا؛ فأَجرُ المسلمين وأَجرُكم ... عند الإله، وإنه لجزيل
يا مَنْ خلافتُه الرَّضِيَّةُ عِصْمَةٌ ... للحقِّ، أَنت بأَن يُحقّ كفيل
واللهُ يعلم أَنّ في خلفائه ... عدلاً يُقيم الملكَ حين يَميل
والعدلُ يَرفع للممالك حائطًا ... لا الجيشُ يرفعه ولا الأُسطول
هذا مقامٌ أَنت فيه محمدٌ ... والرفقُ عند محمدٍ مأمول[١٧]
بالله، بالإسلام، بالجرحِ الذي ... ما انفكَّ في جنب الهلال يَسيل
إلا حللت عن السجين وَثَاقَه ... إنَّ الوثاقَ على الأَسودِ ثَقيل[١٨]
أَيقول واشٍ، أَو يُرَدِّدُ شامتٌ ... صِنديدُ (برقة) مُوثَقٌ مَكبول؟[١٩]
هو من سيوفِك أَغمدُوه لريبةٍ ... ما كان يُغمَدُ سيفُك المسلول
فاذكر أَميرَ المؤمنين بَلاءَه ... واستبقه، إن السيوفَ قليل

هوامش

(١) السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

(٢) يريد أن الأحزان تختبئ في الأرواح، كما تكمن الحيَّات الرقط وقت القيلولة في ظلال الرياض، فوجود الحيات في ذلك الجو تسميم له ومانع من الانتفاع به،

كما أن انطواء الأحزان في ثنايا الأفراح مسمم لجوها، مانع من الاستمتاع بكل سرورها.

(٣) الخميس: الجيش. الحجول: أصلها من اللون الأبيض يكون في قوائم الفرس كأنه العلامات، يقول: إن الذين يقدمون في أوائل الجيوش، يكونون في جسم النصر أشبه بالغرة، وهي لا تكون إلا في الوجه، على حين أن غيرهم من سائر الجيش يكون أشبه بالحجول، وهي لا تكون إلا في الأيدي والأرجل، وطبيعي أن الوجه أشرف، وإن كانت الحجول بعض سمات الجمال.

(٤) في هذا البيت ترغيب عظيم يساق للطيارين؛ إذ يقول لهم: إن الغزاة — وهم موضع الإجلال والإكبار — تشقُّ قبورهم في الأرض، ولكن أضرحتكم في السماء.

(٥) يسوع: هو عيسى ابن مريم. إدريس: هو أحد الأنبياء الرسل. وقد خصَّ إدريس بالذكر، لما جاء في قصة الإسراء، من أن النبي صلوات الله عليه رآه قائمًا على باب إحدى السماوات السبع، فسأل جبريل: من هذا؟ فقال: أخوك إدريس.

(٦) قوله: «وهمس حديثهم إنجيل»: يقصد أن أحاديثهم طهرٌ وتقديس.

(٧) يريد أنه خائف على جو السماء يوم يتخذه الطيارون ميدانًا للحروب، فيلوثون ذلك الطهر بأذى قتل الناس وتخريب أوطانهم.

(٨) يريد «بقابيل» الإشارة إلى أول دم أراقه الإنسان ظلمًا لأخيه الإنسان.

(٩) الرأس المكلل: الذي يتوِّجه الشيب، وهذه كناية عن حالة الضعف.

(١٠) خيل الهواء: الطيارات. الرعيل: القطعة من الخيل قدر العشرين أو الخمسة والعشرين.

(١١) مذيل: مهين. أي أن الدهر لم يحسن حفظ هذا السرِّ المصون فكأنه إهانة.

(١٢) الغياط: جمع غوطة، وهي الموضع الكثير الماء والشجر. ويقصد «بالعيون» عيون الماء.

(١٣) طلول: جمع طلل. وهو ما شخص من آثار البناء.

(١٤) المشتري: من الكواكب السيَّارة.

(١٥) يقصد «بيوسف» صلاح الدين الأيوبي.

(١٦) جبت: قطعت. فروق: الآستانة، وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ.

(١٧) كان يخاطب الخليفة محمد رشاد.

(١٨) السجين: هو عزيز بك المصري القائد الحربي العظيم، وكان يجاهد في طرابلس أيام أغار عليها الطليان، وقد وشي به للحكومة التركية، فاعتقلته وزجَّت به في السجن، ولم يخرج إلا بتحقيق وشفاعة مصرية، كانت هذه القصيدة من بعض ظواهرها ومن أجمل مظاهرها.

(١٩) برقة: أحد الأقاليم الليبية حدثت به أهم الوقائع الحربية في تلك الإغارة، وفيها لمع مجد عزيز بك.

علي باشا أبو الفتوح[1]

ما بينَ دمعِي المُسْبَلِ　　عهدٌ وبينَ ثَرَى (عَلي)
عهدُ (البقيعِ) وساكنيـ　　ـه على الحَيا المتهدِّل[1]
والدَّمعُ مروحَةُ الحزيـ　　ـنِ وراحَةُ المُتَمَلْمِل
نَمضي، ويَلحَقُ منْ سلا　　في الغابرينَ بمَنْ سُلي
كم مِنْ تُرابٍ بالدمو　　عِ على الزمان مُبلَّل
كالقبر ما لم يَبْلَ فيـ　　ـه من العِظام، وما بلي
ريَّان من مجد يعِـ　　ـزُّ على القصور موثَّل
أَمسَتْ جوانِبُه قَرا　　رًا للنُّجوم الأُفَّل
وحديثُهم مِسكُ النَّدِ　　يِّ، وعَنْبَرٌ في المحفِل
قلْ للنّعِيِّ: هتكْت دَمـ　　ـعَ الصابر المتَجَمِّل[2]
المُلتقِي الأَحداثَ إنْ　　نزلَتْ كأَن لَّم تَنزِل
حَمَلَ الأَسى (بأَبي الفتو　　ح) علَيَّ ما لمْ أَحمِل[3]
حتى ذَهِلْتُ، ومنْ يَذُق　　فقدَ الأَحِبَّةِ يَذْهَل
فعتْبتُ في رُكن (القضا　　ءِ) على القضاءِ المُنْزَل

---

[1] علي باشا أبو الفتوح: أحد نوابغ مصر الذين اشتركوا في تمهيد الطريق لنهضتها، كان حقوقيًا ضليعًا، وأسندت له وكالة وزارة المعارف، فكان موضع الفخر والأمل، وقد توفي سنة ١٩١٣، فعُدَّ موته خسارة وطنية كبرى.

لَهَفي على ذاك الشبا … بِ وذلك المستقبَل
وعلى المعارف إذ خَلتْ … من ركنِها والموئِل[٤]
وعلى شمائلَ كالرُّبَى … بينَ الصِّبا والجدول
وحياءِ وجهٍ كان يُؤ … ثَر عن «يسوعَ» المرسَل
يا راويًا تحتَ الصفيـ … ـحِ من الكرى والجندل[٥]
ومُسرْبلاً حُلَلَ الوزا … رةِ بات غيرَ مُسَربَل
ومُوَسدًا حُفَرَ الثرى … بعدَ البناءِ الأَطول
إني التفتُّ إلى الشبا … ب الغابرِ المتمثَّل
ووقفتُ ما بين المحقَّـ … ـقِ فيه، والمتخيَّل
فرأيت أَيامًا عَجِلْـ … ـنَ، وليْتَها لَمْ تَعْجَل
كانت مُوَطَّأَةَ المِها … دِ لنا، عِذاب المنهَل
ذَهَبَتْ كحُلمٍ، بيْدَ … أَنَّ الحُلمَ لم يتأَوَّل
إذ نحن في ظلٍّ الشبا … بِ الوارفِ المتهدِّل[٦]
جاران في دار النوَى … مُتقابلانِ بمنزل
أَيْكِي وأَيْكُك ضاحكا … ن على خمائل مونْبِلي[٧]
والدرسُ يجمعُني بأَفـ … ـضلِ طالبٍ ومُحصِّل
أَيامَ تَبْذُل في سبيـ … ـلِ العلم ما لم يُبذَل
غَضَّ الشباب، فكيف كنـ … ـت عن الشبابِ بمعْزِل؟
وإذا دعاكَ إلى الهوى … داعي الصَّبا لم تحفِل
ولو اطَّلعْتَ على الحيا … ةِ فعلْتَ ما لم يُفعَل
لم يَدْرِ إلاَّ اللهُ ما … خَبأَتْ لكَ الدنيا، ولي
تَجري بنا لمُفتَّح … بينَ الغُيوب ومُقفَل
حتى تبدَّلْنا، وذا … ك العهدُ لم يَتبدَّل
هاتيك أَيامُ الشبا … بِ المحسنِ المتفضِّل
مَنْ فاته ظلُّ الشبيـ … ـبةِ عاش غير مُظلَّل
يا راحلاً أَخلَى الديا … رَ وفضلُه لم يَرحَل
تتحملُ الآمالُ إثْـ … ـر شبابِه المتحمِّل[٨]

مشتِ الشبيبةُ جحْفَلاً تَبكي لِواءَ الجحفل[٩]
فانظر سريرَك، هل جرى فوق الدموعِ الهُطَّل؟
الله في وطنٍ ضعيـ ـفِ الركنِ، واهي المعقِل
وأَبٍ وراءَك حُزنُه لِنواك حزنُ المثْكل
يَهَبُ الضِّياعَ العامرا تِ لمَنْ يردُّ له «علي»
ليس الغنيُّ من البريَّـ ـة غير ذي البال الخَلِي
ونَجيبةٍ بين العقا ئِل هَمُّها لا ينسل[١٠]
دَخَلَتْ منازلَها المنو نُ على الجريء المُشْبِل[١١]
كسرَتْ جناحَ مُنعَّمٍ ورمَتْ فؤادَ مُدلَّل
فكأَن آلكَ من شجٍ ومُتيَّمٍ ومُرمَّل
آلُ «الحسينِ» (بِكربلاً في كُربةٍ لا تنجلي)[١٢]
خلعَ الشبابَ على القنا وبذلْتَه لِلمُعْضِل[١٣]
والسيفُ أَرحمُ قاتلاً من عِلَّةٍ في مَقتل
فاذهب كما ذهبَ الحسيـ ـنُ إلى الجوارِ الأَفضَل
فكلاكما زينُ الشبا بِ بجنةِ اللهِ العلي

هوامش

(١) البقيع: أحد المزارات المقدَّسة في المدينة المنوَّرة.

(٢) المتجمل: الذي يدفن همه في صدره احتسابًا ويظهر عكسه للناس.

(٣) الأسى: الحزن.

(٤) الموئل: الملجأ الذي يلجأ إليه في الشدة.

(٥) يريد «بالصفيح والجندل»: حجارة القبر. يستعبر بالفقيد — وهو المرفَّه في الحياة — كيف ينام هذا النوم العميق تحت الحجارة الصماء الثقيلة، وهذا حذق في سياق التفجُّع بأسلوب الاستعبار.

(٦) المتهدِّل: من قولهم: تهدَّلت أغصان الشجر، إذا تدلَّت.

(٧) يشير في هذا البيت والذي قبله، إلى أن الفقيد كان هو وأمير الشعراء زميلين وصديقين، كانا يطلبان العلم في جامعة «مونبلييه»، وهي إحدى مدن

فرنسا الشهيرة. الأيك في الأصل: عشُّ الطائر. الخمائل: النباتات الكريمة كالحدائق والبساتين.

(٨) الشباب المتحمل، أي الراحل.

(٩) الجحفل: الجيش.

(١٠) لا ينسلي: أي لا يمضي ولا يبارح مكانه من قلبها.

(١١) المشبل: هو الذي يلد الأشبال، وهي أولاد السباع.

(١٢) كربلاء: اسم الموضع الذي قتل فيه سيدنا الحسين (رضى الله عنه).

(١٣) يشبِّه الفقيد بالحسين، بجامع بذل الشباب من كليهما وموت كليهما قبل أوانه، كأنه يرى أن الموت في سن الشباب بمثابة بذل الحياة وخلع ثوبها، وهذا لا ينافي الاعتقاد بالأجل المكتوب، فقد تمثَّل الحسين نفسه عندما رأى أن لا مفرَّ من القتل يقول بعضهم:

فلو ترك القطا ليلاً لنام

جورجي زيدان[1]

ممالكُ الشرقِ، أَم أَدراسُ أَطلالِ ... وتلك دُولاتُه، أَم رَسْمُها البالي؟[1]
أَصابَها الدهُر إلاَّ في مآثرِها ... والدهرُ بالناس من حالٍ إلى حال
وصار ما نتغنَّى من محاسنها ... حديث ذي مِحنةٍ عن صَفْوِه الخالي
إذا حفا الحقُّ أَرضًا هانَ جانبُها ... كأَنها غابةٌ من غيرِ رِئبال[2]
وإن تحكَّم فيها الجهلُ أَسلَمَها ... لفاتكٍ من عوادي الذُّلِّ قَتَّال
نوابغ الشرقِ، هُزُّوهُ لعلَّ به ... من الليالي جُمودَ اليائس السَّالي
إن تنفخوا فيه من روح البيانِ، ومن ... حقيقةِ العلمِ ينهضْ بعدَ إعضال
لا تجعلوا الدينَ باب الشرِّ بينكُمُ ... ولا محلَّ مُباهاةٍ وإدلال
ما الدينُ إلا تراثُ الناس قبلَكُمُ ... كلُّ امرئٍ لأَبيهِ تابعٌ تالي
ليس الغلُّو أَمينًا في مَشُورته ... مناهجُ الرُّشْدِ قد تخْفَى على الغالي
لا تطلبوا حقّكم بَغْيًا، ولا صَلفًا ... ما أَبعدَ الحقَّ عن باغٍ ومُختال
ولا يَضيعَنَّ بالإهمال جانبُه ... فرُبَّ مصْلحةٍ ضاعت بإهمال
كم هِمَّةٍ دَفَعَتْ جيلاً ذُرا شرفٍ ... ونوْمَة هدمتْ بُنيانَ أَجيال

---

[1] الأستاذ الكبير المرحوم جورجي زيدان منشئ دار الهلال الغرَّاء هو أحد مؤسسي النهضة الصحفية في البلاد العربية، وأحد أساطين رجال العلم والأدب، الذين يرجع إلى مؤلفاتهم ويحتج بآرائهم، وقد توفي سنة ١٩١٤، بعد أن ترك خلفه من التراث العلمي والأدبي ما يكفي لتسجيل اسمه في طليعة سجل المصلحين.

والعلمُ في فضله، أَو في مفاخِره ... ركنُ الممالكِ، صدرُ الدولةِ الحالي
إذا مشَتْ أُمّةٌ في العالَمين به ... أَبَى لها اللهُ أَنْ تَمشِي بأَغلال
يقِلُّ للعلم عندَ العارفين به ... ما تقدِر النفسُ من حُبٍّ وإِجلال
فقِفْ على أَهله، واطلبْ جواهره ... كناقدٍ مُمعِنٍ في كفِّ لآل
فالعلم يفعل في الأَرواح فاسدُه ... ما ليس يفعل فيها طِبُّ دجَّال
ورُبَّ صاحبِ درْسٍ لو وقفْتَ به ... رأَيتَ شِبه عليم بينَ جُهَّال
وتسبق الشمسَ في الأمصار حكمتُه ... إلى كهولٍ، وشُبّانٍ، وأَطفال
(زيدانُ)، إني مع الدنيا كعهدِك لي ... رِضَى الصديقِ، مقِيلُ الحاسدِ القالي
لي دَوْلةُ الشعر دونَ العصر وائِلَةٌ ... مَفاخِري حِكَمي فيها وأَمثالي
إنْ تَمْشِ للخير أَو للشر بي قدمٌ ... أُشمِّرُ الذَّيْلَ، أَو أَعثُرْ بأَذيالي
وإنْ لَقِيتُ ابنَ أُنثى لي عليه يدٌ ... جَحَدْتُ في جَنْبِ فضلِ اللهِ أَفضالي
وأَشكر الصُّنع في سِري وفي علني ... إن الصنائع تزكو عند أَمثالي
وأَتركُ الغيبَ لله العليمِ به ... إن الغيوب صناديقٌ بأَقفال
(كأُرْغُنِ) الدَّيْرِ إكثاري ومَوْقِعُه ... وكالأَذانِ على الأَسماع إقلالي[٣]
رثَيْتُ قبلك أَحبابًا فُجِعْتُ بِهم ... ورُحْتُ من فُرقةِ الأَحبابِ يُرثى لي
وما عَلِمْتُ رفيقًا غير مُؤتمنٍ ... كالموت للمرءِ في حِلٍّ وترحال
أَرحْتَ بالَك من دنيا بلا خُلُقٍ ... أَليس في الموت أَقصى راحةِ البال؟
طالت عليك عوادي الدهرِ في خَشِنٍ ... من التُّراب مع الأَيام مُنهال
لم نأْتِه بأَخٍ في العيش بعدَ أَخٍ ... إلاّ تركنا رُفاتًا عندَ غِربال
لا ينفعُ النفس فيه وهْيَ حائرةٌ ... إلا زكاةُ النُّهَى، والجاهِ، والمال
ما تصنعِ الْيومَ مِن خيرٍ تَجِدْه غدًا ... الخيرُ والشرُّ مِثقالٌ بمثقال
قد أكملَ اللهُ ذيّاك (الهلالَ) لنا ... فلا رأَى الدهرَ نقصًا بعدَ إكمال
ولا يَزَلْ في نفوس القارئين؛ له ... كرامةُ الصُّحُفِ الأُولَى على التالي
فيه الروائعُ من علمٍ، ومن أَدبٍ ... ومن وقائعِ أَيامٍ وأَحوال
وفيه همةُ نفسٍ زانها خُلُقٌ ... هما لباغي المعالي خيرُ مِنوال
علَّمْتَ كلَّ نَئُومٍ في الرجال به ... أَنّ الحياة بآمالٍ وأَعمال
ما كان من دُوَلِ الإِسلام مُنصرِمًا ... صَوَّرْته، كلُّ أَيامٍ بتمثال

نرى به القوم في عِزٍّ وفي ضِعَةٍ   والملكَ ما بينَ إدبارٍ وإقبال
وما عَرضْتَ على الأَلبابِ فاكهةً   كالعلمِ تُبرِزُه في أَحسنِ القال
وَضعْتَ خيرَ (رواياتِ) الحياةِ، فضَعْ   روايةَ الموتِ في أسلوبِها العالي
وصِفْ لنا كيف تجفو الروحُ هَيْكَلَها   ويستبد البِلَى بالهيكل الخالي
وهل تَحِنُّ إليه بعد فُرقِته   كما يَحِنُّ إلى أَوطانه الجالي[٤]
هِضابُ لُبنان من منْعاتِكَ اضطَربَتْ   كأَن لبنانَ مَرْمِيٌّ بزلزال
كذلك الأَرضُ تبكي فَقْد عالِمها   كالأُم تبكي ذهابَ النافعِ الغالي

هوامش

(١) الأدراس: جمع درس، وهو الطريق الخفي أو الثوب الخلق. الأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار. وهذا المطلع الشعري ملآن بالتفجُّع على ما صارت إليه ممالك الشرق في هذه الأيام، فهو يسال مستنكرًا: أهذه ممالك حقًّا؟ أم هي آثار ورسوم من ممالك عظيمة كانت موجودة وذهبت؟

(٢) رئبال: أسد.

(٣) الأرغن: آلة موسيقية معروفة.

(٤) الجالي: النازح أو المهاجر.

شهداء العلم والغربة[1]

أَلا في سبيلِ الله ذاكَ الدمُ الغالي
وللمجدِ ما أَبقَى من المَثَل العالي
وبعضُ المنايا هِمّةٌ من ورائِها
حياةٌ لأَقوامٍ، ودُنيا لأَجيال
أَعَيْنَيَّ، جودا بالدموع على دمٍ
كريمِ المُصَفَّى من شبابٍ وآمال
تناهَتْ به الأَحداثُ من غُربةِ النَّوَى
إِلى حادثٍ من غُربةِ الدهرِ قتَّال
جرى أَرجُوانيًّا، كُمَيْتًا، مُشَعْشَعًا
بأَبيضَ من غِسْل الملائِكِ سَلْسَال[1]
ولاذ بقُضبانِ الحديدِ شَهيدُه
فعادَتْ رَفيفًا من عيونٍ وأَطلال

[1] شهداء العلم والغربة: هم طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوربا، فاصطدم القطار الذي يقلُّهم من أرض إيطاليا؛ فقتل أحد عشر طالبًا وجيء بهم إلى مصر، فاستقبلت جثثهم استقبالاً رهيبًا، فاشتركت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، ومما كان يزيد الهول في هذا المصاب حدوثه والبلاد مشتعلة بثورتها في سنة ١٩٢٠.

سلامٌ عليه في الحياةِ، وهامدًا
وفي العُصُرِ الخالي، وفي العالَمِ التالي
خَليلَيَّ، قُوما في رُبَى الغربِ، واسقيا
رَياحينَ هامٍ في التراب، وأَوْصال[٢]
من الناعماتِ الراوياتِ من الصبِّا
ذوت بينَ حِلٍّ في البلاد وتَرحال
نعاها لنا الناعي، فمال على أَبٍ
هَلوعٍ، وأُم (بالكنانةِ) مِثكال
طَوَى الغربَ نحوَ الشرقِ يَعْدُو سُلَيْكُهُ
بمضْطَرِبٍ في البرِّ والبحرِ، مِرْقال[٣]
يُسِرُّ إلى النفسِ الأَسَى غيرَ هامسٍ
ويُلقِي على القلبِ الشَّجَي غيرَ قَوَّال
سماءُ الحِمَى بالشاطِئيْنِ وأَرضُه
مناحةُ أَقمارٍ، ومَأْتَمُ أَشبال
تُرَى الريحُ تدرِي: ما الذي قد أَعادها
بساطًا، ولكن من حديدٍ وأَثقال؟
يُقِلُّ من الفِتْيَانِ أَشبالَ غابةٍ
غُداةً على الأَخطار رُكَّابَ أَهوال
ثَنَتْهُ العوادي دونَ (أَودِينَ)، فانثَنى
بآَخَرَ من دُهْمِ المقاديرِ ذَيّال[٤]
قد اعتَنقا تحتَ الدّخانِ كما التقَى
كَمِيّان في داجٍ من النقْعِ مُنجال[٥]
فسبحانَ مَنْ يَرْمِي الحديدَ وبأْسَه
على ناعم غَضٍّ من الزهر مِنهال
ومَنْ يَأْخذُ السارين بالفجرِ طالعًا
طُلوعَ المنايا من ثَنِيَّات آجال[٦]

ومَن يَجعلُ الأَسفارَ للناس هِمّةً
إِلى سَفَرٍ يَنْوُونَه غيرَ قُفَّال
فيا ناقِليهم، لو تركتم رفاتَهم
أَقام يتيمًا في حِراسةِ لآل[7]
وبينَ (غَريبالْدى) و(كافورَ) مَضْجَعٌ
لنُزَّاعِ أَمصارٍ على الحقِّ نُزَّال[8]
فهل عَطَفتْكم رَنّةُ الأَهْلِ والحِمَى
وضَجَّةُ أَترابٍ عليهم وأَمثال؟
لئن فاتَ مصرًا أَن يموتوا بأَرضها
لقد ظَفِرُوا بالبَعْث من تُرْبِهَا الغالي
وما شَغلتْهُمْ عن هَواها قِيامةٌ
إِذا اعتَلَّ رَهْنُ المحبِسَيْنِ بأَشغال[9]
حَمَلْتُم من الغرب الشموسَ لمشرقٍ
تَلَقَّى سناها مُظلمًا كاسِفَ البال
عواثرَ لم تَبلغْ صِباها، ولم تَنَلْ
مَدَاها، ولم تُوصَلْ ضُحاها بآصال
يُطافُ بهم نَعْشًا فنعشًا، كأَنهمْ
مَصاحِفُ لم يَعَلُ المُصَلَّي على التالي[10]
تَوابيتُ في الأَعناقِ تتْرَى زكيَّةً
كتابوتِ موسى في مَناكب إِسْرال[11]
مُلفَّفةً في حُلَّةٍ شَفقِيَّةٍ
هِلاليةٍ من راية النيلِ تِمثال
أَظَلَّ جلالُ العلم والموتِ وَفدَها
فلم تُلْقَ إلا في خُشُوعٍ وإِجلال
تُفارِقُ داراً من غُرورٍ وباطِلٍ
إِلى مَنزل من جِيرَةِ الحقِّ مِحْلال
فيا حَلَبَةً رَفَّتْ على البحر حِلْيَةً
وهزّتْ بها (حُلوانُ) أَعطافَ مُختال[12]

جَرَتْ بين إيماضِ العواصمِ بالضُّحى
وبينَ ابتسامِ الثَّغرِ بالموكِبِ الحالي
كثيرةَ باغي السبقِ لم يُرَ مِثلُها
على عهدِ إسماعيلَ ذي الطَّوْلِ والنال[١٣]
لكِ اللهُ؛ هذا الخطبُ في الوهم لم يَقَعْ
وتلك المنايا لم يَكُنَّ على بال
بَلَى، كلُّ ذي نَفسٍ أَخو الموتِ وابنُه
وإن جَرَّ أَذيالَ الحداثةِ والخال
وليس عجيبًا أَن يموتَ أَخو الصِّبا
ولكن عجيبٌ عَيْشُهُ عِيشةَ السالي
وكلُّ شبابٍ أَو مَشيبٍ رَهينةٌ
بمُعترِضٍ من حادثِ الدهرِ مُغتال
وما الشيبُ من خَيْلِ العُلا؛ فارْكَبِ الصِّبا
إلى المجدِ ترْكَبْ مَتْنَ أَقدرِ جَوّال
يَسُنُّ الشبابُ البأْس والجودَ للفتى
إذا الشيْبُ سَنَّ البخلَ بالنفس والمال
ويا نشء النيلِ الكريمِ، عزاءَكم
ولا تذكروا الأَقدارَ إلا بإِجمال
فهذا هو الحقُّ الذي لا يرُدُّه
تأَفُّفُ قالٍ، أَو تلطُّفُ مُحتال[١٤]
عليكم لواءَ العلم؛ فالفوزُ تحتَهُ
وليس إذا الأَعلام خانت بخذَّال[١٥]
إذا مالَ صفٌّ فاخلفوه بآخَرٍ
وَصولِ مَساعٍ، لا ملولٍ، ولا آل[١٦]
ولا يصلُحُ الفِتيانُ لا علمَ عندَهم
ولا يجمعون الأَمر أَنصاف جُهَّال

وليس لهم زادٌ إذا ما تزوَّدوا
بيانًا جُزَاف الكيل كالحشَفِ البالي[١٧]
إذا جَزِعَ الفتيانُ في وَقْع حادثٍ
فمَنْ لجليلِ الأَمرِ أَو مُعْضِلِ الحال؟
ولولا مَعانٍ في الفِدَى لم تُعانِهِ
نُفوسُ الحواريّين أَو مُهجُ الآل[١٨]
فَعَنُّوا بهاتيك المصارعِ بينَكم
ترَنُّمَ أَبطالٍ بأَيام أَبطال
أَلستم بَني القومِ الذين تكبَّروا
على الضربات السّبعِ في الأَبِدِ الخالي؟[١٩]
رُدِدْتُم إلى فِرْعَوْنَ جَدًّا، ورُبَّما
رجعتم لعمٍّ في القبائل أَو خال

هوامش

(١) الأرجواني: منسوب إلى الأرجوان، وهو صبغ أحمر يشبه به الدم لشدَّة حمرته. الكميت: حمرة يخالطها السواد. معنى المشعشع: الممزوج بالماء. الغسل (بكسر الغين): ما يغسل به. يصف دم هؤلاء الشهداء بأنه يجري أحمر مشوبًا بسواد ممزوجاً بلون أبيض، كأنه الماء السلسال الذي أصابه من غسل الملائكة.

(٢) الأوصال: الأعضاء.

(٣) سليك: رجل من العرب اشتهر بقوة الجري ويضرب به المثل في السرعة؛ أراد تشبيه الناعي به. مرقال: سريع.

(٤) دُهْم: جمع أدهم، وهو الأسود. ذيَّال: طويل الذيل، والذيل من كل شيء: آخره، ومن الفرس: ذنبه.

(٥) كميان: مثنى كمي، وهو الشجاع المتكمي، أي المتغطي في سلاحه، النقع: الغبار.

(٦) الثنيات: قمم الجبال.

(٧) يريد باليتيم: اللؤلؤ. واللآل بائع اللآلئ وصائدها وصانعها.

(٨) غريبالدى وكافور: بطلان من أبطال الحركة الاستقلالية في إيطاليا.

(٩) رهن المحبسين: أول ما أطلق هذا التعبير كان يطلق على أبي العلاء المعري، والمحبسان هما العمى ولزومه البيت.

(١٠) المصلي: هو الذي يجيء أول الخيل في السبق، التالي: هو الذي يجيء تاليًا له.

(١١) تابوت موسى: هو الذي وضع فيه سيدنا موسى وألقي في البحر، فالتقطه آل فرعون وقاموا على تربيته حتى كبر. إسرال: أي إسرائيل.

(١٢) الحلبة: الخيل التي تجمع للسباق. حلوان: اسم الباخرة التي أقلت رفات الشهداء في عودتهم إلى مصر.

(١٣) النال: العطاء. وفي هذا البيت إشارة إلى السباق الذي كان يقام في مدينة حلوان في عهد إسماعيل باشا.

(١٤) قالٍ: مبغض.

(١٥) عليكم لواء العلم: أي الزموا أو التزموا.

(١٦) آلٍ: من قولهم: هو لا يألو جهدًا.

(١٧) الحشف البالي: التمر اليابس.

(١٨) الحواريون: أصحاب عيسى. والآل: أصحاب محمد صلوات الله عليهما.

(١٩) الضربات السبع: يشير إلى نوازل سماوية امتحن الله بها قدماء المصريين، ويريد بالأبد: الزمن القديم المديد.

سعيد زغلول بك[١]

آل (زغلولَ)، حَسْبُكم من عزاءٍ ... سُنَّةُ الموتِ في النَّبِيِّ وآلِه
في خِلالِ الخطوبِ ما راع إلا ... أَنها دون صبركم وجَمالِه
حَمل الرُّزْءَ عنكمُ في (سعيدٍ) ... بلدٌ شيخُكم أَبو أَحماله[١]
قد دهاهُ من فقْدِه ما دهاكم ... وبكى ما بكيْتُمُ من خِلاله
فكما كان ذُخْركم ومُناكم ... كان من ذُخرِه ومن آماله
ليت منْ فكَّ أَسرَكم لم يَكِلْه ... للمنايا تمدُّه في اعتقاله
حجبتْ من ربيعِه ما رجوْتم ... وطوَتْ رحلة العُلا من هلاله
آنسَتْ صحّةً فمرَّت عليها ... وتخطَّتْ شبابَه لم تُباله
إِنما مِنْ كِتابِه يُتَوَفَّى المر ... ءُ، لا مِنْ شبابِه واكتهاله
لست تدري الحِمامُ بالغاب هل حا ... مَ على اللَّيْثِ، أَم على أَشباله
يا (سعيدُ) اتَّئِدْ، ورِفْقًا بشيخٍ ... والِهٍ من لواعج الثُّكل واله[٢]
ما كفاه نوائبُ الحقِّ حتى ... زِدْتَ في هَمِّه وفي إِشغاله
فَجأَ الدهرُ، فاقتضبْتُ القوافي ... من فُجاءَاته وخَطْفِ ارتجاله
قُمْ فشاهدْ لو استطعْتَ قِيامًا ... حَسرَةَ الشعرِ، والْتِياعَ خياله

---

[١] تفتَّح شباب سعيد بك زغلول عن رجولة ممتازة، وبشَّر طالعه عن طالع عظيم ولكنه لم يكد يؤتي ثمره حتى اقتطفه الموت، فقضى سنة ١٩٢٢ وكان خاله سعد باشا زغلول متبنيًا له.

كان لي منك في المجامع راوٍ   عَجَز (ابنُ الحسين) عن أَمثاله[٣]
فطِنٌ للصَّحاح من لُؤلُؤِ القو   لِ، وأَدرَى بهنّ مِنْ لآَلِه[٤]
لم يَكُنْ في غُلُوِّهِ ضيق الصَّد   رِ، ولا كان عاجزًا في اعتداله
لا يُعادى، ويُتَّقى أَن يُعادَي   ويُخلِّي سبيلَ منْ لم يُواله
فامْضِ في ذمةِ الشبابِ نقيًّا   طاهرًا ما ثَنيْت من أَذياله
إنّ للعصر والحياةِ لَلُومًا   لستَ مِنْ أَهلِه ولا مِنْ مَجاله
صانكَ اللهُ من فسادِ زمانٍ   دَنَّسَ اللومُ مِن ثيابِ رِجاله
سيقولون: ما رثاه على الفضـ   ـل، ولكنْ رَثاه زُلْفَى لخاله
أَيُّهم مَنْ أَتَى برأس كُلَيْبٍ   أَو شَفَى القُطْرَ من عَياءِ اختلاله؟
ليس بيني وبين خالِكَ إلا   أَنني ما حَيِيتُ في إِجلاله
أَتمنَّى لمصرَ أَن يَجرِيَ الخيـ   ـرُ لها مِن يَمينه وشِماله
لسْتُ أَرجوه كالرجال لصَيْدٍ   من حَرامِ انتخابِهم أَو حَلاله
كيف أَرجو (أَبا سعيدٍ) لشيء   كان يُقْضَى بكُفره وضلاله؟!
هو أَهلٌ لأَنْ يرُدَّ لقومي   أَمْرَهم في حقيقة استقلاله
وأَنا المرءُ لم أَرَ الحقَّ إلا   كنْتُ مِن حزْبِه ومن عُمَّاله
رُبَّ حرٍّ صَنعْتُ فيه ثناءً   عجزَ الناحتون عن تمثاله[٥]

هوامش

(١) شيخكم أبو أحماله: هو الزعيم سعد باشا. والبلد: مصر.

(٢) الواله: الذي ذهب عقله أو كاد من شدَّة الوجد.

(٣) ابن الحسين: الشاعر المتنبي: وراوي الشعر وراويته: الذي يروي الشعر ويحفظه.

(٤) اللآل: صانع اللؤلؤ وبائعه.

(٥) يقول: إنني كثيرًا ما أصنع للأحرار قصائد ثناء، فتقوم في تصويرهم وتخليد أشكالهم ومزاياهم مقام التماثيل التي تعجز المثالين الناحتين أن يصنعوا مثالها.

أمين بك الرافعي[1]

مال أَحبابُه خليلاً خليلا ... وتولَّى اللِّداتُ إلا قليلا
نَصلوا أَمسِ من غُبار الليالي ... ومضى وحدَه يَحُثُّ الرحيلا[1]
سكَنتْ منهم الركابُ، كأَن لم ... تضطربْ ساعةً ولم تَمْضِ مِيلا
جُرِّدوا من مَنازِلِ الأَرضِ إلا ... حَجَرًا دارِسًا ورَملاً مَهيلا[2]
وتَعَرَّوْا إلى البِلَى، فكساهم ... خُشْنةَ اللَّحدِ والدُّجى المسدولا
في يَبابٍ من الثرى رَدَّه المو ... تُ نقيًّا من الحقودِ غَسيلا[3]
طَرَحوا عندَه الهمومَ، وقالوا ... إن عِبْءَ الحياةِ كان ثقيلا
إنما العالَمُ الذي منه جئنا ... مَلعبٌ لا يُنوِّع التمثيلا
بطلُ الموتِ في الرواية ركنٌ ... بُنِيَتْ منه هيكلاً وفصولا
كلَّما راح أَو غدا الموتُ فيها ... سَقط السِّترُ بالدموع بَليلا
ذكرياتٌ من الأَحبَّةِ تُمحَى ... بِيَدٍ للزمان تَمحو الطُّلولا
كلُّ رسمٍ من منزلٍ أَو حبيبٍ ... سوف يمشي البِلَى عليه مُحيلا

[1] أمين بك الرافعي، كان كاتبًا سياسيًا عظيمًا، وكان في الصحفيين السياسيين يعدُّ مثالاً عاليًا، لطهارة الذمَّة، ونبل الغاية، ونزاهة الضمير، وله في تمسُّكه برأيه وصلابته على الحق الذي يعتقده مواقف تضحية، لا يصبر عليها إلا من وطَّن نفسه على احتمال جميع مكاره الحياة، وقد وقف حياته منذ نشأته على خدمة القضية المصرية، وظل مجاهدًا في سبيل استقلال مصر حتى مات في سنة ١٩٢٦.

رُبَّ ثُكْلٍ أَساكَ مِن قُرْحةِ الثُّكْـ ـلِ، ورُزءٍ نسَّاك رُزْءًا جليلا
يا بَناتِ القَرِيضِ، قُمْنَ مَناحا تٍ، وأَرْسِلْنَ لَوْعةً وعَويلا
من بَناتِ الهَدِيلِ أَنْتُنَّ أَحْنَى نغمة في الأَسى، وأَشجى هَديلا[٤]
إن دمعًا تَذْرِفْنَ إِثرَ رِفاقي سوف يَبْكِي به الخليلُ الخليلا
رُبَّ يومٍ يُناحُ فيه علينا لو نُحِسُّ النُّواح والترتيلا
بمَراثٍ كَتَبْنَ بالدمع عنّا أَسطُرًا من جوًى، وأُخْرَى غليلا
يَجِدُ القائلون فيها المعاني يومَ لا يأْذن البِلى أَن نَقولا
أَخذ الموتُ من يدِ الحقِّ سَيفًا خالِديَّ الغِرارِ، عَضْبًا، صقيلا[٥]
من سيوف الجهادِ فُولاذُهُ الحـ ـقُّ، فهل كان قَيْنُه جِبريلا؟[٦]
لمسته يدُ السماءِ، فكان الـ ـبَرْقَ والرعدَ خَفْقَةً وصَليلا
وإباءُ الرجالِ أَمضَى من السيـ ـفِ على كفِّ فارسٍ مَسلولا
رُبَّ قلبٍ أَصارَه الحُلْقُ ضِرْغا مًا، وصدرٍ أَصارَه الحقُّ غِيلا[٧]
قيلَ: حَلِّلْهُ. قُلْتُ: عِرقٌ من التِّـ ـبْرِ أَراحَ البيانَ والتَّحليلا
لم يَزِدْ في الحديد والنارِ إلا لَمحةً حُرَّةً، وصبرًا جميلا
لم يَخَفْ في حياته شَبَح الفقـ ـرِ إذا طاف بالرجال مَهولا
جاعَ حِينًا، فكان كاللَّيْثِ آبَى ما تُلاقيه يومَ جُوعٍ هَزيلا
تأْكل الهِرَّةُ الصِّغارَ إذا جا عَتْ، ولا تأْكل اللَّباةُ الشُّبولا
قِيلَ: غالٍ في الرأْي. قُلتُ: هَبوهُ قد يكون الغُلُوُّ رأْيًا أَصيلا
وقديمًا بَنَى الغُلُوُّ نُفوسًا وقديمًا بَنَى الغلُوُّ عُقولا
وكم استنهضَ الشيوخَ، وأَذكى في الشباب الطِّماحَ والتأْميلا
ومِنَ الرأيِ ما يكونُ نِفاقًا أَو يكونُ اتجاهُه التضليلا
ومن النقدِ والجِدالِ كلامٌ يُشبه البَغْيَ، والخَنا، والفُضولا
وأَرى الصدقَ دِيْدَنًا لسَلِيل الـ ـرافعيِّينَ والعَفافَ سَبيلا
عاش لم يَغْتَبِ الرجالَ، ولم يَجْـ ـعَلْ شئونَ النفوسِ قالاً وقِيلا
قد فقدنا به بقيَّة رَهْطٍ أَيقظوا النيلَ وَادِيًا ونَزيلا
حَرَّكوهُ، وكان بالأَمس كالكهـ ـفِ حُزونًا، وكالرَّقيم سُهولا[٨]
يا أَمينَ الحقوقِ، أَدّيْتَ حتى لم تَخُنْ مصرَ في الحقوق فَتيلا

ولوِ اسْطعْتَ زِدْتَ مصرَ من الحـ ... ـقِّ على نيلها المباركِ نيلا
لَسْتُ أَنساكَ قابعًا بين دُرْجَيْـ ... ـكَ مُكبًّا عليهما مَشغولا
قد تواريتَ في الخُشوع، فخالو ... كَ ضئيلاً، وما خُلِقْتَ ضئيلا
سائل (الشعبَ) عنك، و(العَلَمَ) الخـ ... ـفَّاقَ، أَو سائل اللواءَ الظليلا[٩]
كم إمامٍ قربْتَ في الصفِّ منه ... ومُغَنٍّ قَعَدْت منه رَسيلا؟
تُنْشِدُ الناسَ في القَضيَّة لَحْنًا ... كالحواريِّ رَتَّل الإنجيلا
ماضيًا في الجهاد لم تتأَخَّر ... تَزِنُ الصفَّ، أَو تُقيم الرَّعيلا[١٠]
ما تبالي مَضيْتَ وحدَكَ تَحْمِي ... حَوْزَةَ الحق، أَم مضَيْتَ قَبيلا
إن يَفُتْ فيكَ مِنْبَرَ الأَمسِ شِعري ... إن لي المنبرَ الذي لن يزولا
جلَّ عن مُنْشِدٍ سِوَى الدهرِ يُلْقيـ ... ـهِ على الغابرين جيلاً فجيلا

هوامش

(١) نصلوا من غبار الليالي، تعبير كنائي عن الموت؛ إذ غبار الليالي عبارة عن أحداثها، وليس في إمكان الحي التنصُّل من هذه الأحداث إلا بالموت. يقول إن أحبابه وخلانه سبقوه، وتنصلوا من الدنيا وحوادثها، وها هو ماضٍ على أثرهم مسرعًا، ليلحق بهم، وينصل من بلاء الدنيا كما نصلوا.

(٢) يصف خروج الناس من الدنيا وليس في أيديهم من ممتلكاتها إلا الحجر الموضوع تحت رءوسهم، والتراب المهيل فوق قبورهم، فكأنه يقول: ليت شعري لِمَ يتقاتل الناس، ويتكالبون على بناء القصور وشراء الضياع، وهم إذا ماتوا لا يصحبهم من هذه الممتلكات إلا حجر واحد وحفنات من تراب تداري جسومهم وتواري رممهم.

(٣) اليباب: الخراب. يقول: إن هذا اليباب الذي نسمِّيه بالمقابر موضع نقاه الموت من الأكدار، وغسله من الأحقاد، فهو من أجل ذلك صار أروح للأرواح عن المواضع الآهلة بالعمران.

(٤) الهديل: الحمام. وصوت الحمام، والهديل أيضًا: فرخ قالوا إنه كان على عهد نوح، فصاده جارح من جوارح الطير، فليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه.

(٥) العضب: السيف، الغرار: حدُّ السيف. وقوله: «خالدي» نسبة إلى خالد بن الوليد. الصقيل: المصقول.

(٦) القين هو الحداد الذي يصنع السيوف.

(٧) الضرغام: من أسماء الأسد. الغيل: موضع الأسد.

(٨) الكهف: كالبيت المنقور في الجبل. الرقيم: يقال هو الكتاب، وإذن فيكون تشبيهه سهول النيل بالرقيم؛ معناه أنها كانت وقتئذ مبسوطة خالية مهيأة لأن يخط فوقها حروف الحياة الأولى. ولو سُئِلَ أحد الحكماء ما هي الحروف الأولى للحياة؟ لأجاب على الفور: هي اليقظة. ولعمري إن ربة الحكمة إذن هي التي ألهمت أمير الشعراء قوله في البيت السابق: «أيقظوا النيل واديًا ونزيلا» ففي تصورُّه الذهني لمعنى اليقظة سبق خياله إلى تشبيه سهول وادي النيل بالرقيم.

(٩) الشعب، والعلم، واللواء: أسماء صحف كان الفقيد يحرِّرها مناضلاً فيها عن مبادئه.

(١٠) الرعيل: طائفة من الخيل. والمراد أنه كان في جيش المجاهدين في القضية المصرية يقوِّم الصفوف إذا مالت، ويردُّ الطوائف إذا نفرت.

الشيخ سلامة حجازي[1]

يا ثَرَى النيلِ، في نَواحيك طيرٌ كان دنيا، وكان فرحةَ جِيلِ
لم يَزَلْ يَنْزلُ الخمائلَ حتى حلَّ في رَبْوَةٍ على سَلسبيل
أَقعد الرَّوْضَ في الحياة مَلِيًّا وأَقامَ الرُّبَى بِسِحْر الهَديل[1]
يا لِواءَ الغناءِ في دَوْلةِ الفـ ـن، إليكَ اتجهتُ بالإكليل
عبقريًّا كأَنه زَنْبَقُ الخُلْـ ـدِ على فَرْعِه السَّرِيِّ الأَسيل[2]
أَينَ مِنْ مَسْمَع الزمانِ أَغانـ ـيُّ عليهنَّ رَوْعةُ التمثيل؟
أَين صَوتٌ كأَنه رَنّةُ البلبـ ـلِ في الناعم الوَريفِ الظليل؟
فيه من نَغْمةِ المزامِير مَعنًى وعليه قَداسةُ الترتيل
كلَّما رَنَّ في المسارح «إن كنـ ـتُ» انثنَى بالهُتاف والتهليل[3]
كعِتاب الحبيب في أُذُنِ الصـَّ ـب، وهَمْسِ النديمِ حولَ الشَّمول[4]
كيف إخوانُنا هناك على الكَوْ ثَر بينَ الصَّبا وبينَ القبول؟[5]
كيف في الخُلد ضَرْبُ أَحمدَ بالعو دِ، ونفخُ الأَمين في الأَرغول؟[6]

[1] بلغ الشيخ سلامة حجازي أعلى قمم المجد في فن الغناء والتمثيل في عصره، وقد رؤي أن يعترف له بهذا النبوغ اعترافًا عمليًا. فتألفت جماعة من أهل الفضل واتَّفقوا على نقل جثمانه إلى ضريح يتناسب وهذا التقدير، ورأوا من أفضل الوسائل لهذه الغاية أن يقيموا حفلة تذكارية تمجيداً لذكرى الفقيد، وتم لهم ذلك، وأقيمت الحفلة في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ وأنشدت فيها هذه القصيدة العصماء.

فـرَحُ كُـلُّـهُ الـنـعـيـمُ وعُـرْسٌ　　كيف (عثمانُ) فيه كيف (الحَمُولي)؟[٧]
فـهـنـيـئًـا لـكـم ونـعـمـةُ بـالٍ　　استَرحـتـم مـن ظِـل كلٍّ ثَـقـيـل
إنـمـا مَـنـزلٌ رُفـاتُـك فـيـه　　لَـبـقـايـا مـن كـل فـنٍّ جـمـيـل
ذَبُلَـتْ فـي ثَـراهُ رَيْـحـانـةُ الـفـ　　ـنِّ، وجَـفَّـتْ رَيْـحـانـةُ الـتـمـثـيل
قـام يَـجْـزِي (سلامـةً) فـي ثَـراه　　وطـنٌ بـالـجـزاءِ غـيـرُ بَـخـيـل
قد يُـوفِـي الـبِـنـاءَ والـغـرْسَ أَجـرًا　　ويُـكـافِـي عـلـى الـصَّـنـيـعِ الـجـلـيـل
مُحسنٌ بالبنينَ في حاضرِ العَيْـ　　ـشِ، وفي سالفِ الزمانِ الطويل
ويُعِدُّ الضَّريحَ من مَرْمَرِ الخُلْـ　　ـدِ الكريمِ المهذَّبِ المصقول[٨]
يدفنُ الصالحين في وَرَقِ المُصْـ　　ـحَفِ، أَو في صحائف الإنجيل
مصرُ في غَيبةِ المُشايعِ، والحا　　سدِ، والـحـاقـد الـلَّـئـيـمِ الـذَّلـيـل
قامت اليومَ حولَ ذِكراك تَجـزِي　　وطـنـيًّـا مـن الـطِّـراز الـقـلـيـل
من رجالٍ بَنَوْا لمصر حديثًا　　وأذاعـوا مَـحَـاسِـنًـا لـلـنـيـل
هم سُقاةُ القلوبِ بالوُدِّ والصَّفْـ　　ـوِ، وهـم تـارةً سُـقـاةُ الـعـقـول
لـيـس مـنـهـم إلا فَـتًـى عـبـقـريٌّ　　ليس في المجد بالدَّعي الدخيل

هوامش

(١) الهديل: الصوت الحسن الذي يشبه صوت الحمام.
(٢) السري: الجدول.
(٣) إن كنت، يشير إلى أن الفقيد قد ذاعت من أغانيه قصيدة مطلعها:

إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم
فـإنـنـي فـي هـواكـم صـاحـب الألـم

(٤) الشمول: الخمر.
(٥) الصَّبا: ريح مهبها من جهة المشرق وهي من ألطف الرياح.
(٦) أحمد: اسم أحد المعاصرين، اشتهر بضرب العود، وأمين: معاد. آخر اشتهر بالأرغول.
(٧) عثمان: هو محمد عثمان، وكان من المغنين الكبار. والحمولي: هو عبده الحمولي.

(٨) الضريح: هو البناء الذي اتَّفقت لجنة إحياء ذكرى الفقيد على صنعه من المرمر المصقول ليدفن فيه جثمان الفقيد تكريمًا له.

أدهم باشا[1]

مُصابُ بَنِي الدنيا عظيمٌ (بأَدهمِ)   وأَعظمُ منه حَيْرَةُ الشعرِ في فَمي
أَأَنطقُ والأَنباءُ تَتْرَى بطيِّبٍ   وأَسكُتُ والأَنباءُ تَتْرَى بمؤلمِ؟
أَتَيْتُ بغالٍ في الثَّناءِ مُنَضَّدٍ   فمَنْ لي بِغالٍ في الرِّثاءِ مُنظَّم؟
عَسى الشعرُ أَن يَجْزِي جَريئًا، لفقدِه   بَكى التركُ واليونانُ بالدمع والدَّم
وكم مِنْ شُجَاعٍ في العِداةِ مُكرَّمٍ   وكم مِنْ جَبانٍ في اللِّداتِ مُذمَّم
وهل نافعٌ جَرْيُ القَوافي لغايةٍ   وقد فَتَكَتْ دُهْمُ المنايا بأَدهم؟[1]
رمَتْ فأَصابت خيرَ رامٍ بها العِدَى   وما السَّهمُ إلا للقضاءِ المحتَّم
فتًى كان سيفَ الهندِ في صورةِ امرئٍ   وكان فتى الفتيانِ في مَسْكِ ضيْغَم[2]
لَحاهُ على الإقدام حُسَّادُ مَجْدِهِ   وما خُلِقَ الإقبالُ إلاّ لمُقْدِم
مُزعْزِعُ أَجيالٍ، وغاشِي مَعاقلٍ   وقائدُ جَرّارٍ، ومُزْجِي عَرَمْرَم[3]
سلوا عنه (ميلونا) وما في شِعابه   وفي ذِرْوَتَيْهِ مِنْ نُسورٍ وأَعْظُم
لَيَاليَ باتَ الدِّينُ في غير قَبضةٍ   وزُلْزِلَ في إيمانه كلُّ مُسْلِم
وقال أُناسٌ: آخرُ العهدِ بالملا   وهَمَّتْ ظنونٌ بالتُّراثِ المُقَسَّم[4]
فأَطْلَعَ للإِسلام والمُلْكِ كوكبًا   من النصر في داجٍ من الشك مُظلِم
ورحنا نُباهي الشرق والغربَ عِزَّةً   وكُنَّا حديثَ الشامتِ المترحِّم

[1] أدهم باشا: هو القائد التركي الذي اشتهر في الحروب العثمانية اليونانية.

مَفاخرُ للتاريخ تُحْصَى لأَدهم   ومَنْ يُقْرِضِ التاريخَ يَرْبَحْ ويَغْنَم
أَلا أَيُّها الساعونَ، هل لَبِسَ الصَّفا   سَوادًا، وقد غَصَّ الوُرودُ بزَمْزَم؟
وهل أَقبلَ الرُّكبانُ يَنْعَوْنَ (خالدًا)   إلى كلِّ رامٍ بالجِمارِ ومُحْرِم؟
وهل مَسجدٌ تَتْلُونَ فيه رِثاءَه؟   فكم قد تَلَوْتُم مَدْحَهُ بالترنُّم!
وكان إذا خاضَ الأَسِنَّةَ والظُّبى   تَنحَّتْ إلى أن يَعْبُرَ الفارسُ الْكَمِي
ومَنْ يُغْطَ في هذي الدَّنِيَّةِ فُسْحَةً   يُعَمَّرْ وإن لاقَى الحروبَ ويَسْلم
(عليٌّ) أَبو الزَّهراءِ داهيَةُ الوغَى   دهاهُ ببابِ الدَّارِ سيفُ ابن مُلْجَم
(فروق)، اضْحكِي وابْكِي فَخارًا ولَوْعةً   وقُومِي إلى نعش الفقيدِ المعظَّم
كأُمِّ شَهيدٍ قد أَتاها نَعِيُّهُ   فخفَّتْ له بينَ البُكا والتبسُّم
وخُطِّي له بينَ السلاطينِ مَضجعًا   وقبرًا بجنبِ الفاتح المتقدِّم
بَخِلْتِ عليه في الحياةِ بموكبٍ   فتُوبى إليه في الممات بمأْتم
ويا داءُ، ما أَنصَفْتَ إذْ رُعْتَ صدرَهُ   وقد كان فيه الملكُ إن رِيعَ يَحتمِي
ويا أَيها الماشونَ حولَ سَريرِه   أَحَطْتُم بتاريخٍ فَصيحِ التكلُّم
ويا مصرُ، مَنْ شَيَّعْتِ أَعْلَى همامةً   وأَثْبَتُ قلبًا مِنْ رَواسِي المقطَّم
ويا قومُ، هذا مَنْ يُقام لمثله   مثالٌ لباغي قُدْوَةٍ مُتعلِّم
ويا بحرُ، تدري قدرَ مَنْ أَنتَ حاملٌ؟   ويا أَرضُ، صونيه، ويارَبِّي، ارْحَمِ

هوامش

(١) دُهْم المنايا: أي سود المنايا.

(٢) المسك (بفتح الميم): الجلد. والضيغم: الأسد.

(٣) العرمرم: الجيش الكبير.

(٤) الملأ: الجماعة، ويريد بها الدولة العثمانية. والتراث المقسَّم: البلاد التابعة للدولة في ذلك الوقت.

عثمان باشا الغازي[١]

هالةٌ للهلالِ فيها اعتصامُ　　كيف حامَتْ حِيالَها الأَيّامُ؟
دخلتْها عليكَ (عثمانُ) في السلـ　　ـم، وقد كنتَ في الوَغَى لا تُرام
وإذا الداءُ كان داءَ المنايا　　صـعَّـبَـتْـهُ لأَهـلِـهـا الأَحـلام
فبرغم (المُشيرِ) أَن يَتَوَلَّى　　والخطوبُ المُرَوِّعاتُ جِسام
ويدُ الملكِ تستجيرُ يَدَيْهِ　　والسرايا تدعوه، والأعلام
وبنوه يرجونه وهُمُ الجُنـ　　ـدُ، وهم قادةُ الجنودِ العِظام
مثَّلَتْهم صِفاتُه للبرايا　　رُبَّ فردٍ سادت به أَقوام
بطلَ الشرقِ، قد بَكَتْك المعالي　　ورثاك الوَلِيُّ والأَخصام
خَذَل الملكَ زندُه يوم أَوْدَيْـ　　ـتَ، وأَهوَى من راحَتَيْهِ الحُسام
ودَهَى الدينَ والخلافةَ أَمرٌ　　فادحٌ، رائعٌ، جليلٌ، جُسام
علمُ العصر والممالكِ وَلَّى　　وقليلٌ أمثالُه الأَعلام
سَلْ (بلفنا): أَكنتَ تُدْرَكُ فيها　　ولَو أَنَّ المحاصِرين الأَنام
خَيَّم الروسُ حولَ حِصْنِكَ، لكن　　أَين مِنْ هامَةِ السِّماكِ الخِيام؟
وأَحاطت بعزمك الجندُ، لكن　　عزمُك الشُّهْبُ، والجنودُ الظلام
كلَّما جَرَّدَ (المُحاصِرُ) سيفًا　　قطع السيفَ رأْيُكَ الصَّمصام

---

[١] هو قائد تركي كبير، اشتهر في الحروب العثمانية الروسية.

وإذا كانت العقولُ كِبارًا سَلِمت في المَضايق الأَجسام
وعجيبٌ لا يأْخذُ السيفُ منكم ويَنال الطَّوَى، ويُعْطَى الأُوَامُ
فخرجتم إلى العِدا لم تُبالوا ما لأُسْدٍ على سُغوب مُقام
تَخرقونَ الجيوشَ جيشًا فجيشًا مِثلَما يَخرقُ الخَوَاءَ الغَمام
والمنايا مُحيطةٌ، وحصونُ الرُّ وسِ تَحْمِي الطريقَ والأَلغام
ولِنارِ العدوِّ فيكم قُعودٌ ولِسيفِ العدوِّ فيكم قِيام
جُرِحَ الليثُ يومُ ذاكَ، فخان الـ ـجيشَ قلبٌ، وزُلزِلَتْ أَقدام
ما دفَعْتَ الحُسامَ عجزًا، ولكن عَجَّزتَ ضَيْغَمَ الحروبِ الكلام
فأَعادوه خيرَ شيء أَعادوا وكذا يَعرِفُ الكرامَ الكِرام
فتقلَّدتَه وكنتَ خليقًا سَلَبَتْنا كلَيْكُما الأَيام
ما لها عَوْدَةٌ، ولا لك رَدٌّ نِمتَ عنها، ومَنْ تركْتَ نِيام
إنما الملكُ صارمٌ ويَراعٌ فإذا فارقاه ساد الطَّغام
ونظامُ الأُمورِ عقلٌ وعدلٌ فإذا ولَّيا تَوَلَّى النظام
وعجيبٌ خُلِقْتَ للحرب لبْثًا وسجاياك كلُّهن سَلام
فهْيَ في رأيكَ القويمِ حَلالٌ وهْيَ في قلبك الرحيمِ حَرام
لكَ سيفٌ إلى اليتامَى بغيضٌ وحَنانٌ يَحبّه الأَيتام
مُستبدٌّ على قويٍّ، حليمٌ عن ضعيفٍ، وهكذا الإسلام

بطرس باشا غالي[١]

قبرَ الوزيرِ، تحيَّةً وسَلاما ... الحلمُ والمعروفُ فيكَ أَقاما
ومحاسنُ الأَخلاقِ فيك تغيَّبَتْ ... عامًا، وسوف تُغيَّب الأَعواما
قد كنت صَوْمَعَةً فصِرْت كنيسة ... في ظلِّها صلَّى المُطيفُ وصاما
والقومُ حَوْلَكَ يا بن (غالي) خُشَّعٌ ... يقضونَ حقًّا واجبًا وذِماما
يَسعَوْنَ بالأَبصار نحوَ سَريرِه ... كالأَرض تَنْشُدُ في السماءِ غَماما
يَبكون مَوْئِلَهم، وكَهْفَ رَجَائِهم ... والأَرْيَحيَّ المُفْضِلَ المِقداما
مُتسابقين إِلى ثَراك، كأَنهم ... ناديكَ في عزِّ الحياةِ زِحاما
وَدُّوا غَداةَ نُقِلْتَ بينَ عُيونِهم ... لو كان ذلك مَحشرًا وقِياما
ماذا لقيتَ من الرِّياساتِ العُلا ... وأَخذتَ مِن نِعَمِ الحياةِ جِساما؟
اليوم يُغنِي عنك لَوْعةُ بائسٍ ... وعَزاءُ أَرمَلَةٍ، وحُزنُ يَتامى
والرأيُ للتاريخ فيك؛ ففي غدٍ ... يَزنُ الرجالَ، ويَنْطِقُ الأَحكاما
يَقضي عليهم في البَرِيَّةِ، أَو لهم ... ويُديمُ حَمدًا، أَو يُؤَيِّدُ ذاما
أَنت الحكيمُ، فلا تَرُعْكَ منِيَّةٌ ... أَعلِمْت حيًّا غيرَ رِفْدِكَ داما
إِنّ الذي خلقَ الحياةَ وضِدَّها ... جَعَلَ البقاءَ لِوَجْهِهِ إكراما

---

[١] بطرس باشا غالي، كان رئيس الوزارة المصرية في أيام حكم الخديو عباس الثاني، وقد اغتاله إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ لأسباب سياسية.

قد عِشْت تُحدِثُ للنصارَى أُلْفةً وتُجِدُّ بين المسلمين وئاما
واليومَ فوقَ مَشيدِ قبرِك مَيتًا وَجَدَ المُوفَّقُ للمقال مَقاما
الحقُّ أَبلجُ كالصبَّاح لِناظرٍ لو أَنَّ قومًا حَكَّموا الأَحلاما
أَعَهِدْتَنا والقِبْطَ إلاَّ أُمّةً للأَرضِ واحدة تَروم مَراما؟
نُعْلِي تعاليمَ المسيحِ لأَجلهم ويُوَقِّرون لأَجلنا الإسلاما
الدِّينُ للدَّيّانِ جلَّ جلالُه لو شاءَ ربُّكَ وَحَّدَ الأَقواما
يا قومُ، بانَ الرّشدُ فاقْصُوا ما جرى وخُذوا الحقيقةَ، وانبذوا الأَوهاما
هذي رُبُوعُكُمُ، وتلك رُبوعُنا مُتقابلين نعالج الأَياما
هذي قُبورُكُمُ، وتلك قبورُنا مُتجاورينَ جَماجما وعِظاما
فبحُرمةِ المَوْتَى، وواجبِ حقِّهم عِيشوا كما يَقضي الجوارُ كِراما

يبكي والدته[1]

إلى اللهِ أَشكو مِن عَوادِي النَّوَى سهما
أَصابَ سُوَيْداءَ الفؤادِ وما أَصْمَى[1]
من الهاتكات القلبَ أَوَّلَ وَهْلةٍ
ومَا دَخَلَتْ لحمًا، ولا لامستْ عظما
توَارَدَ والنَّاعِي، فأَوْجَسْتُ رَنَّةً
كلامًا على سمعي، وفي كبدي كَلْما[2]
فما هتَفا حتى نَزَا[3] الجنبُ وانزَوَى
فيا وَيْحَ جَنْبِي! كمَ يَسيلُ؟ وكم يَدمَى؟
طَوَى الشرقَ نحوَ الغربِ، والماءَ للثَّرى
إِليَّ، ولم يَركبْ بِساطًا ولا يَمَّا[4]

[1] نظم أمير الشعراء هذه المرثية الرائعة، على إثر إعلان الهدنة، وهو في منفاه في الأندلس سنة ١٩١٨؛ إذ كان يعلل النفس بالعودة إلى الوطن العزيز ولقاء آله، وفي مقدمتهم والدته الحبيبة، ولكنه ما كاد يتحدَّث إلى نفسه بهذا الأمل المرموق، حتى وافاه البرق بنعيها، فأثَّر هذا المصاب الجسيم في نفسه تأثيرًا بالغًا، ولم تمضِ ساعة حتى كتب هذه المرثية، وقد قيل إنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها بعد، فبقيت مستورة ضمن أوراقه الخاصة، حتى نُشِرَت في الصحف غداة وفاته رحمه الله.

أَبـانَ ولـم يَـنْـبِـسْ، وأَدَّى ولـم يَـفُـهْ
وأَدْمَـى ومـا داوَى، وأَوْهَـى ومـا رَمَّـا
إِذا طُوِيَتْ بـالـشُّـهْـبِ والـدُّهْـمِ شُـقَّـةٌ
طَوَى الشُّهُبَ، أَو جاب الغُدافِيَّةَ الدُّهْما٥
ولـم أَرَ كـالأَحـداثِ سـهـمًـا إِذا جـرَتْ
ولا كـالـلـيـالـي رامـيًـا يُـبـعِـدُ الـمَـرْمَـى
ولـم أَرَ حُـكـمًـا كـالـمـقـاديـرِ نـافـذًا
ولا كـلـقـاءِ الـمـوتِ مِـنْ بَـيـنـهـا حَـتْـمـا
إِلـى حيثُ آباءُ الـفَـتَـى يَـذهـبُ الـفـتـى
سَـبـيـلٌ يَـديـنُ الـعـالَـمـون بـهـا قِـدْمـا
وما العيشُ إِلا الجسمُ في ظلِّ رُوحِهِ
ولا الـموتُ إلا الـرُّوحُ فـارقَـتِ الـجِـسـمـا
ولا خـلْـدَ حـتـى تـمـلأَ الـدهـرَ حِـكْـمـةً
عـلـى نـزلاءِ الـدهـرِ بـعـدَك أَو عِـلْـمـا
زَجَـرْتُ تَـصـاريـفَ الـزمـانِ، فـمـا يَـقَـعْ
لِـيَ اليومَ منها كان بالأَمس لي وَهْما٦
وقـدَّرْتُ (لـلـنـعـمـانِ) يـومًـا وضِـدَّهُ
فما اغْتَرَّتِ البُوسَى، ولا غَرَّتِ النُّعْمَى٧
شـرِبـتُ الأَسـى مـصـروفـةً لـو تـعـرَّضـتْ
بـأَنـفـاسِـهـا بـالـفـمِّ لـم يـسـتـفِـقْ غَـمَّـا
فـأَتْـرِعْ ونـاوِلْ يـا زمـانُ؛ فـإِنـمـا
نديمُكَ (سُقْراطُ) الذي ابْتَدَعَ السُّمَّا٨
قَـتـلـتُـكَ، حـتـى مـا أُبـالِـي: أَدَرْتَ لـي
بـكـأْسِـكَ نَـجْـمًـا، أَم أَدَرْتَ بـهـا رَجْـمـا؟!
لـكِ الـلـهُ مِـنْ مَـطـعـونـةٍ بـقَـنـا الـنَّـوى
شـهـيـدةِ حـربٍ لـم تُـقـارِفْ لـهـا إِثـمـا

مُـدَلَّـهـةٍ أَزكـى مِـنَ الـنـارِ زَفْـرَةً
وأَنْزَهِ مِنْ دَمْعِ الحَيا عَبْرَة سَحْما[٩]
سقاها بَشيرِي وهْيَ تَبكِي صبَابةً
فلم يَقْوَ مَغناها على صَوْبِهِ رَسْما[١٠]
أَسَتْ جُرحَها الأَنباءُ غيرَ رَفيقةٍ
وكم نازعٍ سهمًا فكان هو السَّهما!
تَغارُ على الحُمَّى الفضائلُ والعُلا
لِما قبَّلَتْ منها، وما ضَمَّت الحُمَّى!
أَكانت تَمَنَّاها وتَهَوَى لِقاءَها
إِذا هي سَمَّاها بذي الأَرض مَنْ سَمَّى؟
أَلَمَّتْ عليها، واتَّقتْ ثمراتِها
فلمَّا وُقُوا الأَسْواءَ لم تَرها ذمَّا
فيا حسرتا أَلاَّ تراهم أَهِلَّةً
إِذا أَقْصَرَ البدرُ التمامُ مَضوْا قُدْما!
رَياحينُ في أَنف الوَليِّ، وما لها
عدوٌّ تراهم في مَعاطِسِهِ رَغْما
وأَلاَّ يطوفوا خُشَّعًا حولَ نعشِها
ولا يُشبِعوا الركنَ استلامًا ولا لَثْما
حلَفْتُ بما أَسلَفْتِ في المهد مِنْ يَدٍ
وأَوْليْتِ جُثماني من المِنَّةِ العُظمى
وقبرٍ مَنُوطٍ بالجلال مُقَلَّدٍ
تَلِيدَ الخلالِ الكُثْر، والطارفَ الجَمّا[١١]
وبالغاديات الساقيات نَزِيلَهُ
من الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، والآيِ، والأَسْما
لَما كان لي في الحربِ رأْيٌ ولا هوًى
ولا رُمْتُ هذا الشكلَ للناس واليُتما

ولم يكُ ظلمُ الطيرِ بالرقّ لي رِضًا
فكيف رضائي أَن يَرَى البَشَرُ الظُّلما
ولم آلُ شُبَّانَ البريّةِ رِقَّةً
كأَن ثمارَ القلب مِنْ وَلَدِي ثَمَّا
وَكَنْتُ على نَهْجٍ من الرأْي واضحٍ
أَرى الناس صِنفَيْنِ: الذئابَ أَو البَهْما[١٢]
وما الحُكْمُ إلا أُولي البأْسِ دولةً
ولا العدلُ إلا حائطٌ يَعْصِمُ الحُكما
نزلْتُ رُبَى الدنيا، وجَنّاتِ عَدْنِها
فما وَجَدَتْ نفسي لأَنهارها طعما
أُرِيحُ أَرِيجَ المِسْكِ في عَرَصاتِها
وإِن لم أُرِحْ (مَرْوانَ) فيها ولا (لَخْما)[١٣]
إِذَا ضَحِكتْ زهوًا إِليَّ سماؤها
بكيْتُ النَّدَى في الأَرض، والبأْسَ، والحزما
أُطِيفُ برسمٍ، أَو أُلِمُّ بدمْنَةٍ
أَخال القصور الزُّهْرَ والغُرَفَ الشُّما
فما برحَتْ من خاطري (مصرُ) ساعةً
ولا أَنتِ في ذي الدار زايَلْتِ لي هَمَّا
إذا جَنَّنِي الليلُ اهْتزَزْتُ إِليكما
فجُنحا إِلى سُعْدَى. وجُنحا إِلى سَلْمى[١٤]
فلمَّا بدا للناس صُبْحٌ من المُنَى
وأَبصرَ فيه ذو البصيرةِ والأَعمى
وقرَّتْ سيوفُ الهندِ، وارتكز القَنا
وأَقْلَعَتِ البَلْوَى، وأَقْشَعَتِ الغُمَّى
وحَنَّتْ نواقيسٌ، ورَنَّتْ مآذنٌ
ورَفَّتْ وجوهُ الأَرضِ تَستقبلُ السلمى

أَتى الدهرُ مِنْ دونِ الهناءِ، ولم يَزَلْ
وَلوعًا ببُنْيَانِ الرجاءِ إذا تَمَّا!
إذا جال في الأَعيادِ حَلَّ نظامَها
أَو العُرسِ أَبْلى في معالمه هَدْما
لئن فاتَ ما أَمَّلْتِهِ من مواكبٍ
فَدُونَكِ هذا الحشدَ والموكبَ الضَّخما!
رثَيْتُ به ذاتَ التُّقى ونظمتُه
لعنصره الأَزكى وجوهرِهِ الأَسمى
نمتكِ مَناجيبُ العُلا ونَمَيْتِها
فلم تُلْحَقِي بنتًا ولم تُسْبَقي أُمَّا
وكنتِ إذا هذي السماءُ تخايلتْ
تواضعْتِ، لكنْ بعد ما فُتِّها نَجما
أَتَيْتِ به لم ينظم الشِّعرَ مثلُه
وجِئْتِ لأَخلاق الكرامِ به نَظما
ولو نهضَتْ عنه السماءُ، ومَخَّضَتْ
به الأَرضُ كان المُزنَ والتبْرَ والكَرْما![١٥]

هوامش

(١) الكلم (بفتح الكاف): الجرح.

(٢) نزا الجنب: يريد نزا القلب، ويقال: نزا الطائر، إذا همَّ بالطيران.

(٣) عوادي النوى: عوائقه. وقوله: «أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى»: أي أصاب صميم القلب ولم يقتل.

(٤) بساطًا ولا يمًا: أي لم يركب طيارة تسير في الهواء، كما سار بساط الريح بسليمان (عليه السلام)، ولم يركب باخرة تسير على اليمِّ، أي البحر.

(٥) الشهب: البيض. الدهم: السود. جاب: قطع. الغدافية: السوداء، ويقصد بالشهب وبالدهم: الخيل البيضاء والسوداء أو النهار والليل. كأنه يتعجَّب من سرعة هذا النعي في وصوله إليه.

(٦) الزجر: العيافة والتكهُّن، يقول: إنه كان متكهنًا بما صنعه الزمن معه وكان متوقعًا له.

(٧) كان للنعمان بن المنذر يوم بؤس لا يفد فيه عليه أحد إلا قتله، ويوم نعمى لا يُسأل فيه إلا أعطى، ولهذين اليومين حوادث سارت من أجلها أمثال كثيرة للعرب، ويرجع في هذا إلى الكتب الأدبية المطوَّلة مَنْ شاء.

(٨) سقراط: إمام الفلاسفة المتقشفين، حُكِمَ عليه بالإعدام فشرب السمَّ بيده، ولم يرض أن يفرَّ مع أصحابه الذين عزموا عليه بالفرار.

(٩) العبرة السحما: أي السوداء، ولا يكون هذا إلا من أثر الحزن العميق.

(١٠) الرسم: هو هنا مصدر «رسم المطر الديار» إذا عفاها وأبقى أثرها لاحقًا بالأرض.

(١١) التليد: القديم. الطارف: الجديد.

(١٢) البهم (بفتح الباء): صغار الغنم.

(١٣) مروان ولخم: قبيلتان عربيتان، وهما من القبائل التي تولَّت السيادة في بلاد الأندلس زمنًا.

(١٤) الجنح (بضم الجيم وكسرها): طائفة من الليل.

(١٥) يريد أنه يشبه المزن في الكرم، والتبر في العرق والنفاسة، والخمر في السكر الذي يسكر الناس به من شعره.

الملك حسين[١]

لك في الأَرض والسماءِ مآتمْ	قام فيها أَبو الملائِكِ هاشمْ[١]
قعد الآلُ للعَزاءِ، وقامتْ	باكياتٍ على الحُسين الفَواطم[٢]
يا أَبا العِلْيَةِ البَهاليلِ، سَلْ آ	باءَك الزُّهْرَ: هل من الموتِ عاصم؟[٣]
المنايا نَوازلُ الشَّعَرِ الأَبـ	ـيضِ، جاراتُ كلِّ أَسودَ فاحم[٤]
ما الليالي إلا قِصارٌ، ولا الدُّنـ	ـيا سِوَى ما رأَيتَ أَحلام نائم
انْجِسارُ الشِّفاهِ عن سنِّ جَذلا	نَ وراءَ الكرى إلى سنِّ نادِم
سنةٌ أَفرحَتْ، وأُخرى أَساءَتْ	لم يَدُم في النعيم والكربِ حالم
المَناحاتُ في ممالِكِ أَبنا	ئِكَ بَدْريَّةُ العزاءِ قوائم[٥]
تلك (بغدادُ) في الدموعِ، وعمَّا	نُ وراءَ السَّوادِ، والشامُ واجم[٦]
والحِجَازُ النبيلُ رَبْعٌ مُصَلٍّ	من رُبوعِ الهُدى، وآخرُ صائم[٧]
واشتركنا، فمِصرُ عَبْرَى، ولبنا	نُ سَكُوبُ العيونِ باكي الحمائم
قُمْ تأَمّلْ بَنيك في الشَّرق زَيْنُ التَّـ	ـاجِ، مِلْءُ السَّرِيرِ، نورُ العواصم[٨]
الزكيّون عُنْصُرًا مثل إبرا	هيمَ، والطِّيبون مثل القاسم[٩]
وعليهم إذا العيونُ رَمَتْهم	عُوَذٌ من محمدٍ وتَمائم[١٠]

[١] هو ملك الحجاز الحسين بن علي، زعيم الحركة العربية في طلب تحرير أصقاع الجزيرة من حكم الأتراك، وقد توفي سنة ١٩٣١ ودُفِنَ بالقدس الشريف.

قد بنَى اللهُ بيتَهم فهْوَ باقٍ — ما بنى اللهُ ما له من هادِم
دبَّروا الملكَ في العراقِ وفي الشا — مِ فسَنّوا الهدى، ورَدّوا المظالم
أَمِنَ الناسُ في ذَراهم، وطابت — عربُ الأَرضِ تحتَهم والأَعاجم
وبَنَوْا دولةً وراءَ فِلَسْطِـ — ـينَ، كعابَ الهدى، فتاةَ العزائم
سَاسَها بالأناةِ أَرْوَعُ (كالدا — خل)، ماضي الجنانِ يقظانُ، حازم[١١]
قُبْرُصٌ كانت الحديدَ، وقد تَنـ — ـزِلِ قُضبانَهُ اللُّيوثُ الضَّراغم[١٢]
كَرِهَ الدَّهرُ أَن يقومَ لِواءٌ — تُحْشَر البِيدُ تحتَه والعماعِم[١٣]
قم تحدَّثْ (أَبا عليٍّ) إلينا — كيف غامْرتَ في جِوار الأَراقم؟[١٤]
لم تُبالِ النُّيوبَ في الهامِ خُشْنًا — وتعلَّقْتَ بالحواشي النَّواعِم
هاتِ حَدِّثْ عن العَوانِ وصِفْها — لا تُرَعْ في التراب، ما أَنا لائم![١٥]
كلُّنا واردُ السَّرابِ، وكلٌّ — حمَلٌ في وَلِيمَةِ الذئبِ طاعم[١٦]
قد رجوْنا من المغانم حَظًّا — ووَرَدْنا الوَغَى، فكُنّا الغنائم
قد بَعثْتَ القضيّةَ اليومَ مَيْتًا — رُبَّ عظمٍ أَتى الأُمورَ العظائم
أَنتَ كالحقِّ أَلَّف الناسَ يَقظا — نَ، وزادَ ائتلافَهم وهْوَ نائم
إنما الهِمَّةُ البعيدةُ غَرْسٌ — مُتَأَتِّي الجَنَى، بَطِيءُ الكمائم[١٧]
ربّما غابَ عن يدٍ غَرَستْهُ — وحَوَتْه على المدى يدُ قادم
حبَّذا موْقِفٌ غُلِبْتَ عليه — لم يَقِفْهُ للعُربِ قبلك خادم
ذائدًا عن ممالكٍ وشعوبٍ — نُقِلتْ في الأَكفِّ نقلَ الدراهم
كلُّ ماءٍ لهم، وكلُّ سماءٍ — مَوْطِئُ الخيلِ، أَو مَطارُ القَشاعم[١٨]
لِمَ لَمْ تَدْعُهم إلى الهمّةِ الشَّـ — ـماءِ والعلمِ والطَّماحِ المُزاحم؟
وركوبِ اللُّجاجِ وهْيَ طَواغٍ — والسماواتِ وهْيَ هُوجُ الشكائم؟[١٩]
وإلَى القُطْبِ والجَلِيدُ عليه — والصّحاري وما بها من سَمائم؟[٢٠]
اغسلوه بطيِّبٍ من وَضوءِ الرُّسـ — ـلِ، كالوَرْدِ في رُباه البواسم[٢١]
وخذوا من وِسادِهم في المُصَلَّى — رُقْعةً كَفِّنوا بها فرعَ هاشم
واستعيروا لِنعشِه من ذرى المنـ — ـبِر عودًا، ومن شريفِ القوائم
واحملوه على البُراق إن اسْطَعْـ — ـتم؛ فقد جَلَّ عن ظهور الرواسم[٢٢]
وأَديروا إلى العتيق (حُسينًا) — يَبْتَهِلْ رُكنُه، وتدعو الدعائم[٢٣]

واذكروا للأَمير مكَّةَ، والقصـ ـرَ، وعهدَ الصفا، وطِيبَ المواسم
ظَمِئ الحُرُّ للدّيار، وإِن كا ن على مَنهلٍ من الخلد دائم
نَقِّلوا النعشَ ساعةً في رُبا الفتـ ـح، وطوفوا برَبِّهِ في المعالم
وقِفوا ساعةً به في ثَرى الأَقـ ـمار من قومِهن وتُرْب الغمائم
وادفِنوه في القُدس بين سُليما نَ وداودَ والملوكِ، الأَكارم
إنما القدسُ منزلُ الوَحْي، مَغْنَى كلِّ حَبْرٍ من الأَوائل عالم
كُنِّفَتْ بالغيوب، فالأَرضُ أَسْرا رٌ مَدَى الدَّهرِ، والسماءُ طَلاسم
وتَحلَّتْ من البُراقِ بطُغرا ءَ، ومِن حافر البُراقِ بخاتم[٢٤]

هوامش

(١) أبو الملائك: أي أبو الملوك. وهاشم هو أحد جدود النبي صلوات الله عليه.

(٢) الآل: آل البيت النبوي الشريف، والمقصود هنا رجاله، الفواطم: يريد بهن نساء هذا البيت من ذرية السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وزوج الإمام علي كرم الله وجهه.

(٣) عليه (بكسر العين): جمع عليٍّ، وهو الشريف العالي القدر من الناس. البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير. الآباء الزهر: هم المشرقو الوجوه، المشابهون للنجوم الزهر في صفاء اللون والتلألؤ والظهور.

(٤) يقول: إن المنايا تنزل بالشيب كما تنزل بالشباب، فليس هناك من عاصم منه.

(٥) يشبِّه الحزن على الفقيد بالحزن على صرعى بدر، أولى غزوات الرسول ﷺ.

(٦) بغداد: عاصمة العراق، والمراد بها القطر كله. وعمَّان: عاصمة الأردن، كنى بها عن الإقليم جميعه. والشام: يقصد بها سوريا وما إليها من الأقاليم المحصورة بين تركيا وبلاد العرب ونهر الفرات والبحر المتوسط.

(٧) الحجاز النبيل: يقصد الحجاز الذي بقي محافظًا على عهده للفقيد، الربع: الدار.

(٨) العواصم: جمع عاصمة، وهي البلدان الكبيرة التي تقيم فيها الحكومات.

(٩) إبراهيم والقاسم: هما من أولاد النبي صلوات الله عليه.

(١٠) عُوَّذ: جمع عوذة، وهي الرقية تحفظ من العين كالتميمة، وجمع التميمة: تمائم.

(١١) الأناة: الرفق، ويريد «بالأروع»: الملك فيصل، يشبهه بالداخل، وهو عبد الرحمن الداخل صقر قريش مؤسس دولة بني أميَّة في الأندلس.

(١٢) قبرص: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، قضى فيها الملك حسين بقية عمره بعد ما اعتزل الملك، يشبهها أمير الشعراء في حالة إقامة الفقيد فيها بالقفص الحديد الذي يحبس فيه الأسد، وصنع الأقفاص الحديدية لحبس الأسود مألوف لمنظمي الحدائق في عصرنا هذا.

(١٣) العماعم: الجماعات المتفرقون.

(١٤) يشير إلى انضمام الفقيد في صف الحلفاء ضد تركيا في أثناء الحرب الكبرى، وقد كان لهذا الانضمام أثره في نهاية تلك الحرب.

(١٥) العوان: الحرب.

(١٦) كلنا في وليمة الذئب طاعم: يريد كلنا مطعوم مأكول لهذا الذئب.

(١٧) الجنى: الثمار. الكمائم: محلٌّ ما تنبت تلك الثمار.

(١٨) القشاعم: النسور، جمع قشعم. ويريد «بالنسور» الطيارين الذين يشبهون النسور.

(١٩) يريد «بركوب السماوات»: ركوب الطيارات، ويريد بهوج الشكائم: اللجم، أي اللجم الصعبة القياد.

(٢٠) السمائم: جمع سموم، وهي الريح الحارة المحرقة.

(٢١) الوضوء (بفتح الواو): ما يتوضأ به.

(٢٢) الرواسم: الإبل، أو الخيل، أو الركائب عامة.

(٢٣) العتيق: مسجد بيت المقدس حيث دُفِنَ الفقيد.

(٢٤) الطغراء: ما يكتب في أوَّل الكتاب. والبراق: هو ركوبة النبي صلوات الله عليه ليلة أسري به.

يرثي أباه[1]

سأَلوني: لِمَ لَمْ أَرْثِ أَبي؟   ورِثاءُ الأَبِ دَينٌ أَيُّ دَيْنْ
أَيُّها اللُّوَّامُ، ما أَظلمَكم!   أَينَ لي العقلُ الذي يُسعِد أَيْنْ؟[1]
يا أبي، ما أَنتَ في ذا أَوّلٌ   كلُّ نفس للمنايا فرضُ عَيْن
هلكَتْ قبلك ناسٌ وقرَى   ونَعى الناعون خيرَ الثقلين[2]
غايةُ المرءِ وإن طالَ المدَى   آخذٌ يأْخذه بالأَصغريْنَ[3]
وطبيبٌ يَتولَّى عاجزًا   نافضًا من طِبِّه خُفَّيْ حُنَين[4]
إنّ للموتِ يدًا إن ضَرَبَتْ   أَوشكَتْ تصْدُع شملَ الفَرْقَدَيْن
تَنفُذ الجوَّ على عِقبانه   وتلاقي الليثَ بين الجبلين
وتحطُّ الفرخَ من أَيْكَته   وتنال الببَّغا في المئتين
أَنا مَنْ مات، ومَنْ مات أَنا   لقي الموتَ كِلانا مَرتين
نحن كنا مهجةً في بدنٍ   ثم صِرْنا مُهجةً في بَدَنَيْن[5]
ثم عُدنا مهجة في بدنٍ   ثم نُلقى جُثَّةً في كَفَنَيْن
ثم نَحيا في (عليٍّ) بعدَنا   وبه نُبْعَثُ أُولَى البَعْثتين[6]
انظر الكونَ وقُلْ في وصفِه   كلُّ هذا أَصلُه من أبوين

[1] نظم هذه القصيدة حوالي سنة ١٨٩٧ يرثي بها والده الطيب الذكر المرحوم علي بك شوقي رحمه الله.

فإذا ما قيل: ما أَصلُهما؟ قل: هما الرحمةُ في مَرْحَمتين
فقدَا الجنةَ في إيجادِنا ونَعِمْنا منهما في جَنَّتين
وهما العذرُ إذا ما أُغضِبَا وهما الصفّحُ لنا مُسْتَرضَيَيْن
ليتَ شِعري أَيُّ حيٍّ لم يَدِن بالذي دَانا به مُبتدِئَيْن؟
وقفَ اللهُ بنا حيثُ هُما وأَماتَ الرُّسْلَ إلاّ الوالدين[٧]
ما أَبِي إلاَّ أَخٌ فارَقْتُه وَدُّه الصِّدقُ، وودُّ الناسِ مَيْن[٨]
طالما قُمنا إلى مائدةٍ كانت الكِسْرةُ فيها كِسْرتَيْن
وشَربنا من إناءٍ واحدٍ وغَسلنا بعدَ ذا فيه اليديْن
وتمشَّيْنا يَدي في يدِه مَنْ رآنا قال عنا: أَخوَيْن
نظرَ الدهرُ إلينا نظرةً سَوَّت الشرَّ فكانت نظرتين
يا أَبي والموتُ كأْسٌ مُرّةٌ لا تذوقُ النفسُ منها مَرَّتَين
كيف كانت ساعةٌ قضيَّتْها كلُّ شيء قبلَها أَو بعدُ هَيْن؟
أَشرِبْتَ الموت فيها جُرعةً أَم شربْتَ الموتَ فيها جُرعتين؟
لا تَخَفْ بعدَكَ حُزنًا أَو بُكًا جَمدَتْ مِنِّي ومنكَ اليومَ عَيْن
أَنتَ قد علمتني تَرْكَ الأَسى كلُّ زَيْنٍ مُنتهاه الموتُ شَيْن
ليت شعري: هل لنا أَن نلتقِي مَرّةً، أَم ذا افتراقُ المَلَوَين؟[٩]
وإذا متُّ وأُودعْتُ الثرى أَنلقَّى حُفرةً أَم حُفْرتين؟

هوامش

(١) يسعد: يعين.
(٢) الثقلان: الإنس والجن. وخير الثقلين، هو سيدنا محمد صلوات الله عليه.
(٣) الأصغران: القلب واللسان.
(٤) خفي حنين: مثل عربي يضرب عند اليأس من الحاجة المطلوبة والرجوع عن الطلب بالخيبة.
(٥) المهجة: الدَّم، وقد يعبَّر بها عن الروح، يقال: خرجت مهجته، أي روحه.
(٦) علي: هو أحد نجلي أمير الشعراء.
(٧) يريد في هذا البيت أن يقرر أن الأبوة ضرب من ضروب الرسالة التي لم تنقطع كما انقطعت رسالة الأنبياء، وإنما هي ستظل قائمة بوظيفتها من طبع

الأبناء على غرار الآباء، مصداقاً للأثر القائل: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

(٨) المين: الكذب. وفي هذا البيت على سهولة أدائه أعظم ألوان المدائح لوالده، فإن الوالد الذي لا يشعر ابنه بسلطة الأب، هو الوالد المشتمل على جميع مكارم الأخلاق، البالغ أعلى درجات الحكمة.

(٩) الملوان: الليل والنهار، الواحد منهما ملا.

مصطفى كامل باشا[1]

المَشرقانِ عليكَ يَنتحِبان   قاصيُهما في مأْتَمٍ والدّاني
يا خادِمَ الإِسلامِ، أَجرُ مُجاهدٍ   في اللهِ من خُلْدٍ ومِنْ رِضْوان
لمَّا نُعيتَ إِلى الحجازِ مشَى الأَسى   في الزائرينَ ورُوِّعَ الحَرَمان[1]
السّكةُ الكُبرى حِيالَ رُباهُما   مَنكوسةُ الأَعلامِ والقُضْبان[2]
لم تَأْلُها عندَ الشدائدِ خِدمةً   في اللهِ والمختار والسلطان
يا ليتَ مكةَ والمدينة فازتا   في المحفِلَيْن بصوتِكَ الرَّنَّان
ليرى الأَواخرُ يومَ ذاكَ ويسمعوا   ما غابَ من قُسٍّ ومِن سَحْبان[3]
جار التُّراب وأَنتَ أَكرمُ راحل   ماذا لَقِيتَ من الوجود الفاني؟
أَبكِي صِباكَ، ولا أُعاتبُ مَنْ جَنى   هذا عليه كرامةٌ للجاني
يتساءَلون: أَبـ(السُّلالِ) قضَيْت، أَم   بالقلبِ، أَم هل مُتَّ بالسَّرَطان؟
الله يَشهد إِنّ موتَك بالحِجا   والجِدِّ والإِقدامِ والعِرفان
إِن كان للأخلاقِ ركنٌ قائمٌ   في هذه الدنيا؛ فأَنت الباني
بالله فَتِّشْ عن فؤادِك في الثّرى   هل فيه آمالٌ وفيه أَماني؟
وِجْدانُك الحيُّ المُقيمُ على المَدى   ولرُبَّ حَيٍّ مَيتِ الوجْدان
الناسُ جارٍ في الحياةِ لغايةٍ   ومُضلَّلٌ يَجري بغير عِنان

[1] هو الزعيم الخالد الذكر مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني، وقد توفي سنة ١٩٠٨.

والخُلْدُ في الدنيا — وليس بهيِّن —	عُليا المرَاتبِ لم تُتَحْ لجبان
فلو آن رُسْلَ اللهِ قد جَبَنُوا لمَا	ماتوا على دينٍ من الأَديان
المجدُ والشَّرفُ الرفيعُ صحيفةٌ	جُعِلتْ لها الأَخلاقُ كالعنوان
وأَحَبُّ مِن طولِ الحياةِ بذِلَّةٍ	قِصَرٌ يُريكَ تقاصُرَ الأَقران
دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له:	إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني
فارفعْ لنفسِك بعدَ موتِكَ ذِكرَها	فالذكرُ للإنسان عُمرٌ ثاني
للمرءِ في الدنيا وجَمِّ شئونِها	ما شاءَ مِنْ رِبحٍ ومِنْ خُسران
فَهي الفضاءُ لراغبٍ مُتطلِّعٍ	وهي المَضِيقُ لِمُؤثِرِ السُّلْوان
الناسُ غادٍ في الشَّقاءِ ورائحٌ	يَشْقى له الرُّحَماءُ وهْوَ الهاني
ومُنعَّمٌ لم يلقَ إلاَّ لذَّةً	في طيِّها شجَنٌ من الأَشجان
فاصبر على نُعْمى الحياةِ وبُؤسِها	نُعْمى الحياةِ وبُؤسُها سِيَّان[٤]
يا طاهرَ الغدَواتِ، والرَّوحاتِ، والـ	ـخطراتِ، والإِسْرارِ، والإِعْلان
هل قامَ قبلكَ في المدائن فاتحٌ	غازٍ بغيرِ مُهنَّدٍ وسِنان؟
يدعو إِلى العِلْم الشريفِ، وعندَه	أَن العلومَ دعائمُ العُمران؟
لفُّوك في عَلم البلادِ مُنكَّسًا	جَزِع الهلال على فتى الفتيان
ما أَحْمَرَّ مِنْ خجَلٍ، ولا مِن ريبةٍ	لكنَّما يَبكي بدمع قاني[٥]
يَزْجُون نعشَك في السَّناءِ وفي السَّنا	فكأَنما في نعشِكَ القمران
وكأَنه نعشُ الحُسينِ «بكرْبَلا»	يختالُ بين بُكًا، وبينَ حَنان
في ذِمَّةِ الله الكريمِ وبِرِّهِ	ما ضمَّ مِن عُرْفٍ ومِن إحسان
ومَشَى جلالُ الموتِ وهُوَ حقيقةٌ	وجلالُك المصدوقُ يلتقيان
شَقَّتْ لِمَنظرِك الجيوبَ عقائلٌ	وبَكتْكَ بالدّمع الهَتُونِ غواني[٦]
والخلقُ حولَك خاشعون كعهدِهم	إذ يُنصِتُون لخطبةٍ وبَيان
يتساءَلون: بأَيِّ قلبٍ تُرْتَقي	بعدُ المنابرُ، أَم بأَيِّ لسان؟
لو أَنّ أَوطانًا تُصوَّرُ هَيْكلاً	دفنوكَ بينَ جوانحِ الأَوطان
أَو كان يُحمَل في الجوارح ميِّتٌ	حملوك في الأَسماع والأَجفان
أَو صِيغَ من غُرِّ الفضائلِ والعُلا	كفنٌ لَبِستَ أَحاسنَ الأَكفان
أَو كان للذكر الحكيم بقيةٌ	لم تَأْتِ بعدُ؛ رُثِيتَ في القرآن

ولقد نظرتُك والرَّدَى بك مُحْدِقٌ ... والداءُ مِلْءُ معالمِ الجُثمان
يَبْغِي ويطْغَى، والطبيب مُضلَّلٌ ... قَنِطٌ، وساعاتُ الرَّحيل دَواني
ونواظرُ العُوَّادِ عنكَ أَمالَها ... دمعٌ تُعالِج كتْمَهُ وتُعاني
تُمْلِي وتَكتُبُ والمشاغِل جَمَّةٌ ... ويَداك في القِرطاسِ ترتجفانِ
فهشَشْتَ لي، حتى كأَنك عائدي ... وأَنا الذي هَدَّ السَّقامُ كِياني
ورأَيتُ كيف تموتُ آسادُ الشَّرَى ... وعرفتُ كيف مصارعُ الشُّجعان[٧]
ووَجَدْتُ في ذاك الخيالِ عزائمًا ... ما للمَنونِ بدَكِّهِنَّ يَدان
وجَعلْتَ تسأَلُني الرِّثاءَ، فهاكه ... من أَدمُعي وسرائري وجَناني
لولا مُغالبةُ الشُّجونِ لخاطري ... لنظمتُ فيكَ يَتيمةَ الأَزمان
وأَنا الذي أَرثِي الشموسَ إذا هَوَتْ ... فتعودُ سِيرتها إِلى الدَّوَران
قد كنتَ تهتفُ في الورى بقصائدي ... وتُجِلُّ فوق النِّيراتِ مكاني
مَاذَا دَهانِي يومَ بِنْتَ فعَقَّني ... فيكَ القريضُ، وخانني إمكاني؟
هوِّنْ عليكَ؛ فلا شماتَ بميِّتٍ ... إِنّ المنيَّة غايةُ الإِنسان
مَنْ للحسودِ بميْتةٍ بُلِّغْتَها ... عَزَّتْ على (كِسْرَى) أَنوشِرْوان؟
عُوفِيتَ من حَرَبِ الحياةِ وحَرْبِها ... فهل استرحْت أَم استراح الشاني؟[٨]
يا صَبَّ مِصْرَ، ويا شهيدَ غرامِها ... هذا ثرَى مِصْرٍ؛ فنَمْ بأَمان
اِخلَعْ على مصرٍ شبابَك عاليًا ... وآلبسْ شَبابَ الحُورِ والوِلْدان
فلعلَّ مصرًا من شبابِكَ تَرتدِي ... مجدًا تَتيهُ به على البُلْدان
فَلَوَ آنّ بالهَرَمَيْنِ من عَزماتِه ... بعضَ المَضاءِ تحرَّك الهَرمان
علَّمْتَ شُبانَ المدائنِ والقُرى ... كيف الحياةُ تكونُ في الشبان
مصرُ الأَسيفةُ ريفُها وصعيدُها ... قبرٌ أَبرُّ على عظامِك حاني
أَقسمْتُ إنك في الترابِ طهارةٌ ... مَلكٌ يَهابُ سؤالَه الملَكان

هوامش

(١) الحرمان: حرما مكة والمدينة.

(٢) السكة الكبرى: يريد سكة حديد الحجاز، وقد كان الفقيد أعظم الدعاة المجاهدين في سبيل إنشائها.

(٣) قس وسحبان: خطيبان عربيان يضرب بهما المثل في الطلاقة الخطابية والفصاحة والحكمة.

(٤) سيَّان: مثلان، الواحد سيٌّ.

(٥) قاني: أحمر.

(٦) العقائل: جمع عقيلة وهي ابنة الرجل المخدرة، أو كريمته. الهتون: من هتن الدمع، إذا قطر. الغواني جمع غانية، وهي الفتاة تغنى بجمالها عن الحلي.

(٧) آساد: جمع أسد. الشرى: طريق في جبل سلمى كثيرة الأسد.

(٨) حربه (كطلبه): سلبه ماله، الشاني: المبغض.

حسن بك أنور[1]

تُسائِلني (كرْمَتِي) بالنهار | وبالليل: أَين سَمِيرِي (حَسَنْ)؟[1]
وأَين النديمُ الشهِيُّ الحديثِ؟ | وأَين الطَّروبُ اللطيفُ الأُذن؟
نَجِيُّ البلابِل في عُشِّها | ومُلْهِمُها صِبْيَةً في الفَن؟
فقلتُ لها: ماتَ، واستشعَرت | ليالِي السرورِ عليه الحَزَن
لَئِنْ ناءَ من سِمَنٍ جسمُه | فما عَرفت رُوحُه ما السِّمَن
وما هو مَيْتٌ، ولكنه | بشاشةُ دهرٍ محاها الزمن
ومَعْنًى خلا القولُ من لفظِه | وحُلمٌ تَطَايَر عنه الوَسَن[2]
ولا يَذكُر المعهدُ الشرقيُّ | (لأَنورَ) إلا جليلَ المِنَن
وما كان من صَبره في الصِّعابِ | وما كان من عَوْنِه في المِحَن
وخِدمة فنٍّ يُداوِي القلوبَ | ويَشفِي النفوسَ، ويُذْكِي الفِطَن
وما كان فيه الدَّعِيَّ الدخيلَ | ولكنْ مِن الفنِّ كان الرُّكُن[3]
ولو أَنصف الصحبُ يومَ الوَداعِ | دُفِنْتَ (كإِسحاقَ) لمَّا دُفِن
فغُيِّبْتَ في المِسْكِ، لا في التراب | وأُدْرجْتَ في الوَرْدِ، لا في الكَفَن
وخُطَّ لك القبرُ في رَوْضَةٍ | يَميلُ على الغُصْنِ فيها الغُصُنُ

[1] المرحوم حسن بك أنور: أحد الأعضاء المؤسسين لنادي الموسيقى الشرقي، وكان من الأصدقاء المقرَّبين لأمير الشعراء، وقد توفي سنة ١٩٣٠.

ويَنتجِبُ الطيرُ في ظلِّها ... ويَخلَعُ فيها النسيمُ الرَّسَن٤
وقامت على العود أَوتارُه ... تُعيد الحنينَ، وتُبدي الشَّجَن
وطارحَكَ (الناي) شَجْوَ النُّوَاحِ ... وكنتَ تَئِنُّ إِذا الناي أَنّ
ومال فناحَ عليكَ (الكمانُ) ... وأَظهر من بَثِّه ما كَمَن
سلامٌ عليكَ سلامُ الرُّبا ... إِذا نَفَحَتْ، والغوادي الهُتُن
سلامٌ على جِيرةٍ بالإِمام ... ورَهْطٍ بصحرائه مُرْتَهَن
سلامٌ على حُفَرٍ كالقباب ... وأُخرى، كُمندرِساتِ الدِّمَن٥
وجَمْعٍ تَآلفَ بعدَ الخلافِ ... وصافَي وصُوفِيَ بعد الضَّغَن
سلامٌ على كلِّ طَوْدٍ هُناك ... له حَجَرٌ في بناءِ الوطن

هوامش

(١) كان يطلق على دار أمير الشعراء كرمة ابن هانئ.

(٢) الوسن: النعاس.

(٣) الركن: الركن، وقد حركت الكاف من أجل الشعر. والركن من كل شيء: جانبه الأشد والأقوى.

(٤) الرسن: الحبل. ويقال: رسن الفرس: شدَّه بالرسن.

(٥) الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار.

أم المحسنين[١]

أَخَذَتْ نعشَكِ مصرُ باليمينْ … وحَوَته مِن يد الرُّوحِ الأَمينْ[١]
لَقِيَتْ طُهْرَ بَقاياكِ كما … لَقِيَتْ (يَثْرِبُ) أُمَّ المؤمنين
في سَوادَيْهَا، وفي أَحشائها … ووراءَ النَّحْر مِن حَبلِ الوَتِين[٢]
خرَجَتْ من قصرِكِ الباكي، إِلى … رَمْلَةِ الثَّغْر، إِلى القصرِ الحزين
أَخذَتْ بينَ الْيتامى مَذهبًا … ومَشَتْ في عَبَراتِ البائسين
ورَمتْ طَرْفًا إِلى البحرِ ترى … مِن وراءِ الدَّمعِ أَسرابَ السفين
فبَدَتْ جاريةٌ في حِضْنِها … فَنَنُ الوَرَدْ وفرعُ الياسَمين[٣]
وعلى جُؤْجُئِهَا نورٌ الهدى … وعلى سُكَّانها نورُ اليقين[٤]
حَملَتْ من شاطِئْ (مَرْمَرَةٍ) … جوهرَ السُّؤددِ والكنزَ الثمين[٥]
وطَوَتْ بحرًا ببحرٍ، وجَرَت … في الأُجاجِ المِلْحِ بالعَذْب المَعين
واستقلَّتْ دُرَّةً كانت سَنًى … وسناءً في جِباه المالكين[٦]
ذهَبَتْ عن عِلْيَةٍ صِيدٍ، وعن … خُرَّدٍ من خَفِرات البيتِ عِين
والتَّقِيّاتُ بناتُ المُتَّقي … والآميناتُ بُنَيَّاتُ الأَمين
لَبِسَتْ في مَطْلَعِ العِزِّ الضُّحى … ونَضَتْهُ كالشموس الآفلين[٧]
يَدُها بانيةٌ غارِسةٌ … كيَدِ الشمسِ وإِن غاب الجبين

[١] أم المحسنين: هي والدة سمو الخديو عباس باشا الثاني، وقد توفيت بالآستانة سنة ١٩٣١.

رَبّة العَرشَيْنِ في دولتها ... قد رَكِبْتِ اليومَ عرشَ العالَمين
أُضْجِعَتْ قبلَكِ فيه (مريمٌ) ... وتَوارَى بنِساءِ المُرسَلين
إنه رَحْلُ الأَوَالي شَدَّهُ ... لهمُ آدَمُ رُسْلِ الآخِرين
اِخْلَعِي الأَلقابَ إلا لقبًا ... عَبقريًّا، هو (أُمُّ المحسنين)
ودَعِي المالَ يَسِرْ سُنَّتَه ... يَمْضِ عن قومٍ لأَيدي آخرين
واقْذِفي بالهمِّ في وَجه الثَّرى ... واطرحي منْ حالِقٍ عِبْءَ السنين[٨]
واسخري من شانِئٍ أَو شامتٍ ... ليس بالمخطِئِ يومُ الشامِتين
وتعزّي عن عَوادي دولةٍ ... لم تَدُمْ في وَلَدٍ أَو في قَرين
وازهدِي في موكبٍ لو شِئتِه ... لتغطّى وجهُها بالدارعين[٩]
ما الذي رَدَّ على أَصحابه؟ ... ليس يُحيي مَوكبُ الدّفنِ الدفين
رُبَّ محمولٍ على المِدفع ما ... مَنَعَ الحَوْضَ، ولا حاط العَرين[١٠]
باطلٌ من أُممٍ مَخدوعةٍ ... يَتحدَّوْنَ به الحقَّ المبين
في (فَروقٍ) ورُباها مأْتمٌ ... ذرَفَتْ آماقَها فيه العيون
قام فيها، من عَقِيلات الحِمى ... مَلأٌ بُدِّلْنَ مِنْ عِزٍّ بهُون
أُسَرٌ مالت بها الدنيا، فلم ... تَلْقَ إلا عندكِ الركنَ الركين
قد خلا (بيبكُ) من حاتمه ... ومن الكاسِين فيه الطاعمين[١١]
طارت النعمةُ عن أَيْكَتِه ... وانقضى ما كان من خَفضٍ ولِين
اليتامى نُوَّحٌ ناحيةً ... والمساكينُ يَمُدُّون الرَّنين
دولةٌ مالت، وسُلطانٌ خلا ... دُوولَتٍ نُعماهُ بينَ الأَقربين
مُنهضُ الشرقِ (عَلِيٌّ) لم يزل ... من بنيه سيِّدٌ في (عابدين)
يُصلِحُ اللهُ به ما أَفسدَت ... فَتَرَاتُ الدهر من دُنيا ودين
أُمَّ عبَّاسٍ، ومالِي لم أَقُلْ: ... أُمَّ مصرٍ من بناتٍ وبنين؟
كنتِ كالورد لهم، واستقبلوا ... دولةَ الرَّيْحانِ حينًا بعدَ حِين
فيقال: الأُمُّ في موكبها ... ويُقالُ: الحرَمُ العالي المصون[١٢]
(العفيفيُّ) عفافٌ وهُدًى ... (كالبَقِيعِ) الطُّهْرِ ضَمّ الطاهرين[١٣]
ادخلي الجنّةَ من رَوْضتِه ... إنّ فيها غرفةً للصابرين

هوامش

(١) أخذت نعشك مصر باليمين: تعبير مقصود به القول إن مصر كلها أظهرت اهتمامًا وعناية كبيرين في استقبال نعش الفقيدة. أمَّا الشطر الثاني من البيت فهو كناية عن أن النعش كان يحوي ذخيرة من الذخائر المقدَّسة، ومن أجل ذلك قام جبريل (عليه السلام) أمين الملائكة بحراسته حتى يسلِّم هذه الذخيرة لقومها يدًا بيد.

(٢) النحر: موضع القلادة من الصدر. الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) جارية: سفينة، وفي القرآن الكريم: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأَعلام﴾.

(٤) جؤجؤ السفينة: مقدمها، وسكانها: مؤخرها.

(٥) مرمرة: بحر في بلاد الترك، يقول: إن هذه السفينة لم تحمل من شاطئ تلك البلاد نعش ميتة، وإنما حملت خلاصة السؤدد وجوهر الكنز الثمين.

(٦) السنى، بالقصر: الضوء، وبالمد: الرفعة.

(٧) نضته: خلعته. الآفلين: جمع آفل. والأفول للشموس: المغيب.

(٨) حالق الجبل: أعلاه، كأنه يقول: إن الموت ارتفاع عظيم.

(٩) الدارعين: جمع دارع، أي لابس الدرع.

(١٠) العرين: مأوى الأسد. يقول كثير ممَنْ تحمل نعوشهم فوق المدافع لم يدافعوا عن الحق، ولم يمنعوا العدوان عن الحمى، فما دام هذا المظهر قد يناله في الدنيا غير مستحقه، فهو إذن ليس بذي خطر، وليس بالذي يعتزُّ به حقيقة.

(١١) بيبك: قصر الفقيدة في الآستانة، كان مصيفها كل عام. حاتم: اسم رجل يضرب به المثل في الكرم البالغ، فيقال: كرم حاتمي. وقد اشتهرت الفقيدة بالكرم، ومن أجل ذلك قيل لها أم المحسنين.

(١٢) يشير هذا البيت على أن الفقيدة العظيمة كانت أم خديو وزوجة خديو.

(١٣) العفيفي: علم على الموضع الذي أقيم فيه مدفن الفقيدة بجوار مدفن قرينها.

الدكتور أحمد فؤاد[١]

أَوْحَتْ لطَرْفِكَ فاستهلَّ شُئُونا ... دارٌ مَرَرْتَ بها على (قَيْسونا)[١]
غاضَت بشاشتُها، وفَضَّتْ شملَها ... دنيا تَغُرُّ السادِرَ المفتونا
نزَلَتْ عَوادِي الدهرِ في ساحاتها ... وأَقلَّ رَفْرَفها الخطوبَ العُونا[٢]
فتكادُ مِنْ أسف على أَسِي الحِمَى ... من كلِّ ناحيةٍ تثور شُجونا
تلك (العيادةُ) لم تكن عَبَثًا، ولا ... شَرَكًا لصَيْدِ مَآربٍ وكَمينا
دارُ (ابنِ سِينَا) نُزِّهَتْ حُجُراتُها ... عن أَن تَضُمّ ضَلالةً ومُجونا[٣]
خَبَتِ المطالعُ مِنْ أغرَّ مُؤَمَّلٍ ... كالفجر ثَغْرًا، والصَّبَاح جَبينا[٤]
ومِنَ الوُفودِ، كأَنهم مِنْ حَوْلِه ... مَرْضَى (بعيسى الروحِ) يَستشفونا
مَثَلٌ تَصوَّر من حياةٍ حرَّةٍ ... للنشْءِ يَنطِق في السكوت مُبينا
لم تُحْصَ من عهدِ الصِّبا حَرَكاتُه ... وتَخالُهنَّ من الخُشوع سُكونا
جَمَحَتْ جِراحُ المُعْوِزين، وأَعضلَتْ ... أَدْواؤهُم، وتَغَيَّبَ الشافونا[٥]
ماتَ الجوادُ بطِبِّه وبأَجره ... ولربَّما بذلَ الدواءَ مُعينا
وتَجُسُّ راحتُه العليلَ، وتارةً ... تَكسو الفقيرَ، وتُطعِم المِسكينا
أَدَّى أَمانةَ علمِه، ولطالَما ... حَمَلَ الصداقةَ وافيًا وأَمينا

---

[١] كان الدكتور أحمد فؤاد مثالاً نادرًا من أمثلة حسن الخلق، ونابغة من نوابغ الطب المعدودين، وقد توفي سنة ١٩٣١.

وقضى حقوقَ الأَهلِ، يُحسِن تارةً   بأَبيه، أَو يَصِل القرابة حينا
خُلقٌ ودينٌ في زمانٍ لا ترى   خُلقًا عليه ولا تُصادِف دينا
أَمُداوِيَ الأَرواحِ قبل جُسومِها   قُمْ داوِ فيك فؤاديَ المحزونا
روِّحْ بلفظك كلَّ رُوحٍ مُعذَّبٍ   حَيرانَ طار بلُبِّه الناعونا
قد كال للقدَر العِتابَ، ورُبَّما   ظنَّ المُدَلَّهُ بالقضاءِ ظُنونا[6]
داوَيْتَ كلَّ مُحطَّمٍ فشفَيْتَهُ   ونسِيتَ داءً في الضلوع دَفينا
كبدٌ على دَمِها اتَّكَأْت ولحْمِها   فحَمَلْتَ همَّ المسلمين سِنينا
ظلَّتْ وراءَ الحربِ تَشقَى بالنَّوَى   وتَذوب للوطن الكريم حنينا
ناصرتَ في فجر القضيَّةِ (مصطفى)   فنَصَرْتَ خُلْقًا في الشَّبابِ مَتينا[7]
أَقدمْتَ في العشرين تحتَ لوائِه   وروائعُ الإِقدام في العشرينا
لم تَبغِ دُنيا طالما أَغضَى لها   حُمْسُ الدّعاةِ وطَأْطَئُوا العِرنينا[8]
رُحْمَاكَ (يوسفُ) قِفْ رِكَابَك ساعةً   واعطِفْ على يعقوبَ فيه حزينا[9]
لم يَدْرِ خلفَ النعشِ من حرِّ الجَوى   أَيشُقُّ جَيْبًا، أَم يَشُقُّ وَتينا؟[10]
ساروا بمُهجتِه، فحُمِّلَ ثُكْلَها   وقَضَوْا بعائله، فمالَ غَبينا[11]
أَتعودُ في رَكْبِ الربيعِ إذا انثنى   بَهجًا يَزُفُّ الوردَ والنَّسرينا؟
هيهات من سَفرِ المنيَّة أَوْبةً   حتى يُهيبَ الصُّبحُ بالسارينا
ويقالُ للأَرض الفضاءِ: تمخَّضي   فتردَّ شيخًا أَو تمجّ جنينا
الله أَبقى! أَين مِنْ جَسدي يدٌ   لم أَنْسَ رِفقَ بَنانِها واللِّينا؟[12]
حتى تَمَثَّلتِ العِنايةُ صورةً   تُومِي براحٍ، أَو تُجِيلُ عيونا
فجررَتُ جُثماني، وهانت كُربةٌ   لولا اعتِناؤكَ لم تكن لِتهونا
إنّ الشفاءَ من الحياةِ وعونِها   ما كانَ آسٍ بالشفاءِ ضَمينا
واليومَ أَرْتجِلُ الرِّثاءَ، وأَنزَوي   في مأْتمٍ أَبكي مع الباكينا
سبحانَ من يرِثُ الطبيبَ وَطِبَّه   ويُرِي المريضَ مصارعَ الآسينا!![13]

هوامش

(١) قيسون: علم على مسجد بهذا الاسم في شارع محمد علي بالقاهرة كانت دار الفقيد قريبة منه، الشئون: الدموع. يقول: إن المرور على هذه الدار يجعل العين تفيض دمعًا؛ حزنًا لما أصاب تلك الدار من الخمول بعد النباهة، والسكون بعد الحركة، والوجوم بعد الطلاقة والسرور، وهذا لفقد صاحبها طبعًا.

(٢) أقل: حمل. الرفوف: شيء مثل الطاق يجعل عليه طرائف البيت. العون: جمع عوان. الخطوب العون: أي التي نزلت مرَّة قبل هذه. يريد أن هذه الدار قد عرفت عوائق الدهر وخطوبه قبل هذا الخطب الأخير الذي حلَّ بها.

(٣) يشبِّه الفقيد في الطب والأمانة للعلم بابن سينا.

(٤) خبت المطالع: انطفأ نورها.

(٥) أدواء: جمع داء.

(٦) المدله: الذي ذهب فؤاده من همٍّ وعشق ونحوه.

(٧) يشير إلى أنه كان من الأنصار الكبار للزعيم مصطفى كامل باشا.

(٨) حمس: جمع حمس، بكسر الميم، أو أحمس، وهو الصلب في القتال والعقيدة، والحمس: لقب لقريش، ومَنْ تابعهم في الجاهلية لتحمُّسهم والتجائهم للحمساء، أي الكعبة، العرنين: الأنف.

(٩) يشبِّه الفقيد (عليه السلام)، ليمهد لتشبيه أبيه بسيدنا يعقوب (عليه السلام) في صبره على فراق ابنه ومحنته.

(١٠) الوتين: عرق في القلب إذا قطع مات صاحبه.

(١١) المهجة: تطلق على الدم وعلى الروح، يقال: خرجت مهجته، أي روحه.

(١٢) يشير: إلى أن الفقيد كان أحد أطبائه الذين تمثلت عناية الله به في عنايتهم بعلاجه واعتنائهم بشفائه.

(١٣) الآسينا: جمع آسي، وهو الطبيب.

نجل إمام اليمن[1]

مضى الدهرُ بابن إِمامِ اليَمَنْ	وأَوْدَى بزين شبابِ الزمنْ
وباتَت بصنعاءَ تبكي السيوفُ	عليه، وتبكي القنا في عدن[1]
وأَعْوَلَ نجدٌ، وضجَّ الحجازُ	ومالَ الحُسينُ، فعزَّ الحسن
وغَصَّتْ مَناحاتُه في الخيام	وغَصَّتْ مآتمُه في المُدُن
ولو أَنّ مَيْتًا مَشى للعزاءِ	مشى في مآتمه ذو يَزن[2]
فتًى كاسمِه كان سيفَ الإله	وسيف الرسولِ، وسيفَ الوطن
ولُقِّبَ بالبدْرِ من حُسنه	وما البدرُ؟ ما قدرُه؟ وابنُ مَنْ؟
عزاءً جميلاً إمامَ الحِمَى	وهوِّنْ جليلَ الرزايا يهُن
وأَنتَ المُعانُ بإِيمانه	وظنُّك في الله ظنٌّ حسن
ولكن متى رقَّ قلبُ القضاءِ؟	ومن أَيْن لِلموتِ عقلٌ يَزِن؟
يجامِلُك العربُ النازحون	وما العربيَّةُ إلا وطن
ويجمَعُ قومك بالمسلمين	عظيمُ الفروضِ وسمْحُ السُّنَن
وأَنَّ نبيَّهمُ واحدٌ	نبيُّ الصوابِ، نبيُّ اللَّسَن
ومصرُ التي تجمع المسلمين	كما اجتمعوا في ظلال الرُّكُن[3]

[1] هو الأمير سيف نجل الإمام يحيى، وقد توفي غرقًا وهو يحاول إنقاذ رفيق له من الغرق سنة ١٩٣٣.

تُعزِّي اليَمانِينَ في سَيفهم … وتأْخذ حِصَّتَها في الحَزَن
وتَقعُد في مأْتم ابنِ الإمامِ … وتبكيه بالعبَرات الهُتُن
وتَنْشُر رَيحانَتَيْ زَنْبَقٍ … من الشِّعرِ في رَبَواتِ اليمن
تَرفَّانِ فوق رُفاتِ الفقيدِ … رفيفَ الجنَى في أَعالي الغُصُن
قَضَى واجبًا، فقضَى دونَه … فتًى خالص السِّر، صافي العَلن
تطوَّحَ في لُجَجٍ كالجبال … عِراضِ الأَواسِي طِوَالِ القُنَن[٤]
مَشَى مِشْيَةَ اللَّيْثِ، لا في السلاح … ولا في الدُّروع، ولا في الجُنَن[٥]
متى صِرتَ يا بحرُ غمدَ السيوفِ … وكنا عهدناك غِمدَ السُّفن؟
وكنتَ صِوانَ الجُمانِ الكريمِ … فكيف أُزِيلَ؟ ولِمْ لَمْ يُصَن؟
ظَفِرْتَ بجوهرةٍ فَذَّةٍ … من الشرف العبقريِّ اليُمُن
فتًى بذَلَ الروحَ دونَ الرِّفاق … إليكَ، وأَعطى الترابَ البَدن
وهانتْ عليه مَلاهِي الشبابِ … ولولا حقوقُ العُلا لم تَهُن
وخاضَك يُنقِذُ أَترابه … وكان القضاءُ له قد كَمَن
غدْرتَ فتًى ليس في الغادرين وما … وخُنْتَ امرأً وافيًا لم يَخُن
في الشجاعةِ حَتْفُ الشجاعِ … ولا مَدَّ عمرَ الجبان الجُبُن
ولكن إذا حانَ حَيْنُ الفتى … قضَى، ويَعيش إذا لم يَحِن[٦]
أَلا أَيُّهذا الشريفُ الرَّضِيُّ … أَبو السُّجَر الرِّماحِ اللُّدُن
شهيدُ المُروءَةِ كان البَقِيعُ … أَحقَّ به من تراب اليمن
فهل غسَّلوه بدمعِ العُفاةِ … وفي كلِّ قلبٍ حزينٍ سكن؟
لقد أَغرَقَ ابنكَ صرْفُ الزمانِ … وأغرقْتَ أَبناءَه بالمِنن
أَتذكر إذ هو يَطوِي الشهورَ … وإذ هو كالخِشْفِ (حُلْوٌ) أَغنْ؟[٧]
وإذ هو حولَك حسنُ القصورِ … وطِيبُ الرياضِ، وصَفْوُ الزمَن؟
بشاشتُه لذَّةٌ في العيون … ونَغْمتُه لذَّةٌ في الأذن؟
يلاعِب طُرَّتَه في يَدَيْكَ … كما لاعبَ المُهرُ فضل الرَّسَن؟
وإذ هو كالشبل يَحكِي الأَسودَ … أَدلّ بمِخْلَبِه وافْتَتَن؟[٨]
فشَبَّ، فقامَ وراءَ العَرينِ … يَشُبُّ الحروبَ، ويُطفِي الفِتَن؟[٩]
فما بالُه صار في الهامدين … وأَمسى عَفاءً كأَنْ لم يَكُن؟

نـظَـمْـتُ الـدمـوعَ رِثـاءً لـه   وفـصَّـلْـتُـهـا بـالأَسَـى والـشَّـجَـن

هوامش

(١) صنعاء: حاضرة اليمن، عدن: إحدى الموانى هناك، وهي على خليج عدن المشهور.

(٢) ذو يزن: أحد أقيال اليمن الأقدمين، ولشجاعة هذا الملك في استرداد عرض أبيه وأجداده أضيفت إليه أساطير كثيرة.

(٣) يريد بالركن: الكعبة.

(٤) القنن: جمع قنة، وهي رأس الجبل. الأواسي من البناء: الدعائم.

(٥) الجنن: جمع جنة، بالضم، وهي ما استترت به من سلاح ودروع ونحو ذلك.

(٦) الحين: الأجل.

(٧) الخشف (مثلثة الخاء): الظبي، الأغن: الذي يخرج صوته من خياشيمه وهذا كناية عن ميعة الشباب.

(٨) الشبل: ولد الأسد إذا أدرك الصيد.. أدل بمخلبه: أي تباهى به وتخايل على أقرانه.

(٩) العرين: بيت الأسد. يشبُّ الحروب: يوقدها.

عبد الله بك الطوير[١]

يا قلبُ، ويْحَكَ والمودّةُ ذِمّة ماذا صنَعْت بعهدِ (عبدِ اللهِ)؟
جاذَبتني جنبي عَشيّةَ نَعْيِهِ وخَفقْتَ خَفْقَةَ مُوجَعٍ أَوّاه[١]
ولَوَ آنْ قلبًا ذابَ إِثرَ حَبيبه لهَوى بك الركنُ الضعيفُ الواهي
فعليك من حُسن المروءَةِ آمرٌ وعليك مِن حُسن التجلُّدِ ناه
نزل «الطويِّرُ» في الترابِ منازلاً تهوِي المكارمُ نحوَها بشفاه
عَرَصاتُها مَمطورةٌ بمدامعٍ مَوْطوءَةٌ بمفارِقٍ وجِباه
لولا يمينُ الموتِ فوقَ يمينه فيها؛ لفاضَت من جَنًى ومياه[٢]
يا كابرًا من كابرين، وطاهرًا مِن آلِ طُهرٍ عارِفٍ بالله
ومُحكِّمًا عَلَم القضاءِ مكانَه في المُقسطينَ الجِلَّةِ الأَنزاه[٣]
وحكيمًا اسْتعصَتْ أَعِنَّتُه على كذبِ النعيمِ، وتُرَّهاتِ الجاه
وأَخًا سَقى الإِخوانَ مِنْ (راووقِهِ) بودادِ لا صَلِفٍ، ولا تيّاه[٤]
قد كان شعري شغلَ نفسِكَ، فاقترح من كلِّ (جائلةٍ) على الأَفواه
أُنزِلْتَ منه حينَ فَاتَكَ جَمْعُه في منزلٍ بَهِجٍ بنورِكَ زاه
فاقرأ على «حَسّانَ» منه، لعله بفتاه في مدحِ الرسولِ مُباه[٥]
وانزل بنور الخلدِ جَدّك، واتَّصِلْ بملائكٍ من آلهِ أَشباه[٦]
ناعيكَ ناعي حاتمٍ أَو جعفرٍ فالناسُ بين نوازِلٍ ودواهِ[٧]

---

[١] المرحوم عبد الله بك الطوير، كان أحد رجال القانون في مصر، وقد توفي سنة ١٩١٥.

هوامش

(١) خفق القلب: اضطرب في موضعه. الأَوَّاه: كثير التأوه. وفي القرآن الكريم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

(٢) اليمين: يراد بها هنا القوة. الجني: الثمار.

(٣) المقسطين: أي العادلين. الجلة (بكسر الجيم): قوم ساعدة عظماء ذوو أخطار. الأنزاه: جمع نزه: وهو العفيف المتكرم.

(٤) الراووق: المصفاة، كالباطية ونحوها من الآنية التي يوضع فيها المشروب. الصلف: مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرًا.

(٥) حسان: هو ابن ثابت، شاعر الرسول صلوات الله عليه.

(٦) جدك: منصوب على نزاع الخافض، أي انزل على جدك، وكان الفقيد منسوبًا لآل البيت النبوي.

(٧) حاتم: هو الطائي المشهور بالكرم. جعفر: لعله يقصد به جعفر االبرمكي، أو عبد الله ابن جعفر أحد أجواد العرب في العصر الأموي، والمقصود تشبيه الفقيد في كرمه بهذين الرجلين اللذين ضرب المثل بكرمهما.

سعد باشا زغلول[١]

شيَّعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانحني الشرقُ عليها فبكاها
ليتني في الركبِ لمَّا أَفلَتْ ... (يوشعٌ)، همَّتْ، فنادَى، فثناها[١]
جَلَّلَ الصبحَ سوادًا يومُها ... فكأَنَّ الأَرض لم تخلع دُجاها[٢]
انظروا تَلْقَوْا عليها شَفَقًا ... من جِراحاتِ الضحايا ودِماها
وتَرَوْا بَينَ يَدَيْها عَبرةً ... من شهيدٍ يقطرُ الورد شَذاها
آذن الحقُّ ضَحاياها بها ... وَيْحَهُ!! حتى إِلى الموتى نَعاها
كفّنوها حُرَّةً عُلْوِيّةً ... كَسَتِ الموتَ جلالاً، وكساها
مِصْرُ في أَكفانها إِلا الهدى ... لحمةُ الأَكفانِ حقٌّ وسُداها[٣]
خطر النعشُ على الأَرض بها ... يَحْسِرُ الأَبصارَ في النعش سَناها[٤]
جاءَها الحقُّ، ومِنْ عادتها ... تؤثرُ الحقَّ سبيلاً واتِّجاها[٥]
ما دَرتْ مصرٌ: بدفن صُبِّحَتْ ... أَم على البعثِ أَفاقَتْ مِنْ كَراها؟
صَرَخَتْ تَحسبها بنْتَ الشَّرَى ... طلَبَتْ مِنْ مِخْلَب الموتِ أَباها[٦]
وكأَن الناسَ لمَّا نَسَلوا ... شُعَبُ السيلِ طَغتْ في مُلتقاها
وضعوا الرَّاحَ على النعشِ كما ... يَلمَسونَ الرُّكنَ فارتدَّتْ نزاها
خَفضوا في يوم (سعدٍ) هامَهم ... و(بسعدٍ) رَفعوا أَمسِ الجِباها

---

[١] زعيم مصر الخالد سعد باشا زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧.

سائلوا «زَحْلَةَ» عن أَعراسها ... هل مَشى الناعي عليها فمحاها؟[7]
عَطَّلَ المُصْطافَ من سُمَّارِه ... وجَلا عن ضِفَّةِ الوادي دُماها[8]
فتحَ الأَبوابَ ليلاً (دَيْرُها) ... وإِلى (الناقوسِ) قامتْ بِيعَتاها
صدَع البرقُ الدُّجَى، تنشرُه ... أَرضُ (سوريا)، وتَطويه سَماها[9]
يَحمِلُ الأَنباءَ تَسرِي مَوْهِنًا ... كعوادي الثُّكل في حَرِّ سُراها[10]
عَرَضَ الشكُّ لها فاضطرَبتْ ... تَطأُ الآذانَ هَمْسًا والشِّفاها
قلتُ: يا قوم اجمعوا أَحلامَكم ... كلُّ نفسٍ في وَرِيدَيْها رَداها[11]
يا عدوَّ القيدِ لم يلمَحْ له ... شبَحًا في خطَّةٍ إلا أَباها
لا يَضِقْ ذَرْعُكَ بالقيد الذي ... حَزَّ في سُوق الأَوالِي وبَراها
وقعَ الرُّسْلُ عليه، والْتَوَتْ ... أَرجلُ الأَحرارِ فيه فعَفاها
يا رُفاتًا مِثلَ رَيْحَانِ الضُّحى ... كلَّلَتْ (عَدْنٌ) بها هامَ رُباها[12]
وبقايا هيكل من كرمٍ ... وحياة أَتْرَعَ الأَرض حَياها[13]
ودَّعَ العدلُ بها أَعلامَه ... وبكتْ أَنظِمةُ الشُّورى صُواها[14]
حَضنتْ نعشك، والتفَّتْ به ... رايةٌ كنت من الذل فِداها
ضمَّت الصدرَ الذي قد ضمَّها ... وتلقَّى السهمَ عنها فوقاها
عجبي مِنها ومن قائدها!! ... كيف يَحمِي الأَعزلُ الشيخُ حِماها؟
مِنْبَرُ الوادي ذَوَت أَعوادُه ... مِن أَواسِيها وجَفَّتْ من ذُراها
مَن رَمَى الفارسَ عن صَهْوَتِها ... ودَها الفُصحى بما أَلجمَ فاها؟
قدَرٌ بالمُدْنِ أَلْوَى والقُرَى ... ودَها الأَجبالَ منه ما دَهاها
غال (بَسْطورا) وأَردَى عُصبةً ... لمسَتْ جُرثومةَ الموتِ يَداها
طافت الكأْسُ بساقي أُمّةٍ ... مِن رَحيقِ الوطنيّاتِ سقاها
عَطِلتْ آذانُها من وَتَرٍ ... ساحرٍ رَنَّ مَليًّا فشجاها
أَرغُنٌ هامَ به وِجْدانُها ... وأَذانٌ عَشِقَتْه أُذْناها
كلَّ يومٍ خطبةٌ روحيّةٌ ... كالمزامير وأَنغامِ لُغاها
دَلَّهَتْ مصرًا، ولو أَنَّ بها ... فَلَوَاتٍ دَلَّهَتْ وَحْش فَلاها
ذائدُ الحقِّ وحامي حَوْضِه ... أَنفَذَتْ فيه المقاديرُ مُناها
أَخَذَتْ (سعدا) من (البيت) يَدٌ ... تأْخذُ الآسادَ من أَصل شراها

لو أَصابَت غيرَ ذي رُوح لمَا ... سَلمَتْ منها الثُّريّا وسُهاها
تتحدَّى الطبَّ في قفَّازها ... عِلَّةُ الدهر التي أَعيا دَواها
من وراءِ الإذنِ نالَتْ ضَيْغَمًا ... لم يَنَلْ أَقرانَه إِلا وِجاها
لم تصارِحْ أَصْرحَ الناسِ يَدًا ... ولسانًا، ورُقادًا، وانتباها
هذه الأَعوادُ من آدَمَ لَمْ ... يَهْدَ خُفَّاها، ولم يَعْرَ مَطاها
نقَلَتْ (خُوفو)، ومالتْ (بمِنا) ... لم يفُت حَيًّا نصيبٌ من خُطاها[١٥]
تخْلِطُ العُمْرينِ: شيْبًا، وصِبًا ... والحياتين: شَقاءً، ورَفاها
زَوْرَقٌ في الدمعِ يَطفو أَبدًا ... عرَفَ الضَّفَّةَ إلا ما تلاها
تهلَع الثَّكْلى على آثارِه ... فإذا خَفَّ بها يوما شفاها
تسكُبُ الدمعَ على (سعدٍ) دمًا ... أمةٌ من صخرةِ الحقّ بناها
من لَيَانٍ هو في يَنْبُوعِها ... وإِباءٍ هو في صُمٍّ صَفاها
لُقِّنَ الحقَّ عليه كَهلُها ... واستقَى الإيمانَ بالحقِّ فَتاها
بذَلَتْ مالاً، وأَمْنًا، ودمًا ... وعلى قائدها أَلقَت رَجاها
حمَّلتُه ذِمَّةً أوفى بها ... وابتلَتْه بحقوقٍ فقضاها
ابنُ سبعينَ تلقَّى دونها ... غُربةَ الأَسرِ، ووَعْثاءَ نَواها[١٦]
سفرٌ من عَدَن الأَرضِ، إلى ... منزلٍ أَقرَبُ منه قُطْباها
قاهرٌ أَلْقَى به في صخرةٍ ... دفعَ النسرَ إليها فَأواها
كرِهَتْ منزلَها في تاجه ... دُرّةٌ في البحر والبرِّ نفاها
اسأَلوها، واسأَلوا شانِئَها ... لِمَ لَم يَنفِ من الدُّرِّ سواها؟
ولَدَ الثَّورَةَ سعدٌ حُرّةً ... بحياتَيْ ماجدٍ حُرٍّ نَماها
ما تَمنَّى غيرَها نسلاً، ومَنْ ... يَلِدِ الزَّهراءَ يَزْهَدْ في سواها
سالت الغابةُ من أَشبالها ... بين عَيْنَيْهِ وماجَتْ بلبَاها[١٧]
بارك الله لها في فرعِها ... وقَضَى الخيرَ لمِصرٍ في جَناها
أَوَ لم يَكتُبْ لها دُسْتورَها ... بالدمِ الحرِّ، ويَرْفَعْ مُنتداها؟[١٨]
قد كتبتاها، فكانت صورةً ... صَدْرُها حقٌّ وحقٌّ مُنتهاها
رَقدَ الثائرُ إلا ثورةً ... في سيل الحقِّ لم تَخمد جُذاها
قد تَولاَّها صبيًّا فكَوَتْ ... راحَتَيْهِ، وفَتِيًّا فرعاها[١٩]

جالَ فيها قلمًا مُستنهِضًا   ولِسانًا كلَّما أَعْيَتْ حَداها[٢٠]
ورمَى بالنفس في بُركانِها   فتلقَّى أَوّلَ الناسِ لَظاها
أَعلِمتم بعد (موسى) مِنْ يَدٍ   قذَفَتْ في وجه (فِرْعَوْنَ) عَصاها؟[٢١]
وَطِئَتْ نادبةً صارخةً   شاهَ وجهُ الرِّق — يا قوم — وشاها[٢٢]
ظَفِرَتْ بالكِبْر من مُستكبِرٍ   ظافرِ الأَيّامِ مَنصورِ لِواها
القَنا الصُّمّ نَشاوَى حولَهُ   وسيوفُ الهندِ لم تَصْحُ ظُباها
أَين مِنْ عَيْنَيَّ نفسٌ حُرَّةٌ   كنتُ بالأَمسِ بعينَيَّ أَراها؟
كلَّما أَقبلت هَزَّتْ نفسها   وتَواصَى بِشرُها بي ونداها
وجرَى الماضي، فماذا ادَّكَرَتْ   وادِّكارُ النفسِ شيءٌ من وَفاها؟
أَلمحُ الأَيّامَ فيها، وأَرى   من وراءِ السِّنِّ تِمثالَ صِباها
لستُ أَدري حينَ تَّندَى نَضرةً   عَلَتِ الشَّيْبَ، أَم الشَّيْبُ عَلاها؟
حَلَّت السبعون في هيكلها   فَتَداعَى وهْيَ مَوْفورٌ بِناها
رَوْعةُ النادي إذا جدَّتْ، فإِن   مَزَحَتْ لم يُذهِب المَزْحُ بَهاها
يَظفَرُ العُذْرُ بأَقصى سُخطِها   ويَنالُ الودُّ غاياتِ رِضاها
ولها صبرٌ على حُسَّادها   يُشبه السَّفْحَ، وحِلْمٌ عن عِداها
لستُ أَنسَى صفحةً ضاحكةً   تأْخذ النفسَ وتَجرِي في هواها
وحديثًا كرِوايات الهوى   جَدَّ للصَّبِّ حَنينٌ فرواها
وقناةً صَعْدَةً لو وُهِبَتْ   للسِّماكِ الأَعزلِ اختالَ وتاها[٢٣]
أَين منِّي قلمٌ كنتُ إِذا   سمتُه أَن يَرثِيَ الشمسَ رَثاها؟
خانني في يوم (سعدٍ)، وجَرى   في المراثي فكَبا دونَ مَداها
في نعيم الله نفسٌ أُوتِيَتْ   أَنعُمَ الدنيا فلم تَنسَ تُقاها
لا الحِجَى لمّا تَنَاهَى غَرَّها   بالمقاديرِ، ولا العِلمُ زَهاها
ذَهَبَتْ أَوّابةً مُؤمِنَةً   خالصًا من حَيْرَةِ الشكِّ هُداها
آنَسَتْ خَلْقًا ضعيفًا ورأَتْ   من وراءِ العالَمِ الفانِي إِلها
ما دعاها الحقُّ إِلا سارَعَتْ   ليتَه يوم «وَصيفٍ» ما دعاها[٢٤]

هوامش

(١) يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

(٢) جلل الصبح: كساه وغطى ضوءه.

(٣) اللحمة: ما سدى به الثوب، السدى: ضد اللحمة.

(٤) يحسر الأبصار: أي يردُّها كليلة ضعيفة.

(٥) الحق الأول: يقصد به الموت. الحق الثاني: يقصد به العدل.

(٦) بنت الشرى: أنثى الأسد.

(٧) يشير البيت إلى أن أمير الشعراء وقت نعي الفقيد كان يصطاف في زحلة إحدى مصايف لبنان.

(٨) السُّمار: جمع سامر، وهم إخوان الحديث في المساء. الضفة من النهر ومن الوادي: الجانب. الدمى: جمع دمية. وهي الصورة يعملها المثال من الرخام.

(٩) صدع: شق وقطع.

(١٠) الموهن: نصف الليل، أو بعده بنحو ساعة.

(١١) الوريدان: مثنى الوريد، أحد شرايين الجسم.

(١٢) عدن: الجنة. هام رباها، أي رءوس ربواتها. الربوات: الأمكنة المرتفعة فيها.

(١٣) أترع: ملأ. الحيا: المطر.

(١٤) الصوى: جمع صوة — بضم الصاد — وهي حجر يوضع في الطريق كعلامة يهتدى بها.

(١٥) خوفو. ومنا: من ملوك مصر الفراعنة.

(١٦) الوعثاء: الطريق العسر، أو المشقة.

(١٧) اللبا: جمع لباة — كقطاة — وهي أنثى الأسد.

(١٨) المنتدى: البرلمان.

(١٩) يشير إلى عمل سعد باشا في الثورة العرابية وهو في مقتبل شبابه.

(٢٠) أعيت: تعبت. حداها، من قولهم: حدا الإبل، أي ساقها وزجرها.

(٢١) إشارة إلى تحدي موسى لفرعون وسحرته بالعصا، فكانت كما ورد في القرآن: «تلقف ما يأفكون».

(٢٢) شاه وجه الرق: أي قبح.

(٢٣) القناة: الرمح. الصعدة: هي التي نبتت مستوية، فلا تحتاج لتثقيف. السماك: أحد كوكبين نيرين، يوصف أحدهما بالرامح؛ لأن أمامه كوكبًا صغيرًا يسمى

رمح السماك ورايته، ويوصف الآخر بالأعزل، حيث لا يوجد أمامه شيء. يقول إن له قوامًا له منح للسماك الأعزل في السماء لاختال به وتباهى على السماك الرامح.

(٢٤) وصيف: يقصد مسجد وصيف، وهي القرية التي توجد فيها ممتلكات الزعيم، والتي قضى بها.

الشاعر الموسيقي فردى[1]

فتى العقلِ والنعمة العالِيَهْ ... مضى ومَحاسِنُه باقِيهْ
فلا سُوقَةٌ لم تكن أُنْسَهُ ... ولا مَلِكٌ لم تَزِن نادِيَه
ولم تَخْلُ مِن طِيبها بَلدةٌ ... ولم تَخلُ من ذِكرها ناحيه
يكادُ إذا هو غَنَّى الورَى ... بقافيةٍ يُنْطِق القافيه
يَتِيهُ على الماس بعضُ النُّحاسِ ... إذا ضَمَّ ألحانَه الغاليه
وتَحكم في النفس أَوتارُه ... على العودِ ناطقةً حاكيه
وتبلغ موضعَ أَوطارِها ... وتُفشِي سَريرَتَها الخافيه
وكم آيةٍ في الأَغانِي له ... هي الشمسُ ليس لها ثانيه!
إذا ما تَنادَى بها العارِفون ... قل: البرقُ والرعدُ مِنْ غاديه
فإن هَمَسُوا بعدَ جَهْرٍ بها ... فَخَفْقُ الحُلِيِّ على الغانيه
لقد شاب (فردى) وجاز المَشِيبَ ... و(عَيْدا) شَبِيبتُها زاهيه[1]
تُمثِّلُ مِصرَ لهذا الزمانِ ... كما هي في الأَعْصُرِ الخاليه
ونذكر تلكَ الليالي بها ... وننشد تلك الرُّؤَى الساريه
ونَبكي على عِزِّنا المُنقَضِي ... ونَنْدُبُ أَيّامَنا الماضيه
فيا آل (فردى)، نُعزِّيكُمُ ... ونبكي مع الأَسرةِ الباكيه
فَقَدنا بمفقودِكم شاعِرًا ... يَقِلُّ الزمانُ له راوِيَه

[1] الشاعر الموسيقي فردي أحد أعلام إيطاليا العالميين، وقد توفي سنة ١٩٠١.

هوامش

(١) عيدا: رواية تمثيلية للفقيد.

إسماعيل أباظة باشا[١]

سقى اللهُ (بالكَفْر الأَباظيِّ) مَضْجَعًا   تَضَّوع كافورًا من الخلد ساريا

يَطيب ثَرى (بُرْدِينَ) من نَفْح طِيبِه   كأَنَّ ثرى (يُرْدِينَ) مَسّ الغَواليا[١]

فيا لَكَ غِمدًا من صَفيحٍ وجَنْدَلٍ   حوَى السيفَ مَصقولَ الغِرارِ يَمانيا[٢]

وكنا استلَلْنا في النوائب غَرْبَهُ   فلم يُلْفَ هيّابًا، ولم يُلْف نابيا[٣]

إذا اهتزَّ دونَ الحقِّ يَحمِي حِياضَه   تأَخَّر عنها باطلُ القومِ ظاميا

طَوَتْهُ يدٌ للموت، لا الجاهُ عاصمًا   إذا بَطَشتْ يومًا، ولا المالُ فاديا

تنالُ صِبا الأَعمارِ عند رَفِيفِهِ   وعندَ جُفوفِ العُودِ في السِّنِّ ذاويا

وبعضُ المنايا تُنْزلُ الشُّهْدَ في الثرى   ويَحْطُطْنَ في التُّرْب الجبالَ الرواسيا

يقولون: يَرثي الراحلين، فوَيْحَهُم!   أَأَمَّلْتُ عندَ الراحلين الجَوازيا؟

أَبَوْا حسدًا أَن أَجعل الحيَّ أُسْوَةً   لهم، ومثالاً قد يُصادِفُ حاذيا

فلمَّا رثَيْتُ الميْتَ أَقْضِي حقوقَه   وَجَدْتُ حسودًا للرُّفات وشانيا

إذا أَنت لم ترْعَ العهودَ لهالكٍ   فلستَ لحيٍّ حافظَ العهد راعيا

فلا يَطْوِيَن الموتُ عهدَك من أَخٍ   وهَبْهُ بوادٍ غيرِ واديك نائيا

أَقام بأَرضٍ أَنت لاقِيه عندَها   وإن بِتُّما تستبعدان التلاقيا

---

[١] إسماعيل أباظة باشا: أحد سراة الزعماء في البلاد المصرية، كان صاحب الصوت المتبوع في الجمعية التشريعية، وقد توفي سنة ١٩٢٧ بعد أن ترك خلفه تاريخاً حافلاً بالمواقف الوطنية المحمودة.

رَثيْتُ حياةً بالثناءِ خليقةً   وحلَّيْتُ عهدًا بالمفاخِر حاليا
وعزَّيْتُ بيتًا قد تبارَتْ سماؤُه   مَشايِخَ أَقمارًا، ومُرْدًا دَراريا[٤]
إلى الله (إسماعيلُ) وانزِلْ بساحةٍ   أَظلَّ النَّدَى أَقطارَها والنواحِيا
تَرَى الرحمةَ الكبرى وراءَ سمائها   تَلُفُّ التُّقَى في سَيْبِها والمَعاصيا
لدى مَلِكٍ لا يَمنع الظلَّ لائذًا   ولا الصَّفحَ توَّابًا، ولا العفوَ راجيا
وأَقسمُ كنتَ المرءَ لم يَنْسَ دِينَهُ   ولم تُلْهِهِ دُنياؤه وهْيَ ما هيا
وكنتَ إذا الحاجاتُ عَزَّ قضاؤها   لحاجِ اليتامى والأَرامِلِ قاضيا[٥]
وكنتَ تُصلِّي بالملوكِ جماعةً   وكنت تقوم الليلَ بالنفس خاليا
ومَن يُعْطَ من جاهِ الملوك وَسِيلةً   فلا يَصنع الخيراتِ؛ لم يُعْطَ غاليا
وكنتَ الجريءَ النَّدْبَ في كلِّ موقفٍ   تلفَّتَ فيه الحقُّ لم يَلْقَ حاميا[٦]
بَصُرتُ بأَخلاقِ الرجالِ فلم أَجِدْ   — وإِن جَلَّت الأَخلاقُ — للعزم ثانيا
من العزمِ ما يُحيي فُحولاً كثيرةً   وقدَّمَ كافورَ الخَصِيّ الطَّواشِيا
وما حطَّ مِنْ رَبِّ القصائد مادحًا   وأَنزلهُ عن رتبةِ الشعر هاجيا
فليس البيانُ الهجوَ إن كنتَ ساخطًا   ولا هو زُورُ المدحِ إن كنتَ راضيا
ولكنْ هُدى اللهِ الكريمِ ووَحْيُه   حَملتَ به المصباحَ في الناسِ هادِيا
تُفيض على الأَحياءِ نورًا، وتارةً   تُضيءُ على الموتى الرِّجامَ الدَّواجيا[٧]
هياكلُ تَفْنَى، والبيانُ مُخلَّدٌ   أَلا إنَّ عِتْقَ الخمرِ يُنْسِي الأَوانيا
ذهبْت (أَبا عبدِ الحميدِ) مُبَرَّءًا   من الذَّام، محمودَ الجوانبِ، زاكيا[٨]
قليلَ المساوِي في زمانٍ يَرى العُلا   ذُنوبًا، وناسٍ يَخْلُقون المساويا
طوَيناك كالماضي تَلقَّاه غِمدُه   فلم تسترح حتى نشرناك ماضيا[٩]
فكنتَ على الأَفواه سيرةَ مُجمِلٍ   وكنت حديثًا في المسامع عاليا
وَفَيْتَ لمَنْ أَدناكَ في الملك حِقبةً   فكانَ عجيبًا أَن يَرى الناسُ وافيا
أَثاروا على آثار مَوْتِكَ ضَجَّةً   وهاجُوا لنا الذكرى، وَردُّوا اللياليا
ومَن سابَقَ التاريخَ لم يَأْمَن الهوى   مُلِجًّا، ولم يَسلَم منَ الحِقْدِ نازيا[١٠]
إذا وضَعَ الأَحياءُ تاريخَ جِيلِهم   عَرفتَ المُلاحي مِنهمو، والمُحابيا
إذا سلم الدستورُ هان الذي مضى   وهان ممن الأَحداثِ ما كان آتيا[١١]
أَلا كلُّ ذَنْب لِلّيالي لأَجلِه   سَدَلْنا عليه صَفحَنا والتناسيا[١٢]

هوامش

(١) بردين: قرية الفقيد، وهي من أعمال مديرية الشرقية. الغوالي جمع غالية، وهي المسك.

(٢) الغرار من السيف: حدُّه.

(٣) غرب السيف: حدُّه أيضًا. نابي: كليل لا يقطع.

(٤) يشبه شيوخ الأسرة الأباظية بالأقمار، وشبابها المرد بدراري النجوم، على حين أن هذه الأقمار والنجوم تتبارى في الإشعاع والإضاءة.

(٥) حاج: جمع حاجة.

(٦) الندب: الخفيف عند الحاجة إليه.

(٧) الرجام: القبور. الدواجي — جمع داجية: المظلمة.

(٨) زاكيا: أي ناميًا مباركًا.

(٩) الماضي، في أول البيت: السيف، وفي آخره: من الزمن الماضي.

(١٠) نازيًا: أي واثبًا. والملح المتمادي في الخصومة.

(١١) الأحداث: نوازل الأَيام.

(١٢) سدلنا عليه الصفح: أي سحبنا على كل الذنوب إعراضنا وسترناها بغفراننا.

علي بهجت[١]

أَحـقٌّ أَنـهـم دفَـنـوا عَـلِـيًّـا   وحَطُّوا في الثَّرى المرءَ الزكيّا؟
فما تركوا من الأَخلاق سَمْحًا   على وجه الترابِ، ولا رَضِيًّا؟
مَضوْا بالضاحك الماضي وأَلْقَوْا   إِلى الحُفَر الخَفيفَ السَّمْهَرِيَّا
فَمَنْ عَوْنُ اللغاتِ على مُلِمٍّ   أَصاب فصيحَها والأَعجميَّا؟
لقد فَقَدَتْ مُصَرِّفَها حنينًا   وبات مكانُه منها خَلِيًّا
ومن يَنْظُرْ يَرَ الفُسْطاطَ تبكي   بفائضةٍ من العَبَرَاتِ رِيًّا
أَلم يَمْشِ الثرى قِحَةً عليها   وكان رِكابُها نحوَ الثُّرَيَّا؟
فَنَقَّبَ عن مواضعها عَلِيٌّ   فجَدَّد دارسًا، وجَلا خَفِيّا
ولولا جُهْدُهُ احتجَبَتْ رُسومًا   فلا دِمَنًا تُرِيكَ ولا نُؤيًّا
تلفَّتَت الفنونُ وقد تَوَلَّى   فلم تَجِد النصيرَ ولا الوَلِيّا
سَلوا الآثارَ: مَنْ يَغدو يُغالي   بها، ويروحُ محتفِظًا حَفِيًّا؟
ويُنْزِلُها الرُّفوفَ كجوهريٍّ   يُصَفِّفُ في خزائنها الحُلِيًّا؟
وما جَهِلَ العَتِيقَ الحُرَّ منها   ولا غِبِيَ المُقَلَّدَ والدَّعِيَّا

---

١ رثى أمير البيان «أحمد شوقي» فقيد العلم والعاديات المغفور له «علي بهجت» بهذه اليتيمة العصماء التي قيلت في حفلة تأبينه، وهي كما يراها القارئ الكريم، أخذة من أخذ السحر ومعجزة من معجزات الشعر (نُشِرَت بجريدة الأخبار بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٢٤).

فتىً عاف المشاربَ من دَنايا   وصان عن القَذَى ماءَ المُحَيَّا
أَبيُّ النفِس في زمنٍ إذا ما   عَجَمْتَ بنيهِ لم تجِدِ الأَبيَّا
تعوَّدَ أَن يراه الناس رأْسًا   وليس يَرَوْنَه الذنبَ الدَّنيَّا
وَجَدْتُ العلمَ لا يبني نُفُوسًا   ولا يغني عن الأَخلاق شَيَّا
ولم أَر في السلاح أَضلَّ حَدًّا   مِنَ الأَخلاق إنْ صَحِبَتْ غَوِيّا
هما كالسيف، لا تُنْصِفْهُ يَفْسُدْ   عليكَ، وخُذْهُ مُكتمِلاً سَوِيًّا
غديرٌ أَترعَ الأَوطانَ خيرًا   وإن لم تَمتلئ منه دَوِيًّا
وقد تأْتي الجداولُ في خشوعٍ   بما قد يُعْجِزُ السَّيلَ الأَتِيّا
حياةُ مُعَلِّمٍ طفِئَتْ، وكانتْ   سراجًا يُعجِبُ الساري وَضيًّا
سبقتُ القابسين إلى سَناها   ورُحتُ بنورها أَحْبُو صَبيًّا
أَخذْتُ على أَريبٍ أَلمَعِيٍّ   ومَنْ لكَ بالمعلِّم أَلْمَعِيّا؟
ورُب مُعلِّمٍ تلقاه فَظًّا   غليظ القلبِ، أَو فَدْمًا غَبيًّا
إذا انتدب البنون لَها سيوفًا   من الميلاد ردَّهُمُ عِصيًّا
إذا رَشَد المعلمُ كان مُوسَى   وإن هو ضَلَّ كان السامِريًّا
ورُبَّ معلِّمِينَ خَلَوْا وفاقوا   إلى الحرية انساقُوا هديًّا
أَناروا ظلمةَ الدنيا، وكانوا   لنار الظالمين بها صِلِيًّا
أَرِقْتُ وما نَسِيت ُ «بناتِ بومٍ»   على «المطريَّة» اندَفعَتْ بُكيًّا
بكَتْ وتأَوَّهَتْ، فَوَهِمْتُ شَرًّا   وقبلي داخَلَ الوَهْمُ الذَّكِيا
قلبتُ لها الحذَيَّ، وكان مني   ضلالاً أَن قلبتُ ما الحذيَّا
زَعَمْتُ الغَيْبَ خلفَ لسانِ طيرٍ   جَهِلْتُ لسانَه فزعَمتُ غيّا
أَصاب الغيبَ عند الطير قومٌ   وصار البومُ بينهمو نَبيّا
إذا غَنّاهمو وجدوا سَطِيحًا   على فمه، وأَفْعَى الجُرْهُمِيّا
رمى الغربانُ شيخَ تَنوخَ قبلي   وراش من الطويل لها دَوِيًّا
نحا من ناجذيْهِ كلُّ لحمٍ   وغُودِرَ لحمهُنّ به شَقِيًّا
نَعَسْتُ فما وجدتُ الغَمْضَ حتى   نَفَضْتُ على المَناحَةِ مُقْلَتَيّا
فقلتُ: نذيرةٌ وبلاغُ صِدْقٍ   وحَقٌّ لم يُفاجِئْ مَسْمَعَيّا
ولكنَّ الذي بَكَتِ البوَاكِي   خليلٌ عزَّ مَصرعُه عَلَيَّا

ومَن يُفجَعْ بِحُرٍّ عبقريٍّ   يَجدْ ظلمَ المنيّةِ عبقريّا
ومن تَتراخَ مُدَّتُه فيُكثِرْ   من الأَحبابِ لا يُحْصِي النَّعِيَّا
أَخي، أَقبِلْ عَلَيَّ من المنايا   وهاتِ حديثَك العذبَ الشَّهيَّا
فلم أَعدِم إِذا ما الدُّورُ نامت   سميرًا بالمقابر أَو نَجِيّا
يُذكِّرني الدُّجَى لِدَةً حَميمًا   هنالكَ باتَ، أَو خِلاًّ وَفِيَّا
نَشَدْتُكَ بالمنيّة وهْيَ حقٌّ   أَلم يَكُ زُخْرُفُ الدنيا فَرِيَّا
عَرفْتَ الموتَ معنًى بعد لفظٍ   تَكلَّمْ، واكشِفِ المعنى الخَبِيَّا
أَتاك من الحياة الموتُ فانظُرْ   أَكنتَ تموت لو لم تُلْفَ حَيَّا؟
وللأَشياءِ أَضدادٌ إِليها   تصير إِذا صبَرْتَ لها مَليَّا
ومُنْقَلَبُ النجومِ إِلى سكونٍ   من الدَّوَرانِ يَطويهنّ طيَّا
فخَبرني عن الماضين؛ إِني   شدَدْتُ الرَّحْلَ أَنتظرُ المُضِيَّا
وَصِفْ لي منزلاً حُمِلوا إِليه   وما لمحوا الطريقَ ولا المُطِيّا
وكيف أَتى الغنيُّ له فقيرًا   وكيف ثَوى الفقيرُ به غَنِيًّا؟
لقد لَبِسُوا له الأَزياءَ شتَّى   فلم يقبل سوى التَّجريدِ زِيًّا
سواءٌ فيه مَنْ وافى نهارًا   ومَنْ قذف اليهودُ به عَشِيّا
ومَنْ قطع الحياة صَدًا وجوعًا   ومَنْ مَرّتْ به شِبَعًا ورِيًّا
ومَيْتٌ ضَجَّتِ الدنيا عليه   وآخَرُ ما تُحِسُّ له نعِيًّا

الباب الرابع

متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع

الْجَامعَةُ الْمِصْرِيَّةُ

«أنشأها في حفلة افتتاح منشآت الجامعة المصرية سنة ١٩٣١»

تاجَ البلادِ، تحيةٌ وسلامُ ... رَدَّتك مصرُ، وصحَّت الأَحلامُ
العلمُ والمُلكُ الرفيعُ؛ كلاهما ... لك — يا «فؤادُ» — جلالةٌ ومقام
فكأَنك المأْمونُ في سُلطانِه: ... في ظلِّك الأَعلامُ، والأَقلامُ[١]
أَهدَى إِليك الغربُ من أَلقابه ... في العلمِ ما تسمو له الأَعلام
من كلِّ مملكةٍ، وكلِّ جماعةٍ ... يسعى لك التقديرُ والإعظام
ما هذه الغُرَفُ الزواهرُ كالضُّحى ... الشَّامخاتُ كأَنها الأَعلامُ؟
من كلِّ مرفوعِ العمودِ مُنَوِّرٍ ... كالصبحِ مُنْصَدِعٌ به الإظلام
تتحطَّم الأُمِّيَّةُ الكبرى على ... عَرَصاتِه، وتمزَّقُ الأَوهام
هذا البناءُ الفاطِميُّ مَنارةٌ ... وقواعدٌ لحضارةٍ ودِعام
مهدٌ تَهَيَّأَ للوليدِ، وأَيكةٌ ... سَيَرِنُّ فيها بُلبلٌ وحَمام
شُرُفاته نورُ السبيلِ، وركنُه ... للعبقريّةِ مَنزلٌ ومُقام
وملاعبٌ تجرِي الحظوظُ مع الصبَّا ... في ظِلِّهنَّ، وتُوهَبُ الأَقسام[٢]
يمشِي بها الفِتْيانُ، هذا ما له ... نفس تُسَوِّدُه، وذاك عِصامُ[٣]
أَلقَى أَواسِيَهُ، وطال برُكنِه ... نَفْسٌ من الصيِّدِ الملوكِ كُرام[٤]
من آلِ إِسماعيلَ، لا العَمَّاتُ قد ... قصَّرن عن كرم، ولا الأَعمام

لم يُعْطَ هِمَّتَهم، ولا إحسانَهم … بان على وادي الملوك هُمام
وبنى فؤادٌ حائطَيْه، يُعِينُه … شعبٌ عن الغاياتِ ليس يَنام
أُنظر أَبا الفاروقِ غرسَكَ، هل دَنَتْ … ثمراتُه، وبدت له أَعلامُ؟
وهل انثنى الوادي وفي فمه الجَنَى … وأَتى العراقُ مُشاطرًا والشام؟
في كلِّ عاصمةٍ وكلِّ مدينةٍ … شُبانُ مِصْرَ على المناهل حاموا
كم نستعيرُ الآخرِين ونَجْتَدِي … هيهات! ما للعارِيات دَوام
اليومَ يَرْعَى في خمائلِ أَرضِهم … نَشَأ إلى داعي الرَّحيلِ قِيام
حبٌّ غَرَسْتَ بِراحَتَيْكَ، ولم يَزلْ … يَسقيه من كِلتا يديك غمام
حتى أَنافَ على قوائمِ سُوقِهِ … ثمرًا تَنوءُ وراءَه الأَكمام
فقريُبه للحاضرين وليمةٌ … وبعيدُه للغابرين طعام
عِظةٌ لفاروقٍ وصالحِ جِيلهِ … فيما يُنيلُ الصبرُ والإقدام
ونَموذجٌ تَحذُو عليه، ولم يَزَلْ … بسَراتِهمْ يتشبَّهُ الأَقوام
شيَّدت صَرْحًا للذخائرِ عاليًا … يَأْوي الجمالُ إليه والإلهام
رَفٌّ عُيونُ الكُتْبِ فيه طوائفٌ … وجلائلُ الأَسفارِ فيه رُكام
إسكندرِيَّةُ، عاد كنزُكِ سالمًا … حتى كأَنْ لم يلتهمْه ضِرامُ
لمَّتْهُ من لَهَبِ الحريق أَناملٌ … بَرْدٌ على ما لامَسَتْ، وسَلام
وأَسَتْ جِراحَتَكِ القديمة راحةٌ … جُرْحُ الزمانِ بعُرْفِها يَلتام
تَهَبُ الطريفَ من الفَخارِ، وربَّما … بَعَثَتْ تَليدَ المجدِ وهْوَ رِمام
أَرَأَيتَ رُكنَ العلم كيف يُقامُ؟ … أَرأَيتَ الاستقلالَ كيف يُرامُ؟
العلمُ في سُبلِ الحضارةِ والعُلا … حادٍ لكلِّ جماعةٍ، وزِمام
باني الممالكِ حينَ تنشُدُ بانيًا … ومَثابةُ الأَوطانِ حينَ تُضام
قامتْ رُبوعُ العلم في الوادي، فهل … للعبقريّةِ والنبوغِ قيَام؟
فهما الحياةُ، وكلُّ دُورِ ثقافةٍ … أَو دُورِ تعليمٍ هي الأَجسام
ما العلمُ ما لم يَصْنعاه حقيقةٌ … للطالبين، ولا البيانُ كلام
يا مِهرَجانَ العلمِ، حولك فرْحَةٌ … وعليك من آمال مِصرَ زِحام
ما أَشبهتْكَ مواسمُ الوادي، ولا … أَعيادُه في الدهر، وهْي عِظام
إلا نهارًا في بشاشة صُبحِهِ … قعد البُناةُ، وقامت الأَهرام

وأَطال «خوفو» من مواكبِ عِزِّه ... فـاهـتـزَّت الـرَّبَـواتُ، والآكـام
يُومِي بتاجٍ في الحضارة مُعْرِقٍ ... تـعْـنُـو الـجِـباهُ لـعِـزه، والـهـام
تاجٌ تنقَّلَ في العُصورِ مُعَظَّمًا ... وتـأَلَّـفـتْ دُوَلٌ عـلـيـه جِـسـام
لمَّا اضطلعتَ به مَشَى فيه الهدى ... ومـراشـدُ الـدسـتـورِ، والإسـلام
سَبقتْ مواكبُك الربيعَ وحُسْنَه ... فـالـنـيـلُ زهْـوٌ، والـضِّـفـافُ وِسـام
الجيزةُ الفيحاءُ هَزَّت منكبًا ... سـبـغ الـنـوالُ عـلـيـه والإنـعـام
لبست زخارفَها، ومشَّتْ طِيبَها ... وتـردّدتْ فـي أَيْـكـهـا الأَنـغـامُ
قد زدتها هَرمًا يُحَجُّ فِناؤه ... ويُـشَـدُّ لـلـدنـيـا إلـيـه حِـزام
تقفُ القرونُ غدًا على درجاتِه ... تُـمْـلـي الـثـنـاءَ، وتـكـتـبُ الأَيـام
أَعوامُ جهدٍ في الشبابِ، وراءَها ... من جـهـد خـيـرِ كـهـولـةٍ أَعـوام
بلغَ البناءُ على يديك تمامَهُ ... ولـكـل مـا تـبـنـي يـداك تـمـام

بَنْكُ مِصْر

«أُنْشِدَتْ في مجلس الاحتفال بوضع الحجر الأول في أساس «بنك مصر» في مايو ١٩٢٥».

نُراوَحُ بالحوادثِ، أَو نُغادَى ... ونُنكرُها، ونُعطيها القِيادا
ونحمَدُها وما رعتَ الضَّحايا ... ولا جزتِ المواقفَ والجِهادا
لحَاها اللهُ؛ باعَتنا خيالاً ... من الأَحلامِ، واشترتِ اتّحادا
مشيْنا أَمسِ نلقاها جميعًا ... ونحنُ اليومَ نلقاها فُرادَى[٦]
أَظلَّتْنا عن الإصلاح، حتى ... عَجَزْنا أَن نُناقشَها الفسادا
تُلاقِينا، فلا نَجِدُ الصياصي ... ونَلقاها، فلا نجدُ العَتادا[٧]
ومَنْ لَقِيَ السِّباعَ بغيرِ ظفرٍ ... ولا نابٍ تمزَّقَ أَو تفادَى
خَفضنا من عُلُوِّ الحقِّ حتى ... تَوهَّمنا السيادةَ أَن نُسادا
ولمَّا لم نَنلْ للسيفِ رَدًّا ... تنازعْنا الحمائلَ والنِّجادا
وأَقبلنا على أَقوالِ زورٍ ... تجيءُ الغَيَّ تَقلِبُهُ رَشادا
ولو عُدنا إِليها بعدَ قرْنٍ ... رَحمنا الطِّرْسَ منها والمِدادا

وكم سحرٍ سمعنا منذُ حينٍ ... تضاءَلَ بين أَعيُننا ونادى
هنيئًا للعدوِّ بكلِّ أَرضٍ ... إذا هو حلَّ في بلدٍ تَعادَى
وبُعدًا للسيادةِ والمعالي ... إذا قَطَعَ القرابةَ والوِدادا
وربَّ حقيقةٍ لابدَّ منها ... خدعْنا النشْءَ عنها والسَّوادا
ولو طلعوا عليها عالجوها ... بهمّةِ أَنفسٍ عَظُمت مُرادا
تُعِدُّ لحادثِ الأَيام صبَرًا ... وآونةً تُعِدُّ له عِنادا
وتخلِف بالنُّهى البيضَ المواضي ... وبالخُلق المثقَّقةَ الصِّعادا
لمحنا الحَظَّ ناحيةً، فلمَّا ... بلغناها أَحسَّ بنا، فحادا
وليس الحظُّ إلا عبقريًّا ... يُحبُّ الأَرْيَحِيَّةَ، والسَّدادا
ونحن بنو زمانٍ حُوَّليٍّ ... تَنَقَّلَ تاجرًا، ومَشَى، ورَادا
إذا قعد العِبادُ له بِسوقٍ ... شَرى في السوق، أَو باع العبادا
وتُعجبه العواطفُ في كتابٍ ... وفي دمع المُشَخِّصِ ما أَجادا
يُؤَمِّننا على الدستورِ أَنَّا ... نَرى من خلفِ حَوْزَتِه فؤادا
أَبو الفاروقِ نرجوه لفضلٍ ... ولا نخشى لِما وَهبَ ارتدادا
ملأْنا باسمه الأَفواهَ فخرًا ... ولقَّبناه بالأَمسِ (المكادا)[8]
نُناجيه، فنسترعِي حكيمًا ... ونسأَله فنستجدي جَوَادَا
ولم يزلِ المحبَّبَ، والمفدَّى ... ومرهَمَ كلِّ جُرحٍ، والضِّمادا
تَدفَّق مَصْرفُ الوادي، فرَوَّى ... وصابَ غمامُهُ، فسقى، وجادا
دعا فتنافسَتْ فيه نُفوسٌ ... بمصرَ لكلِّ صالحةٍ تُنادَى
تُقدِّمُ عونَها ثِقةً ومالاً ... وأَحيانًا تُقدِّمُهُ اجتهادا
وأَقبلَ من شبابِ القومِ جمعٌ ... كما بنتِ الكهولُ بنَى، وشادا
كأَن جوانبَ الدارِ الخلايا ... وهم كالنحل في الدار احتشادا
فيا دارًا من الهِمَمِ العوالي ... سُقيتِ التِّبرَ، لا أَرْضَى العِهادا[9]
تأَنَّى حينَ أَسَّسَكِ ابنُ حربٍ ... وحينَ بنَى دعائمَكِ الشِّدادا
ولا تُرجَى المتانةُ في بناءٍ ... إذا البنَّاءُ لم يُعْطَ أَتِّئادا
بنى الدارَ التي كنّا نراها ... أَمانيَّ المخيَّل، أَو رُقادا
ولم يَبْعُدْ على نفسٍ مَرَامٌ ... إذا ركِبَتْ له الهِمَمَ البِعادا

ولم أَرَ بعدَ قدرتِه تعالى   كمَقدِرَةِ ابنِ آدمَ إن أَرادا
جرى والناسُ في ريب وشكٍّ   يَرومُ السَّبْقَ، فاخترقَ الجيادا
وعودِيَ دونَها حتى بَناها   ومن شأْنِ المجدِّدِ أَن يُعادى
يَهونُ الكيدُ مِنْ أَعدَى عدُوٍّ   عليكَ إذا الوليُّ سَعى وكادا
فجاءَت كالنهارِ إذا تجلَّى   عُلُوًّا في المشارقِ وانطيادا[١٠]
نصونُ كرائمَ الأَموالِ فيها   ونُنزِلها الخزائنَ والنِّضادا
ونُخرجُها، فتكسِبُ، ثُمَّ تأْوِي   رُجوعَ النَّحْل قد حُمِّلنَ زادا
ولم أَرَ مثلَها أَرضًا أغلَّتْ   وما سُقيَتْ، ولا طَعمَتْ سَمادا
ولا مُستوْدعًا مالاً لقومٍ   إذا رجعوا له أَدَّى وزادا
ومن عجبٍ نُثبِّتُها أُصولاً   وتِلك فروعُها تَغشَى البلادا
كأَنّ القُطْرَ من شوقٍ إليها   سَما قبلَ الأَساسِ بها عِمادا
ولو مَلكتْ كنوزَ الأَرضِ كفِّي   جَعلْتُ أَساسَها ماسًا ورادا
ولو أَن النجومَ عَنَتْ لحُكمي   فرشتُ النيِّراتِ لها مِهادا

دارُ بَنْك مصْرَ

«نظمها لتُنْشَدَ في حفلة افتتاح الدار الجديدة لبنك مصر في يونيو سنة ١٩٢٧»

نَبذَ الهوى، وصَحا من الأَحلامِ   شَرقٌ تنبَّهَ بعدَ طولِ مَنام
ثابَتْ سلامتُه، وأَقبل صَحْوُهُ   إلا بَقايا فَتْرَةٍ وسَقام
صاحتْ به الآجامُ: هُنْتَ! فلم يَنَمْ،   أَعَلى الهوانِ يُنامُ في الآجامِ؟
أُمَمٌ وراءَ الكهفِ جُهُدُ حَياتِهم   حركاتُ عيشٍ في سُكونِ حِمام
نفضوا العيونَ من الكرَى، واستأنفوا   سَفرَ الحياة، ورِحلةَ الأَيَّام
مَنْ ليس في رَكْبِ الزمانِ مُغَبِّرًا   فاعْدُدْهُ بين غوابرِ الأَقوام
في كلِّ حاضرةٍ وكلِّ قبيلةٍ   هِمَمٌ ذَهبْنَ يَرُمْن كلَّ مَرام
مِن كلِّ مُمتنعٍ على أَرسانِه   أَو جامعٍ يَعدو بنِصفِ لِجام
يا مِصْرُ، أَنتِ كِنانةُ اللهِ التي   لا تُستباحُ، ولِلكِنانةِ حامِ
استَقبِلي الآمالَ في غاياتها   وتأَمَّلِي الدُّنيا بطَرْفٍ سام

وخُذِي طَريفَ المجدِ بعدَ تَليدِه   من راحتَيْ مَلِكٍ أَغرَّ هُمام
يُعْنَى بِسُؤْدد قومِه، وحُقوقِهم   ويَذودُ دونَ حِياضِهم، ويُحامى
ما تاجُكِ العالي، ولا نُوَّابُه   بالحانِثين إليكِ في الإِقسام
جَرَّبْتِ نُعْمَى الحادثاتِ وبُؤسَها   أَعَلِمْتِ حالاً آذَنَتْ بدوامِ؟
عَبَسَتْ إِلينا الحادثاتُ، وطالما   نَزَلَتْ فلم نُغْلَبْ على الأَحلام
وَثَبَتْ بقومٍ يَضْمِدون جِراحَهم   ويُرَقِّدون نَوازِيَ الآلام
الحقُّ كلُّ سلاحِهم وكفاحِهم   والحقُّ نِعْمَ مُثَبِّتُ الأَقدام
يَبنون حائطَ مُلْكِهم في هُدنَةٍ   وعلى عواقبِ شِحنَةٍ وخِصام
قلْ للحوادث: أَقدِمي، أَو أَحجِمي   إِنَّا بَنو الإقدامِ والإِحجام
نحن النيامُ إذا الليالي سالَمَتْ   فإِذا وَثَبْنَ فنحنُ غيرُ نيام
فينا من الصبرِ الجميلِ بقيّةٌ   لحوادثٍ خَلْفَ الغُيوبِ جِسام
أَين الوُفودُ المُلتقونَ على القِرَى   المُنزَلون مَنازلَ الأكرامِ[١١]
الوارثون القُدْسَ عن أَحبارِه   والخالِفونَ أُميَّةً في الشَّام؟
الحامِلو الفُصْحى ونورِ بيانِها   يَبنون فيه حضارةَ الإِسلام؟
ويُؤلِّفون الشرقَ في بُرْهانِها   لمَّ الضياءِ حَواشِيَ الإِظلام؟
تاقوا إِلى أَوطانِهم، فتحَمَّلوا   وهَوَى الديارِ وراءَ كلِّ غرام
ما ضرَّ لو حبَسوا الرَّكائبَ ساعةً   وثَنَوْا إِلى الفُسطاطِ فضلَ زمام؟
ليُضيف شاهدُهمْ إِلى أَيامِه   يومًا أَغرَّ مُلمَّحَ الأَعلام
ويرى ويَسمَعَ كيف عادَ حقيقةً   ما كان مُمتنِعًا على الأَوهامِ ...
... مِنْ هِمّةِ المحكومِ وهو مُكبَّلٌ   بالقيد، لا من هِمَّةِ الحكامِ
مِصرُ التقتْ في مِهرجان مُحمدٍ   وتجمَّعَتْ لتحيّةٍ وسلامِ[١٢]
هَزَّتْ مَناكبَها له، فكأَنه   عُرْسُ البيان، وموكبُ الأَقلام
وكأَنه في الفتح عَمُّورِيَّةٌ   وكأَنني فيه أَبو تمَّام[١٣]
أَسِمُ العصورَ بحسنِه، وأَنا الذي   يَرْوِي، فينتظمُ العصورَ كلامي
شرفًا محمدُ، هكذا تُبنى العلا: بالصبرِ آونةً، وبالإِقدام
هِمَمُ الرجالِ إِذا مضتْ لم يَثْنِها   خدعُ الثناءِ ولا عَوادي الذَّام
وتمامُ فضلِكَ أَن يَعيبَكَ حُسَّدٌ   يجدون نقصًا عندَ كلِّ تمَام

المالُ في الدنيا منازلُ نُقلةٍ — من أَين جئتَ له بدارِ مُقام؟!
فرفعتَ إيوانًا كرُكنِ النَّجمِ، لم — يُضرَبْ على كِسرى، ولا بَهرام
صَيَّرتَ طينتَه الخلودَ، وجئتَ مِنْ — وادي الملوكِ بجَنْدَلٍ ورَغام
هذا البناءُ العبقريُّ أَتى به — بيتٌ له فضل وحقٌّ ذِمام
كانت به الأَرقام تُدرَكُ حِسبةً — واليومَ جاوَز حِسْبَةَ الأَرقام
يا طالما شغف الظنونَ، وطالما — كثر الرجاءُ عليه في الإلمام
ما زلتَ أَنتَ وصاحباك بِركنه — حتى استقام على أَعزِّ دِعامِ
أَسَّسْتُمو بالحاسدين جِدارَه — وبنيتمو بمعاوِل الهدَّام
شَركاتُك الدنيا العريضةُ لم تُنَل — إلا بطول رعايةٍ وقيام
اللهُ سخَّر للكنانةِ خازنًا — أَخذ الأَمانَ لها من الأَعوام
وكأَنَّ عهدَك عهدُ يوسُفَ: كلُّه — ظِلٌّ، وسُنْبُلةٌ، وقَطرُ غَمام
وكأَن مالَ المودِعين وزرعَهم — في راحتيْك ودائعُ الأَيتام
ما زلتَ تَبني رُكنَ كلِّ عظيمةٍ — حتى أَتيتَ برابع الأَهرام

دَارُ العُلوم[1]

«أنشدت في الاحتفال الخمسيني لدار العلوم، بمسرح حديقة الأزبكية، في يوليو سنة ١٩٢٧»

اتَّخذتِ السماءَ يا دارُ رُكنا — وأَوَيْتِ الكواكبَ الزُّهْرَ سَكْنا
وجمعتِ السعادتين، فباتت — فيك دُنيا الصلاحِ للدين خِدنا
نادَمَا الدهرَ في ذَراكِ، وفَضَّا — من سُلاف الودادِ دَنًّا فدَنَّا
وإذا الخُلْقُ كان عِقْدَ ودادٍ — لم ينل منه مَنْ وَشى وتَجنَّى
وأَرى العلمَ كالعبادة في أَبـ — ـعدِ غاياتِه: إلى الله أَدنى
واسعَ الساحِ، يرسل الفِكْرَ فيها — كلُّ مَن شكَّ ساعةً أَو تَظنَّى

[1] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

هل سألنا أَبا العلاءِ وإن قلَّـ ـب عينًا في عالم الكونِ وَسْنَى
كيف يَهْزا بخالق الطيرِ مَنْ لم يَعلم الطيرَ؛ هل بكى أَو تغنَّى؟
أَنتِ كالشمس رفرفًا، والسماكيْـ ـنِ رِواقًا، وكالمَجَرَّة صَحْنا
لو تَسَتَّرْتِ كنتِ كالكعبة الغرَ اءِ ذيلاً من الجلال ورُدْنا
إن تكن للثواب والبِرِّ دارًا أَنت للحق والمراشدِ مَغْنَى
قد بلغتِ الكمال في نصف قرنٍ كيف إن تمّت الملاوة قَرنا؟!
لا تَعُدِّي السنينَ إن ذُكر العـ ـلمُ؛ فما تعلمين للعلم سِنّا
سوف تفنى في ساحَتَيْكِ الليالي وهْوَ باقٍ على المدى ليس يفنى
يا عكاظًا حوى الشبابَ فِصاحًا قَرَشِيِّين في المجامع، لُسْنا
بَثُّهُمْ في كنانة اللهِ نورًا مِن ظلام على البصائر أَخْنَى
علَّموا بالبيانِ، لا غُرباءَ فيه يومًا؛ ولا أَعاجمَ لُكْنا
فتيةٌ محسنون، لم يُخْلِفوا العـ ـلمَ رجاءً، ولا المعلِّمَ ظَنًّا
صَدَعوا ظُلمةً على الريف حَلَّتْ وأَضاءُوا الصعيدَ سهلاً، وحَزْنا
مَنْ قضى منهمُ تَفَرَّق فِكرًا في نُهَى النَّشْءِ، أَو تَقَسَّم ذِهنا
نادِ دارَ العلوم إن شئتَ: «يا عا ئش»، أَو شئتَ نادها: «يا سُكيْنا»
قل لها: يا ابنةَ «المباركِ»[14] إيهٍ قد جَرَتْ كاسمه أُمورُكِ يُمْنا
هو في المهرجان حَيٌّ شهيدٌ يَجْتَلِي غرْسَ فضلِه كيف أَجنَى
وهْوَ في العُرْسِ — إن تحجَّبَ، أَو لم يَحْتَجِب — والدُ العروسِ المُهنّا
ما جرى ذكرُه بناديكِ حتى وقف الدمعُ في الشئون فأَثنى
رُبَّ خيرٍ مُلِئتَ منه سُرورًا ذَكَّر الخيِّرين فاهتجتَ حُزْنا
أَدَرَى إذ بناك أَنْ كان يبني فوق أَنف العدو للضاد حِصنًا؟
حائطُ الملكِ بالمدارس إن شِئْـ ـتَ، وإن شِئْت بالمعاقل يُبنى
انظر الناس، هل ترى لحياةٍ عُطلِّتْ من نَباهَةِ الذكرِ مَعنى؟
لا الغنى في الرجال ناب عن الفضـ ـلِ وسلطانِه، ولا الجاهُ أَغنى
رُبَّ عاثٍ في الأَرض لم تجعل الأَر ضُ له إن أَقام أَو سار وَزنا
عاش لم ترْمِهِ بعينٍ، وأَودى هَمَلاً لم تهَب لناعِيه أُذْنا
نظمَ اللهُ مُلكَه بعبادٍ عبقريِّين أَورَثوا المُلكَ حُسنا

شغلتهم عن الحسود المعالي ... إنما يُحسَدُ العظيمُ ويُشنا
من ذكيِّ الفؤادِ يورِثُ علمًا ... أو بديعِ الخيالِ يخلُق فنًّا
كم قديمٍ كرُقعةِ الفنِّ حرٍّ ... لم يُقلِّل له الجديدان شأنا
وجديدٍ عليه يختلف الدهــ ... ــرُ، ويفنى الزمانُ قرنًا فقرنا
فاحتفظ بالذخيرتين جميعًا ... عادةُ الفَطْنِ بالذخائر يُعنى
يا شبابًا سَقوْنِيَ الوُدَّ مَحْضًا ... وسقوا شانئي على الغِلّ أَجْنا
كلَّما صار للكهولة شِعري ... أَنشَدوه، فعاد أَمْرَدَ لدْنا
أُسرةُ الشاعرِ الرُّواةُ، وما عَنَّــ ... ــوْهُ، والمرءُ بالقريب مُعَنَّى
هم يضنُّون في الحياة بما قا ... ل، ويُلفَوْنَ في الممات أَضنَّا
وإذا ما انقضى وأَهْلُوهُ لم يَعــ ... ــدَم شقيقًا من الرُّواة أَو ابْنا
النبوغَ النبوغَ حتى تنُصُّوا ... رايةَ العلم كالهلال وأَسنَى
نحن في صورة الممالكِ ما لم ... يُصْبِحِ العلمُ والمعلِّمُ مِنّا
لا تنادوا الحصونَ والسُّفنَ، وادْعُوا العــ ... ــلمُ يُنشئْ لكم حصونًا وسُفْنا
إنّ رَكْبَ الحضارةِ اخترق الأَرْ ... ضَ، وشقّ السماءَ ريحًا ومُزْنا
وصَحِبْناه كالغبارِ، فلا رَجْــ ... ــلاً شدَدْنا، ولا رِكابًا زمَمْنا
دان آباؤنا الزمانَ مَلِيًّا ... ومَلِيًّا لحادثِ الدهر دِنَّا!
كم نُباهِي بلحْدِ مَيْتٍ؟ وكم نحــ ... ــملُ من هادمٍ ولم يَبنِ مَنّا؟!
قد أَنَى أَن نقول: «نحن»، ولا نســ ... ــمع أَبناءَنا يقولون: «كُنَّا»!

إِسْكَنْدَرِيَةُ آنَ أَنْ تَتَجَدَّدِي

«نظمها لحفلة افتتاح دار جديدة لبنك مصر في الإسكندرية، في يونيو سنة ١٩٢٩»

أَمسِ انقضى، واليومُ مِرْقاةُ الغدِ ... إسكَنْدَرِيَّةُ، آن أن تتجَدَّدِي
يا غرَّةَ الوادي وسَدَّةَ بابِه ... رُدِّى مكانَكِ في البريةِ يُرْدَدِ
فيضي كأَمسِ على العلوم من النُّهى ... وعلى الفنونِ من الجمالِ السَّرْمَدِي
وسِمِي النَّبالَةَ بالملاحِمِ تتَّسِمْ ... وسِمِي الصَّبَابةَ بالعواطف تخلُدِ
وضعِي رواياتِ الخلاعةِ والهوى ... لممثِّلين من العصورِ، وشُهَّدِ
لا تجعلي حُبَّ القديمِ وذكرَه ... حسراتِ مِضياعٍ، ودفعَ مُبَدِّدِ

إنَّ القديمَ ذخيرةٌ من صالحٍ ... تبني المقصِّرَ، أَو تحثُّ المقتدي
لا تفْتَتِنْكِ حضارةٌ مَجلوبةٌ ... لم يُبنَ حائطُها بمالِكِ واليَدِ
لو مالَ عنكِ شِراعُها وبُخارُها ... لم يبقَ غيرُ الصَّيْدِ والمتصيِّد
وُجِدَتْ وكان لغيرِ أَهلِكِ أَرضُها ... وسماؤها، وكأَنها لم توجَد
جاري النزيلَ، وسابقيه إلى الغنَى ... وإلى الحِجا، وإلى العُلا والسُّؤدَدِ
وابني كما يبني المعاهدَ واشرعي ... لشبابِك العرفانَ عذْبَ المورْد
إنـي حَذِرتُ عليك من أَمِّيةٍ ... رَبَضتْ كجُنْحِ الغيهَب المتلبِّدِ
أَخزانةَ الوادي، عليكِ تحيَّةٌ ... وعلى النَّدِيِّ وكلِّ أَبلَجَ في النَّدِي
ما أَنتِ إلا من خزائنِ يوسفٍ ... بالقصدِ، موحِيَةٌ لمن لم يقصِدِ
قُلِّدْتِ من مال البلادِ أَمانةً ... يا طالما افتقرَتْ إلى المتقلِّد
وبَلغْتِ من إيمانِها ورجائِها ... ما يبلغُ المحرابُ من مُتعبِّد
فلوَ أَنَّ أَستارَ الجلالِ سَعَتْ إلى ... غيرِ العتيقِ لبِسْتِ مما يَرتدي
إنا نُعَظِّمُ فيكِ أَلوِيَةً على ... جَنبَاتِها حَشْدٌ يَروح ويَغْتدِي
وإذا طعِمْتَ من الخلِيَّةِ شهْدَها ... فاشهَدْ لقائدها وللمُتجَنِّد
لا تمنحِ المحبوبَ شُكرَك كلَّه ... واقرنْ به شكرَ الأَجيرِ المُجهَد
إسكَندَرِيَّةُ شُرِّفتْ بعِصابةٍ ... بيضِ الأَسِرَّةِ، والصحيفةِ، واليد
خدموا حِمى الوطنِ العزيزِ، فبورِكوا ... خدَمًا، وبورك في الحمى مِن سَيِّد
ما بالُ ذاك الكوخِ صَرَّحَ وانجلَى ... عن حائطَي صَرْحٍ أَشَمَّ مُمرَّد؟
مِن كسْرِ بيتٍ، أَو جِدارِ سَقِيفةٍ ... رَفع الثباتُ بِنايةً كالفرْقَد
فإذا طلعتَ على جلالةِ رُكنِها ... قلْ: تِلك إحدى مُعجزات (محمد)[١٥]

فِتْيَةَ الْوادِي عَرَفْنا صَوْتَكُمْ

«يُخاطب الشاعر بهذه القصيدة شباب مصر الذين نهضوا بمشروع القرش سنة ١٩٣٢، وهي آخر ما جادت به شاعريته، وكانت تلاوتها يوم وفاته!»

لا يُقِيمَنَّ على الضَّيْمِ الأَسَدْ ... نزعَ الشِّبلْ من الغابِ الوتدِ
كبرَ الشِّبلُ، وشبَّتْ نابُه ... وتغطَّى مَنْكِباه باللِّبَد

اترُكوه يَمْشِ في آجامِه ... ودَعوه عن حِمَى الغابِ يَذُد
واعرضوا الدنيا على أَظفارِه ... وابعثوه في صحاراها يَصِد
فِتيةَ الوادي، عَرَفْنا صَوْتكم ... مَرْحبًا بالطائرِ الشادِي الغَرِد
هو صوتُ الحقِّ، لم يَبْغِ، ولم ... يَحمِل الحقدَ، ولم يُخْفِ الحَسَد
وخلا من شهوةٍ ما خالطت ... صالحًا من عملٍ إلا فسَد
حَرَّك البلبلُ عِطفيْ رَبْوَةٍ ... كان فيها البومُ بالأَيْكِ انفرَد
زَنْبَقُ المُدْن، ورَيحانُ القُرَى ... قام في كلِّ طريقٍ وقَعد
باكِرًا كالنَّحل في أَسرابها ... كلُّ سِربٍ قد تلاقى واحتشد
قد جَنى ما قلَّ من زهْر الرُّبا ... ثم أَعطى بَدَل الزهر الشُّهُد
بَسَط الكفَّ لمن صادفَه ... ومَضى يَقْصُرُ خطْوًا ويُمُدّ
يجعلُ الأَوطانَ أُغنِيَّتَه ... ويُنادِي الناسَ: مَنْ جادَ وجَد
كلَّما مرَّ ببابٍ دَقَّه ... أَو رأَى دارًا على الدرب قصَدْ
غاديًا في المدْنِ، أَو نحوَ القرى ... رائحًا يسأَلُ قِرشًا للبلد
أَيُّها الناسُ، اسمعوا، أصغوا له ... أَخرجوا المال إِلى البِرِّ يَعُدْ
لا ترُدُّوا يَدَهم فارغةً ... طالبُ العوْن لمصرٍ لا يُرَدّ
سيَرى الناسُ عجيبًا في غدٍ ... يغرسُ القرشُ، ويَبني، ويَلِدْ
يُنهِض اللهُ الصناعاتِ به ... من عِثارٍ لبثتْ فيه الأَبد
أَو يَزيد البرَّ دارًا قعدتْ ... لكفاح السُّلِّ، أَو حربِ الرَّمد
وهْوَ في الأَيدي، وفي قدرتِها ... لم يَضِقْ عنه ولم يَعجِزْ أَحد
تلك مصرُ الغدِ تبني مُلكها ... نادت الباني وجاءَت بالعُدَدْ
وعلى المالِ بَنتْ سلطانَها ... ثابتَ الآساسِ مرفوعَ العَمَد
وأَصارتْ بنكَ مصرٍ كهفها ... حبَّذا الركنُ وأَعظِمْ بالسند
مَثَلٌ مِن هِمَّةٍ قد بَعُدَتْ ... ومداها في المعالي قد بَعُد
ردَّها العصرُ إِلى أسلوبِه ... كلُّ عصرٍ بأَساليبَ جُدُد
البنونَ استنهضوا آباءَهم ... ودعا الشبلُ من الوادي الأسد
أَصبحت مصرُ، وأَضحى مجدُها ... هِمَّةَ الوالدِ، أَو شُغلَ الولد
هذه الهِمَّةُ بالأَمس جَرَتْ ... فحَوَتْ في طلب الحقِّ الأَمد

أَيُّها الجيلُ الذي نرجو لِغدْ   غدْك العِزُّ، ودنياك الرَّغد
أَنت في مَدْرَجَةِ السَّيلِ، وقد   ضلَّ مَنْ في مَدْرَجِ السيلِ رَقد
قدْت في الحقِّ، فقدْ في مثلهِ   من نواحي القصدِ أَو سُبْل الرشد
رُبَّ عامٍ أَنت فيه واجدٌ   فادَّخرْ فيه لعامٍ لا تجِدْ
علِّمِ الآباءَ، واهتف قائِلاً:   أَيُّها الشعبُ، تَعاوَنْ واقتصِد
اجمعِ القرشَ إِلى القرشِ يكنْ   لك من جمعهِما مالٌ لُبَدْ
اطلبِ القطنَ، وزاوِلْ غيرَه   واتَّخذْ سوقًا إِذا سُوقٌ كَسَدْ
نحن قبل القطن كنَّا أُمّةً   تهبِط الوادي، وتَرْعى، وتَرِدْ
قد أخذنا في الصناعات المَدَى   وبَنَيْنا في الأَوالِي ما خَلَد
وغَزلنا قبلَ إِدريسَ الكُسا   ونسجْنا قبلَ داوُدَ الزَّرَد
إِن تكُ اليومَ لواءً قائدًا   كم لواءٍ لك بالأَمسِ انعقد!

عِيدُ الْجِهَاد[٢]

«نظمها احتفالاً بعيد الجهاد الوطني في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦»

خَطَوْنا في الجِهادِ خُطًا فِساحَا   وهادَنَّا، ولم نُلقِ السِّلاحَا
رَضينا في هوى الوطنِ المفدَّى   دمَ الشهداءِ والمالَ المُطاحا
ولمّا سُلَّت البِيضُ المواضي   تقلَّدْنا لها الحقَّ الصُّراحا
فحطَّمْنا الشَّكيمَ سِوَى بقايا   إِذا عَضَّتْ أَرَيْناها الجِماحا
وقمنا في شِراعِ الحق نَلْقَى   وندفع عن جوانبه الرِّياحا
نُعالِج شِدَّةً، ونَروض أُخرى   ونسعى السعَي مشروعًا مباحا
ونستولي على العقبات إلا   كَمِينَ الغيبِ والقَدَرَ المُتاحا
ومَنْ يَصبِرْ يَجِدْ طولَ التمنِّي   على الأَيام قد صار اقتراحا
وأَيامٍ كأَجواف الليالي   فقَدْنَ النجمَ والقمرَ اللِّياحا

---

[٢] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

قضيناها حِيالَ الحربِ نخشى ... بقاءَ الرِّق، أَو نرجو السَّراحا
تَرَكْنَا النـاسَ بالوادي قعودا ... من الإِعياءِ كالإبل الرَّزاحى
جنود السِّلْم لا ظَفَرٌ جَزاهم ... بما صبروا، ولا موتٌ أَراحا
ولا تلْقى سوى حيٍّ كَميْتٍ ... ومنزوف وإِن لم يُسْقَ راحا
ترى أَسْرَى وما شهدوا قِتالاً ... ولا اعتَقلوا الأَسِنَّةَ والصِّفاحا
وجَرْحَى السَّوْطِ لا جَرْحَى المواضي ... بما عمل الجواسيسُ اجتراحا
صباحُك كان إِقبالاً وسعدًا ... فيا يومَ الرِّسالةِ، عِمْ صبَاحا
وما تألوا نهارَكَ ذكرياتٍ ... ولا برهانَ عِزَّتِك التِماحا
تكاد حِلاك في صفحات مصرٍ ... بها التاريخُ يُفتتح افتتاحا
جلالُك عن سَنا الأَضحى تَجلَّى ... ونُورُك عن هلالِ الفطر لاحا
هما حقٌّ، وأَنت مُلِئْتَ حقًّا ... ومَثَّلْتَ الضحيَّةَ والسَّماحا
بَعثنا فيك «هارونًا وموسى» ... إلى «فرعونَ» فابتَدَآ الكفاحا[١٦]
وكان أَعزَّ مِن رُوما سيوفًا ... وأَطغى من قياصرِها رماحا
يكاد من الفتوح وما سَقَتْهُ ... يَخالُ وراءَ هيكلِه «فِتاحا»
ورُدَّ المسلمون فقيل: خابوا ... فيا لَكِ خيبةً عادت نجاحا!
أَثارت واديًا من غايَتَيْه ... ولامَتْ[١٧] فُرْقةً وأَسَتْ جِراحا
وشَدَّتْ مِن قُوَى قَومٍ مِراضٍ ... عزائمهم فردَّتْها صِحاحا
كأَن بِلالَ نُودِيَ: قُمْ فأَذِّنْ ... فرَجَّ شِعابَ مكةَ والبِطاحا
كأَن الناس في دينٍ جديدٍ ... على جنباته استبَقوا الصلاحا
وقد هانت حياتُهُمُ عليهم ... وكانوا بالحياةِ هُمُ الشِّحاحا
فتسمع في مآتمهم غِناءً ... وتسمع في ولائمهم نُواحا
حَواريِّينَ أَوفَدْنا ثِقاتٍ ... إذا تُرِكَ البلاغُ لهم، فِصاحا
فكانوا الحقَّ منقبضًا حَييًّا ... تحدَّى السيفَ مُنصلِتا وَقاحا
لهم مِنَّا براءَةُ أَهلِ بدرٍ ... فلا إِثمًا نَعُدُّ ولا جُناحا
ترى الشَّحناءَ بينهمو عِتابًا ... وتحسب جِدَّهم فيها مُزاحا
جعلنا الخلدَ منزلَهم، وزدنا ... على الخلدِ الثناءَ والامتداحا
يمينًا بالتي يُسَعَى إِليها ... غُدُوًّا بالندامة، أَو رَوَاحا

وتَعبَقُ في أنوف الحجِّ رُكنًا   وتحتَ جِباهِهم رَحْبًا، وساحا
وبالدستور، وهُوَ لنا حياةٌ   نرى فيه السلامةَ والفلاحا
أَخذناه على المُهَجِ الغوالي   ولم نأخذه نيلاً مُستماحا
بنينا فيه من دمعٍ رِواقًا   ومن دمٍ كلِّ نابتةٍ جناحا ...
... لما ملأَ الشبابَ كروح سعدٍ   ولا جعل الحياةَ لهم طِمَاحا
سَلوا عن القضيةَ، هل حَماها   وكان حِمى القضيةِ مُستباحا؟
وهل نظم الكهولَ الصِّيدَ صَفًّا   وأَلَّف من تجارِبهم رَداحا؟
هو الشيخُ الفتِيُّ، لو استراحت   من الدأَب الكواكبُ ما استراحا
وليس بذاقِ النومِ اغتباقًا   إِذا دار الرقادُ، ولا اصطِباحا
فيا لَكَ ضَيْغَمًا سهِر الليالي   وناضل دونَ غايتِه، ولاحَى
ولا حَطَمَتْ لك الأَيامُ نابًا   ولا غَضَّت لك الدنيا صِياحا

مَعَالِي الْعَهْد

«نظمها في ميلاد الأمير السابق محمد عبد المنعم»

مَعالي العهدِ قُمْتَ بها فَطِيما   وكانَ إِليكَ مرجِعُها قديما
تنقَّلْ من يدٍ لِيدٍ كريما   كرُوحِ الله إِذ خلفَ «الكَلِيما»[١٨]
تنَحَّى لابنِ مريمَ حينَ جاءَ   وخلَّى النَّجْمُ لِلقَمَرِ الفَضاءَ
ضياءٌ لِلعيون تَلا ضياءَ   يَفيضُ مَيامِنًا، وهُدًى عَميما
كذا أَنتم بَنِي البيتِ الكريمِ   وهل مُتَجَزِّئٌ ضوْءُ النُّجومِ؟
وأَين الشُّهْبُ من شرفٍ صَميمِ   تأَلَّقَ عِقدُهُ بِكُمُو نَظيما؟
أَرى مُستقبَلاً يَبدو عُجَابا   وعُنوانًا يُكِنُّ لنا كتابا
وكان «محمدٌ» أَملاً شِهابا   وكان اليأْسُ شيطانًا رَجيما
وأَشرقتِ (الهياكِلُ) والمباني   كما كانت وأَزينَ في الزمانِ
وأَصبحَ ما تُكِنُّ من المعاني   على الآفاق مَسطورًا رَقيما
سأَلتُ، فقيل لي: وضَعَتْهُ طِفلا   وهذا عِيدُهُ في مِصْرَ يُجْلَى
فقلت: كذلِكم آنَسْتُ قَبْلا   وكان اللهُ بالنجوَى عليما

(بمُنْتَزَهِ) الإمارةِ هلَّ فجرَا	هِلالاً في منازِلِه أَغَرّا
فباتت مِصرُ حوْلَ المهدِ (ثَغْرَا)	وباتَ الثَّغرُ للدنيا نديما
لِجيلِكَ في غدٍ جيلِ المعالي	وشَعْبِ المجدِ والهِمَمِ العوالي ...
... أَزُفُّ نوابغَ الكَلِمِ الغَوالي	وأُهدِي حكمتي الشَّعْبَ الحكيما
إذا أَقبلتَ يا زمنَ البنينا	وشَبُّوا فيك واجتازوا السنينا
فدُرْ مِنْ بَعدِنا لهُمُو يَمينا	وكن لوُرودِك الماءَ الحميما
ويا جيلَ الأَميرِ، إذا نَشَأْتا	وشاءَ الجَدُّ أَن تُعطي، وشِئتا
فخذْ سُبُلاً إلى العلياءِ شَتَّى	وخَلِّ دَلِيلَكَ الدينَ القويما
وضِنَّ به؛ فإن الخير فيه	وخُذْهُ من الكتابِ وما يَليهِ
ولا تأخُذْهُ من شَفَتَيْ فقيهِ	ولا تَهجُرْ مع الدين العُلوما
وثِقْ بالنَّفْسِ في كلِّ الشّئونِ	وكن مما اعتقدتَ على يَقين
كأَنك من ضميرِك عند دِين	فمن شَرفِ المَبادئ أَن تُقيما
وإن تَرُمِ المظاهرَ في الحياةِ	فرُمْها باجتهادِك والثباتِ
وخُذها بالمساعي باهراتِ	تُنافِسُ في جلالتها النجوما
وإن تَخرُجْ لحربٍ أَو سلامِ	فأَقدِمْ قبلَ إقدامِ الأَنام
وكن كالليث: يَأْتي من أَمامِ	فيَمْلأ كلَّ ناطِقةٍ وُجُوما
وكنْ شَعْبَ الخصائِصِ والمزايا	ولا تَكُ ضائعًا بينَ البَرَايا
وكن كالنحلِ والدُنيا الخلايا	يمرُّ بها، ولا يَمضِي عَقيما
ولا تطمحْ إلى طَلَبِ المُحالِ	ولا تقنعْ إلى هجرِ المعالي
فإن أَبطأَنَ فاصبرْ غيرَ سالِ	كصبرِ الأَنبياءِ لها قديما
ولا تقبَلْ لغير اللهِ حُكما	ولا تحمِل لغيرِ الدهرِ ظُلما
ولا تَرْضَ القليلَ الدُّونَ قِسْما	إذا لم تَقدرِ الأَمرَ المروما
ولا تيأَسْ، ولا تكُ بالضَّجُور	ولا تثِقَنَّ من مَجرَى الأُمورِ
فليسَ مع الحوادثِ من قديرِ	ولا أَحدٌ بما تأْتي عليما
وفي الجُهّالِ لا تَضَع الرجاءَ	كوَضع الشمْسِ في الوَحَلِ الضيَّاءَ
يَضيعُ شُعاعُها فيه هَباءَ	وكان الجهلُ ممقوتًا ذَميما
وبالِغِ في التدَبُّرِ والتَحرِّي	ولا تَعجَلْ، وثِق من كلِّ أَمر

وكن كالأُسْدِ: عند الماءِ تجرِي   وليست وُرَّدًا حتى تَحوما

وما الدنيا بمثوىً للعبادِ   فكن ضَيْفَ الرِّعاية والوِدادِ

ولا تَستَكثِرَنَّ من الأَعادي   فشَرُّ الناسِ أكثرُهم خُصوما

ولا تجعلْ تودُّدَكَ ابتِذَالا   ولا تسمَحْ بحلمِك أَن يُذالا

وكن ما بين ذاك وذاك حالا   فلن تُرضِي العدُوَّ ولا الحميما

وصلِّ صلاةَ من يَرْجُو ويَخْشَى   وقبلَ الصَّوْمِ صُمْ عن كلِّ فَحْشا

ولا تَحسب بأَن الله يُرشَى   وأَن مُزَكِّيًا أَمِنَ الجحيما

لكلِّ جَنًى زكاةٌ في الحياةِ   ومعنى البِرِّ في لفظِ الزكاة

وما لله فينا من جُباةِ   ولا هو لامْرِئٍ زكَّى غَريما

فإن تكُ عالمًا فاعمل، وفَطِّنْ   وإن تك حاكما فاعدِلْ، وأَحسِنْ

وإن تك صانعًا شيئًا فأَتقِنْ   وكن للفرْضِ بعدئذٍ مُقيما

وصُنْ لغةً يَحِقُّ لها الصِّيانُ   فخيرُ مظاهِرِ الأممِ البَيَانُ

وكان الشعبُ ليس له لِسانُ   غريبًا في مواطِنِه مَضِيما

أَلم تَرَها تُنالُ بكل ضَيْرِ   وكان الخيرُ إذ كانت بخير؟

أَيَنطِقُ في المَشَارقِ كلُّ طيرِ   ويَبقى أَهلُها رَخَمًا وبُوما؟!

فعلِّمْها صغيرَك قبلَ كلِّ   ودعْ دَعْوَى تَمَدُّنهم وخَلِّ

فما بالعِيِّ في الدنيا التَّحَلِّي   ولا خَرَسُ الفتى فضلاً عظيما

وخُذ لغةَ المُعاصِرِ، فهْيَ دنيا   ولا تجعل لِسانَ الأَصلِ نسْيَا

كما نقلَ الغرابُ فضَلَّ مَشْيا   وما بلغَ الجديدَ، ولا القديما

لجيلِك يومَ نشأَتِه مَقالي   فأَما أَنتَ يا نجلَ المعالي

فتنظرُ من أَبيكَ إلى مِثال   يُحيِّرُ في الكمالات الفُهوما

نصائحُ ما أَردتُ بها لأَهدِي   ولا أَبغي بها جَدْواكَ بَعْدي

ولكنِّي أُحِبُّ النَّفْعَ جهدي   وكان النفعُ في الدنيا لزوما

فإن أُقْرِئْتَ — يا مولايَ — شِعري   فإن أَباك يَعرِفُه ويَدْرِي

وجَدُّكَ كان شأْوِي حينَ أَجرِي   فأصرَعُ في سوابِقِها (تَميما)

بنونا أَنتَ صُبْحُهُمُو الأَجَلُّ   وعهدُكَ عِصْمَةٌ لهمو وظِلُّ

فلِمْ لا نَرْتَجيكَ لهم وكلٌّ   يعيشُ بأَنْ تعيش وأَن تَدوما؟

رسَالَةُ النَّاشِئَة

«أهداها إلى الأمير السابق محمد عبد المنعم»

أَحمدُك اللهَ وأُطْرِي الأَنبياءْ … مَصْدَرَ الحِكمةِ طُرًّا والضياءْ
وله الشكرُ على نُعمَى الوجودْ … وعلى ما نِلتُ من فضلٍ وَجَودْ
أُعْبُدِ اللهَ بعقلٍ يا بُنيّ … وبقلب من رجاءِ اللهِ حَيّ
أُرْجُه تُعْطَ مَقاليدَ الفَلَكْ … واخشَهُ خشْيَةَ مَنْ فيه هَلك
أُنظرِ المُلكَ، وأَكبِرْ ما خَلق … وتمتَّعْ فيه من خيرٍ رَزَق
أَنت في الكون مَحلُّ التَّكرِمَهْ … كلُّ شيءٍ لك عبدٌ أَو أَمَهْ
سُخِّرَ العالَمُ من أَرضٍ وماءْ … لكَ، والريحُ، وما تحتَ السَّماءْ
أُذكرِ الآيةَ إذ أَنتَ جَنينْ … لك في الظلمةِ للنورِ حَنينْ
كلَّ يومٍ لك شأْنٌ في الظُّلَمْ … حار فيه كلُّ «بقراطٍ» عَلَمْ
كان في جَنبِكَ شيءٌ من عَلقْ … حينَ مَسَّتْهُ يدُ اللهِ خفَقْ
صار حِسًّا وحياةً بعدَ ما … كان في الأَضلاع لحمْا ودما
دقَّ كالناقُوسِ وَسْطَ الهَيْكل … في انتفاضٍ كانتفاضِ البُلبُل
قلْ لمن طَبَّبَ، أَو مَنْ نَجَّمَا: … صَنَعَةُ اللهِ، ولكن زِغْتُما
آمنا باللهِ إيمانَ العَجُوزْ … إن غيرَ اللهِ عقلاً لا يَجوزْ
أَيُّها الطالبُ للعِلمِ استمعْ … خيرَ ما في طلب العلم جُمِعْ
هُوَ إن أُوتِيتَهُ أَسْنَى النِّعَمْ … هل تَرى الجُهّالَ إلا كالنَّعَم؟
أُطلبِ العلمَ لِذاتِ العِلم، لا … لظهورٍ باطلٍ بينَ المَلا
عندَ أَهلِ العلمِ للعلم مَذاقْ … فإذا فاتكَ هذا فافتراقْ
طلبُ المحرومِ للعلمِ سُدَى … ليس للأَعمى على الضوءِ هُدى
فإذا فاتَكَ توفيقُ العليمْ … فامتنعْ عن كل تحصيل عَقيم؛
واطلبِ الرزقَ هنا أَو هاهُنا … كم مَعَ الجهل يَسارٌ وغِنَى!
كل ما علَّمَكَ الدهرُ اعلَمِ … التجاريبُ علومُ الفَهِمِ
إنما الأَيامُ والعيشُ كِتابْ … كلَّ يومٍ فيه للعِبرةِ بابْ
إن رُزقتَ العلمَ زِنْهُ بالبيانْ … ما يُفيدُ العقلُ إن عَيَّ اللسانْ

كم عليمٍ سَقط العِيُّ به / مُظلمٌ لا تَهتَدِي في كُتْبِهِ
وأَديبٍ فاتهُ العلمُ فما / جاءَ بالحكمةِ فيما نَظَما
إن للعلمِ جميعًا فلسفهْ / مَنْ تَغِبْ عنه تَفُتْهُ المعرفة
اقرإِ التاريخَ إذْ فيه العِبَرْ / ضاعَ قومٌ ليس يَدرون الخبر
كن إلى الموتِ على حُبِّ الوطنْ / مَنْ يَخُنْ أَوطانه يومًا يُخَنْ
وطنُ المرءِ حماهُ المفتدَى / يذكرُ المِنَّةَ منه واليَدَا
قد عرفتَ الدارَ والأَهلَ به / كلُّ حُبٍّ شُعْبةٌ من حُبِّهِ
هو محبوبُك بادٍ محتجِبْ / يعرفُ الشوقَ له مَنْ يَغتَرِبْ
لك منه في الصِّبا مَهدٌ رحيمْ / فإذا وُوريتَ فالقبرُ الكريمْ
كم عزيزٍ عندَكَ استْودَعْتَهُ / وعهودٍ بعدَكَ استَرْعَيْتَهُ
ودَفينٍ لك فيه كَرُما / تَذرِفُ الدمعَ لِذكْراهُ دَما
كن نشيطًا عاملاً جمَّ الأَملْ / إنما الصحةُ والرزقُ العملْ
كلُّ ما أَتقنتَ محبوبٌ وَجِيهْ / متقَنُ الأَعمالِ سِرُّ اللهِ فيه
يُقبِلُ الناسُ على الشيءِ الحسَنْ / كلُّ شيءٍ بجزاءٍ وثمنْ
اُنظُرِ الآثارَ، ما أَزْيَنَها! / قد حباها الخلدَ مَنْ أَتقنَها
تلك آثارُ بني مِصرَ الأُوَلْ / أتقَنُوا الصنعةَ حتى في الجُعَلْ
أَيُّها التاجرُ، بُلِّغتَ الأَرَبْ / طالعُ التاجرِ في حُسن الأَدب
بابُ حانوتِكَ بابُ الرازِقِ / لا تُفارقْ بابَهُ، أَو فارقِ
واحترِم في بابِه مَنْ دَخَلا / كلُّهم منه رسولٌ وصلا
تاجرُ القومِ صَدوقٌ وأَمينْ / لفظةٌ مِنْ فيه للقوم يَمينْ
إن للإقدامِ ناسًا كالأَسُدْ / فتَشبَّهْ؛ إنَّ مَنْ يُقْدِمْ يَسُدْ
مِنهموا كلُّ فتًى سادَ وشادْ / منهمو «إسكندرٌ» و«ابنُ زياد»
وشجاعُ النفسِ منهم في الكروبْ / كشجاع القلبِ في وقتِ الحروبْ
وَابلٌ «سُقراطُ» والشُّجْعَانُ طلّ / إنما مَن يَنْصُرُ الحقَّ البَطَلْ
هُم جَمالُ الدهر حينًا بعد حين / من غُزاة أَو دُعاة مصلحينْ
لهُمُ من هَيْبةٍ عندَ الأُمَمْ / ما لِراعي غَنَمٍ عندَ الغَنَمْ
قل إذا خاطبتَ غيرَ المسلمينْ: / لكمو دِينٌ رضِيتُم وَلْيَ دِينْ

خلِّ للدَّيَّانِ فيهم شانَهُ   إنه أَولى بهم سبحانَه!
كلُّ حالٍ صائرٌ يومًا لضِدّ   فدَعِ الأَقدارَ تجري واسْتعِدَ
فلكٌ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ يَدُورْ   لا تُعارِضْ أَبدًا مَجرَى الأُمورْ
قلْ إذا شئتَ: صُرُوفٌ وغِيَرْ!   وإذا شئتَ: قضاءٌ وقدَرْ!
واعمَلِ الخيرَ، فإن عِشْتَ لَقِي   طيِّبَ الحمد، وإن مِتَّ بَقِي
مَنْ يَمُتْ عن مِنَّةٍ عندَ يتيمْ   فرحيمٌ سوف يُجزَى من رَحيمْ
كن كريمًا إن رأى جُرْحًا أَسا   وتَعَهَّدْ وتَوَلَّ البُؤَسَا
واسخُ في الشدّةِ وازْدَدْ في الرَّخاءْ   كلُّ خُلْقٍ فاضلٍ دونَ السَّخاءْ
فبِه كلُّ بلاءٍ يُدْفَعُ   لستَ تدْري في غَدٍ ما يَقعُ
جامِلِ الناسَ تَحزْ رِقَّ الجميعْ   رُبَّ قيْدٍ من جميلٍ وَصَنيعْ
عامِلِ الكلَّ بإِحسانٍ تحَبْ   فقديمًا جَمَّلَ المرءَ الأَدبْ
وتَجنَّبْ كلَّ خُلْقٍ لم يَرُقْ   إِن ضيقَ الرِّزقِ من ضيق الخُلُقْ
وتواضَعْ في ارتفاعٍ تُعتَبرْ   فهما ضِدَّان كِبْرٌ وكِبَرْ
كلُّ حَيٍّ ما خلا اللهَ يموتْ   فاترُكِ الكبرَ له والجَبَرُوتْ
وأَرِحْ جَنْبَكَ من داءِ الحسَدْ   كم حسودٍ قد توَفَّاهُ الكَمَدْ
وإذا أُغضِبْتَ فاغضَبْ لعَظيمْ   شَرَفٍ قد مُسَّ، أَو عِرْضٍ كريمْ
وتَجَنَّبْ في الصغيراتِ الغضبْ   إنه كالنارِ والرُّشْدُ الحَطبْ
أُطلبِ الحقَّ بِرِفْقٍ تُحْمَدِ   طالِبُ الحقِّ بعُنْفٍ مُعتدِ
واعْصِ في أُكثرِ ما تأْتي الهَوى   كم مُطيعٍ لِهَوَى النفْسِ هَوَى
اذكرِ الموتَ ولا تفزعْ فمَنْ   يَحقِرِ الموتَ يَنلْ رِقَّ الزمَنْ
أَحببِ الطفلَ وإن لم يَكُ لكْ   إنما الطفلُ على الأَرضِ مَلَكْ
هو لُطْفُ اللهِ لو تعلمُه   رَحِمَ اللهُ امرَءًا يَرْحَمُه
عَطْفةٌ منه على لُعْبَتِهِ   تُخرِجُ المخزونَ من كُرْبَتِهِ
وحديثٌ ساعةَ الضِّيقِ مَعَهْ   يَملأُ العيشَ نعِيمًا وسَعَهْ
يا مُدِيمَ الصومِ في الشهر الكريمْ   صُمْ عن الغِيبةِ يومًا والنَّميمْ
وإذا صَلَّيْتَ خَفْ مَنْ تَعْبُدُ   كم مُصَلٍّ ضَجَّ منه المسجدُ!
واجعلِ الحجَّ إلى «أُمّ القُرَى»   غِبَّ حَجٍّ لِبُيوتِ الفُقرا

هكذا «طه» ومَن كان معَهْ مِن وَقارِ اللهِ أَلاَّ تَخْدَعَهْ
وتَسمَّحْ وتوَسَّعْ في الزكاهْ إنها محبوبةٌ عند الإلهْ
فرَضَ البِرَّ بها فرْضَ حَكيم فإذا ما زِدْتَ فاللهُ كريم
ليس لي في طِبِّ «جالينوسَ» باعْ بَيْدَ أَنَّ العَيْشَ درسٌ واطِّلاعْ
احذَرِ التُّخْمَةَ إن كنتَ فَهِمْ إن «عزرائيلَ» في خَلْقِ النَّهِم
واتّقِ البردَ؛ فكم خَلْقٍ قَتَل مَن تَوَقَّاهُ اتَّقَى نِصفَ العِلل
اتخذْ سُكناك في طَلْقِ الجوَاءْ بينَ شمسٍ، ونباتٍ، وهَواءْ
خَيْمَةٌ في البيدِ خيْرٌ من قصورْ تَبْخلُ الشمسُ عليها بالمرورْ
في غدٍ تأْوِي إلى قفْرٍ حلكْ يَستَوي الصُّعلوكُ فيه والمَلِكْ
واترُكِ الخمرَ لِمشغوفٍ بها لا يَرَى مَندوحةً عن شُرْبِها
لا تُنادِمْ غيرَ مأَمونٍ كريمْ إن عقلَ البعضِ في كفِّ النديمْ
وعن الميسِرِ ما اسْطَعْتَ ابتعِدْ فهْوَ سلُّ المالِ بل سلُّ الكَبِدْ
وتَعشَّقْ، وتَعَفَّفْ، واتّقِ ما دَرَى اللذةَ من لم يَعشَق!

حَجُّ الأَمِير

«أرسل الأبيات الآتية في برقية إلى شريف مكة سنة حج الخديو عباس»

دامت معاليك فينا يا ابن فاطمةٍ ودام منكم لأُفْق البيتِ نِبراسُ
قل للخديوِ إذا وافيتَ سُدَّتَه تمشي إليه ويمشي خلفَكَ الناس
حَجُّ الأَميرِ له الدنيا قد ابتَهَجَتْ والعَوْدُ والعبدُ أَفراحٌ وأَعراس
فلتَحْيَ ملَّتُنا! فلتَحْيَ أُمَّتُنا! فليحي سُلطانُنا! فليحي عباس!

إسْمَاعِيل

«وقال وقد أشرف في مدينة نابلي على الدار التي كان يقيم فيها الخديو إسماعيل»

أَبكيكَ إسماعيلَ مِصرَ، وفي البُكا بعدَ التَّذُّكُرِ راحةُ المسْتَعبِر
ومِن القيامِ ببعضِ حقِّك أَنني أَرْقى لِعِزِّكَ والنعيمِ المدبِر

هذي بُيوتُ الرُّومِ، كيف سَكنتَها — بعد القصورِ المزْرِياتِ بقيْصَرِ؟
ومن العجائبِ أَنَّ نفسَك أَقصَرَتْ — والدهرُ في إِحراجِها لم يُقصِرِ
ما زالَ يُخلي مِنكَ كلَّ مَحِلَّةٍ — حتى دُفِعْتَ إِلى المكانِ الأَقفرِ
نظرَ الزمانُ إِلى ديارِكَ كلِّها — نظرَ (الرشِيدِ) إِلى منازلِ (جعفرِ)[١٩]

حَرِيقُ ميتْ غَمْر[٣]

اللهُ يحكمُ في المدائنِ والقُرى — يا (مِيتَ غَمْرَ) خُذِي القضاءَ كما جرى
ما جَلَّ خَطْبٌ ثم قِيسَ بغيْرِه — إلا وهوَّنَه القِياسُ وصَغَّرَا
فسَلى (عمورَةَ) أَو (سدُون) تأَسِّيًا — أَو (مِرْتنيقَ) غداةَ وُورِيَتِ الثرى
مُدنٌ لقِينَ من القضاءِ ونارِه — شَررًا بجَنبِ نَصيبِها مُستَصْغَرا
هذِي طُلولُكِ أَنْفُسًا وحِجَارةً — هل كنتِ رُكنًا من جَهَنَّمَ مُسْعَرا؟!
قد جئتُ أَبكيها وآخذُ عِبرةً — فوقفتُ مُعْتَبِرًا بها مُستعبِرا
أَجِدُ الحياةَ حياةَ دهرٍ ساعةً — وأَرى النعيمَ نعيمَ غُمْرٍ مُقْصِرا
وأَعُدُّ من حَزْمِ الأُمورِ وعزمِها — للنفس أَن ترضَى، وأَلاَّ تَضْجَرا
ما زلتُ أَسمعُ بالشَّقاءِ روايةً — حتى رَأيتُ بكِ الشَّقاءَ مُصوَّرا
فعل الزمانُ بشمْلِ أَهلِك فِعْلَهُ — ببنِي أُمَيَّةَ، أَو قَرابةِ جَعْفَرا
بالأَمسِ قد سكنوا الديارَ، فأَصبحوا — لا يُنظَرون، ولا مساكنُهم تُرَى
فإِذا لقِيت لقيت حيًّا بائسًا — وإِذا رأَيت رأَيت مَيْتًا مُنْكَرا
والأُمهاتُ بغيرِ صبرٍ: هذه — تبكي الصغيرَ، وتلك تبكي الأَصغرا!
من كلِّ مُودِعَةِ الطُّلولِ دموعَها — من أَجْلِ طفلٍ في الطلولِ استأْخرا
كانت تُؤَمِّل أَن تطولَ حياتُه — واليومَ تسأَلُ أَن يعودَ فيُقبَرا
طلعتْ عليكِ النارُ طلعةَ شُؤْمِها — فمحتْكِ آساسًا، وغيَّرتِ الذُّرا
مَلَكَتْ جهاتِكِ ليلةً ونهارَها — حمراءَ يبدو الموتُ منها أَحمرا
لا تَرْهَبُ الطوفانَ في طُغيانِها — لو قابَلَتْه، ولا تهابُ الأَبْحُرا

[٣] سنة ١٩٠٥، نشرت بمجلة المجلات العربية.

لو أَنّ (نيرون) الجمادَ فؤادُه ... يُدْعَى ليَنْظُرَها لعَاف المنظرا
أَو أَنه ابتُلِيَ (الخليلُ) بمِثلِها ... — أَستغفِرُ الرحمنَ — ولَّى مُدْبِرا
أَو أَن سَيْلاً عاصمٌ من شرِّها ... عَصمَ الديارَ من المدامِع ما جَرى
أَمْسَى بها كلُّ البيوتِ مُبَوَّبًا ... ومُطَنَّبًا، ومُسَيَّجًا، ومُسَوَّرا
أَسَرَتْهُمُو، وتَمَلَّكَتْ طُرُقاتِهم ... مَنْ فرَّ لم يجدِ الطريقَ مُيَسَّرا
خَفَّتْ عليهم يَومَ ذلك مَوْرِدًا ... وأَضلَّهُمْ قدَرٌ، فضَلُّوا المَصْدَرا
حيثُ التَفَتَّ ترى الطريقَ كأَنها ... ساحاتُ حاتِمَ غِبَّ نِيرانِ القِرى
وترى الدعائمَ في السوادِ كهيكلٍ ... خمدَتْ به نارُ المجوسِ، وأَقْفَرا
وتَشَمُّ رائحةَ الرُّفاتِ كريهةً ... وتشمُّ منها الشاكلاتُ العَنْبَرا
كثُرَتْ عليها الطيرُ في حَوْماتِها ... يا طيرُ، «كلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرا»
هل تأْمَنين طوارقَ الأَحداثِ أَن ... تغشَى عليكِ الوَكْرَ في سِنةِ الكَرَى
والناسُ مِنْ داني القُرى وبعيدِها ... تأْتي لتمشِيَ في الطُّلولِ وتَخْبُرا
يتساءَلون عن الحريقِ وهَوْلِه ... وأَرى الفرائسَ بالتساؤلِ أَجْدَرا
يارَبِّ، قد خَمَدَتْ، وليس سواك مَنْ ... يُطفِي القلوبَ المُشْعَلاتِ تَحسُّرا
فتحوا اكتتابًا للإِعانة فاكتَتِبْ ... بالصبرِ، فهْوَ بمالِهم لا يُشترَى
إِن لم تكن للبائسين فمَنْ لهم؟ ... أَو لم تكن للاجئين فمَنْ ترى؟!
فتولَّ جَمْعًا في اليَبَابِ مُشتَّتًا ... وارحم رَميما في التراب مُبعثَرا
فعَلَتْ بمصرَ النارُ ما لم تأْتِهِ ... آياتُكَ السبعُ القديمةُ في الوَرَى
أَوَ ما تراها في البلاد كقاهرٍ ... في كلِّ ناحية يُسيِّر عَسْكرا؟!
فادفعْ قضاءَك، أَو فصيِّرْ نارَه ... بَرْدًا، وخُذ باللُّطْفِ فيما قُدِّرا
مُدُّوا الأَكفَّ سَخِيَّةً، واستغفِري ... يا أُمَّةً قد آن أَن تَستغفرا
أَوْلَى بعطفِ الموسِرين وبِرِّهم ... مَنْ كان مِثلَهُمو فأَصبَح مُعْسِرا
يا أَيُّها السُّجَناءُ في أَموالهم ... أَأَمِنْتُمُوا الأَيامَ أَن تتغيَّرا؟
لا يملكُ الإِنسانُ من أَحوالِه ... ما تملك الأَقدارُ، مهما قَدَّرا
لا يُبْطِرنَّكَ من حرير مَوْطئٌ ... فلرُبَّ ماشٍ في الحريرِ تَعثَّرا
وإِذا الزمانُ تنكَّرَتْ أَحداثُه ... لأَخيكَ؛ فاذكرْه عشي أَن تُذكرا

خُطْبَةُ غَلْيُوم

«وخطب غليوم عاهل ألمانيا خطبة في سنة ١٩٠٦ كان لها وقع عظيم، وأحدثت أزمة أوشكت أن تنتهي إلى حرب أوربية طاحنة، فقال:»

يارَبِّ، ما حكمُكَ؟ ماذا تَرى ... في ذلك الحُلمِ العريضِ الطويلْ؟
قد قام غليومٌ خطيبًا، فما ... أَعطاكَ من مُلْكِكَ إلا القليل!
شَيَّد في جنبِكَ مُلكًا له ... مُلكُكَ إن قِيسَ إليهِ الضَّئيل
قد وَرَّثَ العالَم حيًّا، فما ... غادَرَ من فجٍّ، ولا من سبيل
فالنصفُ للجرْمانِ في زَعمِه ... والنصفُ للرومان فيما يقول
يارَبِّ، قلْ: سيْفُكَ أَم سَيْفُه؟ ... أَيُّهما — يا رَبِّ — ماضٍ ثقيل؟!
إن صَدَقتْ — يارَبِّ — أَحلامُه ... فإِنَّ خطْبَ المسلمين الجليل
لا نحنُ جِرمانٌ لنا حِصَّةٌ ... ولا بِرومانَ فنُعْطَى فَتيل
يا رَبِّ، لا تنسَ رعاياك في ... يومٍ رعاياك الفريقُ الذليل
جنايةُ الجهلِ على أَهلِه ... قديمةٌ، والجهلُ بئسَ الدليل
يا ليتَ لم نَمدُدْ بِشرٍّ يَدًا ... وليتَ ظلَّ السلمِ باقٍ ظليل!
جَنى علينا عُصْبَةٌ جازَفوا ... فَحسْبُنا اللهُ، ونِعْمِ الوكيل!

نَادي الْمُوسِيقى الشَّرْقِي

«وقال يخاطب الملك فؤاد الأول في حفلة افتتاح نادي الموسيقى الشرقي سنة ١٩٢٩».

خَطَّتْ يداكَ الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ
وفرغْتَ من صَرْحِ الفنونِ بِناءَ
مازلتَ تَذهبُ في السُّمُوِّ بِركنِهِ
حتى تجاوزَ رُكنُهُ الجَوْزاءَ
دارٌ من الفنّ الجميلِ تقسَّمَتْ
للساهرين روايةً ورُواءَ

كالـروْضِ تـحـتَ الـطـيـرِ أَعـجـبَ أَيْـكُـه
لَـحْـظَ الـعـيـونِ، وأَعـجـبَ الإِصـغـاءَ
ولـقـد نَـزَلْـتَ بـهـا، فـلـم نَـرَ قـبـلَـهـا
فَـلَـكًـا جـلا شـمـسَ الـنـهـارِ عِـشـاءَ
وتـوهَّـجَـتْ حـتـى تـقـلَّـب فـي الـسَّـنـا
(وادي الـمـلـوكِ) حـجـارةً وفـضـاءَ
فـتـلـفَّـتُـوا يـتـهـامـسـون: لـعـلَّـهُ
فـجـرُ الـحَـضـارةِ فـي الـبـلاد أَضـاءَ
تـلـك الـمـعـازِفُ فـي طُـلـولِ بـنـائـهـم
أَكـثـرْنَ نـحـوَ بِـنـائـكَ الإِيـمـاء
وتـمـايَـلـتْ عـيـدانُـهُـنَّ تـحـيَّـةً
وتـرنَّـمَـتْ أَوتـارُهُـنَّ ثـنـاء
يـا بـانـيَ الإِيـوانِ، قـد نـسَّـقـتَـهُ
وَحَـذَوْتَ فـي هِـنْـدامـهـا (الـحـمـراء)[٢٠]
أَيـنَ (الـغـريـضُ) يـحِـلُّـه أَو (مَـعْـبَـدٌ)[٢١]
يَـتـبـوّأَ الـحُـجـراتِ والأَبـهـاءَ؟
الـعـبـقـريّـةُ مـن ضَـنَـائـنـه الـتـي
يَـحـبـو بـهـا – سُـبْـحـانَـه – مَـنْ شـاءَ
لـم بـنـيـتَ الأَيْـكَ واسـتَـوْهَـبْـتَـهُ
بَـعـثَ الـهَـزارَ، وأَرسَـلَ الـوَرْقـاءَ
فـسـمـعـتَ مـن مُـتَـفَـرِّدِ الأَنـغـامِ مـا
فـاتَ (الـرشـيـدَ)، وأَخـطـأَ الـنُّـدَمَـاءَ
والـفـنُّ ريـحـانُ الـمـلـوكِ، ورُبّـمـا
خَـلَـدُوا عـلـى جَـنـبـاتِـه أَسـمـاء
لـولا أَيـاديـه عـلـى أَبـنـائـنـا
لـم نُـلْـفَ أَمْـجَـدَ أُمَّـة آبـاءَ

كـانـت أَوائـلُ كـلِّ قـومٍ فـي الـعُـلا
أَرضًـا، وكُـنَّـا فـي الَـفـخـارِ سـمـاء
لـولا ابـتـسـامُ الـفـنِّ فـيـمـا حَـوْلَـهُ
ظَـلَّ الـوجـودُ جَـهـامـةً وَجَـفـاءَ
جـرِّدْ مـن الـفـنِّ الـحـيـاةَ ومـا حَـوَتْ
تَـجِـدِ الـحـيـاةَ مـن الـجـمـالِ خَـلاء
بـالـفـنِّ عـالـجـتِ الـحـيـاةَ طـبـيـعـةٌ
قـد عـالـجـتْ بـالـواحـةِ الـصـحـراء
تـأْوِي إِلـيـهـا الـروحُ مـن رَمْـضـائِـهـا
فـتُـصـيـب ظِـلاًّ، أَو تُـصـادِفُ مـاءَ
نبـضُ الـحـضـارةِ فـي المـمالكِ كلِّـهـا
يَـجـري الـسـلامـةَ أَو يـدقّ الـدّاءَ
إِن صحَّ فـهْـيَ عـلى الزمان صـحـيـحةٌ
أَو زافَ كـانـت ظـاهـرًا وطِـلاءَ
انظرْ — أَبا الفاروق — غَرْسَكَ، هل ترى
بـالـغـرْسِ إِلا نـعـمَـةً ونَـمـاء؟
مِـنْ حَـبّـةٍ ذُخِـرَتْ، وأَيـدٍ ثـابَـرَتْ
جـاءَ الـزمـانُ بـجَـنَّـةٍ فَـيْـحـاءَ
وأَكـنَّـتِ الـفـنَّ الـجـمـيـلَ خـمـيـلـةٌ
رَمَـتِ الـظِّـلالَ، ومَـدَّتِ الأَفـيـاءَ
بـذَلَ الـجـهـودَ الـصـالـحـاتِ عـصـابـةٌ
لا يَـسـأَلـون عـن الـجـهـود جَـزاءَ
صـحِـبـوا رسـولَ الـفـنِّ لا يـأْلـونَـه
حُـبًّـا، وصِـدقَ مـوَدّةٍ، ووَفـاءَ
دَفـعـوا الـعـوائـقَ بـالـثـبـات، وجـاوزوا
مـا سـرَّ مـن قـدَر الأُمـور وسـاءَ

إن التعاوُنَ قوّةٌ عُلْويَّةٌ
تبنِي الرجالَ، وتُبدِع الأَشياءَ
فلْيَهْنِهِمْ؛ حاز الْتِفاتك سَعْيُهم
وكسا نديِّهُمُو سَنًا وسَناءَ
لم تبْدُ للأَبصار إلا غارسًا
لِخوالِفِ الأَجيالِ أو بَنَّاءَ
تغدو على الفترَاتِ تَرتَجِلُ النَّدَى
وتروحُ تصطنِعُ اليَدَ البيضاءَ
في مَوكِبٍ كالغيْثِ سار ركابُه
بِشْرًا، وحلَّ سعادةً ورخاءَ
أَنت اللِّواءُ التف قومُك حَوْله
والتاجُ يجعله الشعوبُ لِواءَ
مِنْ كلِّ مِئْذَنةٍ سَمِعْتَ مَحَبَّةً
وبكلِّ ناقوسٍ لقيتَ دُعاء
يتأَلَّفان على الهُتافِ، كما انبَرَى
وَترٌ، يُساير في البَنان غِناءَ

في دَار الأُوبرَا

«هذه القصيدة لم يتبين لي — على وجه اليقين — سبب إنشادها، وأحسبه نظمها لمناسبة احتفال في دار الأوبرا أقامته جمعية من جمعيات البر بأبناء السبيل»[٢٢]

حَبَّذا السَّاحةُ والظلُّ الظليلْ   وثناءٌ في فَمِ الدارِ جميلْ
لم تَزَلْ تجْري به تحت الثَّرى   لُجَّة المعروفِ والنَّيْلِ الجزيل
صُنعُ إسماعيلَ، جلَّتْ يدُه   كلُّ بُنيانٍ على الباني دليل
أَتُراها سُدَّةً من بابه   فتِحَتْ للخير جِيلاً بعدَ جيل؟
مَلعبُ الأَيَّامِ، إلاَّ أَنَّه   ليس حظُّ الجِدِّ منه بالقليل
شهد الناسُ بها «عائدةً»   وشجَى الأَجيالَ من «فِرْدِى» الهديل

وائتَنفنا في ذَراها دُولةً ... ركنُها السُّؤدَدُ والمجدُ الأَثيل
أَينعتْ عصرًا طويلاً، وأَتَى ... دون أَن تُستأْنفَ العصرُ الطويل
كم ضَفرْنا الغارَ في مِحرابها ... وعقدناه لسبّاقٍ أَصيل
كم بدورٍ وَدَّعَتْ يومَ النَّوَى ... وشموسٍ شُيِّعَتْ يومَ الرحيل
رُبَّ عُرسٍ مَرَّ للبِرِّ بها ... ماج بالخيِّرِ والسَّمْحِ المُنيل
ضحِك الأَيتامُ في ليلته ... ومشى يستروِحُ البُرْءَ العليل
والتقى البائسُ والنُّعْمَى به ... وسعى المأْوَى لأَبناءِ السبيل
ومن الأَرض جَدِيبٌ ونَدٍ ... ومن الدُّور جَوادٌ وبخيل
يا شبابًا حُنفاءً ضمَّهم ... منزلٌ ليس بمذمومِ النزيلْ
يصرِفُ الشبان عن وِرْدِ القَذَى ... ويُنحِّيهمْ عن المَرْعَى الوَبيل
اذهبوا فيه وجِيئوا إِخوةً ... بعضُكم خِدنٌ لبعضٍ وخليل
لا يَضُرَّنكمو قِلَّته ... كلُّ مولودٍ وإِن جلَّ ضئيل
أَرجفتْ في أَمركم طائفةٌ ... تُبَّعُ الظنِّ عن الإِنصاف مِيل
اجعلوا الصبرَ لهم حِيلَتكم ... قلَّتِ الحيلةُ في قالَ وقيل
أَيريدون بكم أَن تجمعوا ... رِقَّةَ الدين إِلى الخُلْقِ الهزيل؟!
حَلَتَ الأَرضُ من الهدْيِ، ومن ... مُرشدٍ للنَّشْءِ كَفيل
فترى الأُسرةَ فَوْضَى، وترى ... نَشأً عن سَنَّةِ البِرِّ يَميل
لا تكونوا السَّيْلَ جَهْمًا خَشِنًا ... كلَّما عَبَّ، وكونوا السلسبيل
رُبَّ عِينٍ سَمْحةٍ خاشعةٍ ... رَوَّت العُشْبَ، ولم تنسَ النخيل
لا تُماروا الناسَ فيما اعتقدوا ... كلُّ نفسٍ بكتابٍ وسبيل
وإِذا جئتم إِلى ناديكمو ... فاطرحوا خلفكمو العِبءَ الثقيل
هذه ليْلَتُكم في «الأَوبِرا» ... ليلةُ القدرِ من الشهر النبيل
مِهرَجانٌ طوَّف الهادي به ... ومشى بين يديْه جبْرَئيل
وتجلَّتْ أَوجُهٌ زَيَّنها ... غُرَرٌ من لَمْحَةِ الخير تَسيل
فكأَن الليلَ بالفجر انجلَى ... وكأَن الدارَ في ظلِّ الأَصيل
أَيها الأَجوادُ لا نحزيكمو ... لَذَّةُ الخيرِ مِنَ الخير بَديل
رجلُ الأُمّة يُرجَى عندَه ... لجليل العَمَلِ العَوْنُ الجليل

إِن دارا حُطْتُموها بالنَّدَى   أَخذتْ عهدَ النَّدَى أَلاَّ تَميل

مَصْرَعُ بُطْرُس غالِي باشا

«حينما قُتِلَ بطرس غالي باشا في مصر برصاصة من يد إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ هاجت النفوس، واستاء كثير من الأقباط، لوقوع الجريمة على زعيم ووزير قبطي، فقال في ذلك:»

بَني القِبْطِ إِخوان الدُّهور، رُوَيْدَكُم   هَبوه (يسوعًا) في البريّةِ ثانيا
حملتُم لِحِكمِ اللهِ صَلبَ (ابن مريم)   وهذا قضاءُ اللهِ قد غالَ (غاليا)
سديدُ المرامِي قد رماه مُسَدِّدٌ   وداهيةُ السُوَّاسِ لاقى الدَّوَاهيا
ووَاللهِ، لو لم يُطلِق النارَ مُطلِقٌ   عليه؛ لأَوْدَى فجأَةً، أَو تَداوِيا
قضاءٌ، ومِقدارٌ، وآجالُ أَنفُسٍ   إِذا هي حانت لم تُؤخَّرْ ثوانيا
نَبيدُ كما بادت قبائلُ قبلَنا   ويَبقَى الأَنامُ اثْنَيْنِ: مَيْتًا، وناعيا!
تعالوا عسى نطوي الجفاءَ وعهدَهُ   ونَنبِذُ أَسبابَ الشِّقاقِ نَواحِيا
أَلم تَكُ (مصرٌ) مهدَنا ثم لَحْدَنا   وبينهَما كانت لكلٍّ مَغانيا؟
أَلم نكُ من قبل (المسيحِ ابنِ مريمٍ)   و(موسَى) و(طه) نعبُدُ النيلَ جاريا؟
فهَلاَّ تساقيْنا على حبِّه الهَوَى   وهلاَّ فديْناه ضِفافًا ووادِيا؟
وما زال منكم أَهلُ وُدٍّ ورحمةٍ   وفي المسلمين الخيرُ ما زالَ باقيا
فلا يثنِكم عن ذمَّةٍ قتلُ (بُطُرسٍ)   فقِدْمًا عرفنا القتلَ في الناس فاشيا

تَحيَّةُ غَلْيُوم الثَّاني لِصَلاَح الدِّينِ في القَبْر

عظيمُ الناسِ مَن يَبكي العِظاما   ويَندُبُهُم ولو كانوا عِظاما
وأَكرَمُ من غمامٍ عندَ مَحْلٍ   فتًى يُحيي بِمدحَتِهِ الكراما
وما عُذرُ المقصِّر عن جزاءٍ   وما يَجزِيهُموا إِلاَّ كلاما؟!
فهل من مُبلغٍ غليومَ عنِّي   مقالاً مُرْضِيًا ذاك المقاما؟
رعاكَ اللهُ من ملِكٍ هُمامٍ   تعهَّدَ في الثَّرَى مَلِكًا هُماما

أَرى النِّسيانَ أَظمأَه، فلمَّا وقفْتَ بقبرِه كنتَ الغَماما
تُقرِّبُ عهدَه للناس حتى تركتَ الجليلَ في التاريخِ عاما
أَتدري أَيَّ سلطانٍ تُحيِّي وأَيَّ مُملَّكٍ تُهدي السَّلاما؟!
وقفتَ به تُذَكِرُهُ مُلوكًا تَعَوَّدَ أن يُلاقوهُ قِياما!
وكم جَمَعَتْهُمو حربٌ، فكانوا حدائِدَها، وكان هو الحُساما
كِلامٌ للبريّةِ داميـاتٌ وأَنتَ اليومَ مَنْ ضَمَدَ الكِلاما
فلما قلتَ ما قد قلتَ عنه وأَسمعتَ الممالكَ والأَناما
تساءَلَتِ البريّةُ وهْيَ كَلْمَي أَحُبًّا كان ذاكَ أَمِ انتقاما؟
وأَنتَ أَجلُّ أَن تُزرِي بِميْتٍ وأَنتَ أَبرُّ أَن تُؤذِي عظاما
فلو كان الدوامُ نصيبَ مَلْكٍ لنال بحدِّ صارِمِهِ الدواما

الْفَنار[٤]

سَمَا يُناغي الشُّهُبا هل مَسَّها فاَلتَهبا؟
كالدَّيْدبانِ أَلزَمُو هُ في البحار مَرْقَبا
شَيَّع منه مَرْكَبًا وقام يَلقَى مركبا
بَشَّرَ بالدارِ وبالْـ ـأَهلِ السُّراةَ الغُيَّبا
وخَطَّ بالنُّور على لوْحِ الظلام: مَرْحَبَا
كالبارق المُلِحِّ لم يُوَلِّ إلا عَقَّبا
يارُبَّ ليلٍ لم تَذُقْ فيه الرُقادَ طَرَبا
بِتْنا نُراعيه كما يَرعَى السُّراةُ الكوكبا
سعادةٌ يعرفها في الناس من كان أَبَا
مَشَى على الماءِ، وجَا بَ كالمسيح العَبَبا
وقام في موضعه مُستشرِفًا مُنَقِّبا

---

[٤] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

يَرمِي إلى الظلام طَرْ فًا حائرا مُذَبْذَبا
كمُبْصِرٍ أدارَ عَيْـ ـنًا في الدُّجَى، وقَلَّبا
كبصر الأَعشى أَصا ب في الظلام، ونَبا
وكالسراج في يَدِ الـ ـريح، أَضاءَ، وخبَا
كلمحةٍ من خاطرٍ ما جاءَ حتى ذَهبا
مُجْتنِبُ العالَم في عُزلته مُجْتنَبا
إلا شراعًا ضلَّ، أَو فُلُكًا يُقاسى العَطَبا

حارس الفنار ودلفين

وكان حارسُ الفَنا رِ رجُلاً مُهذَّبا
يَهوَى الحياة، ويُحبَّ العيشَ سهًلا طيِّبا
أَتتْ عليه سَنَوا تٌ مُبْعَدًا مُغْتَرِبا
لم يَرَ فيها زَوْجَهُ ولا ابنَه المحبَّبا
وكان قد رعَى الخطيبَ، ووَعَى ما خَطَبَا
فقال: يا حارسُ، خَـ ـلِّ السُّخْطَ والتَّعَتُّبا
من يُسعِفُ الناسَ إذا نُودِي كلٌّ فأَبى؟
ما الناسُ إخوَتي ولا آدمُ كان لي أَبا
... ...
اُنظر إليَّ، كيف أَقضِـ ـي لهُمُ ما وَجَبا؟
قد عشتُ في خِدمتهم ولا تَراني تَعِبا
كم من غريقٍ قمتُ عنـ ـدَ رأْسِه مُطَبِّبا
وكان جسمًا هامدًا حرَّكتُه فاضطربا
وكنتُ وطَّأْتُ له مَناكبي، فرَكبا
حتى أَتى الشطَّ، فـ بَشَّ مَنْ بِه ورَحَّبا
وطارَدُوني، فانقلَـ ـبْتُ خاسرًا مُخيِّبا
ما نلتُ منهم فِضةً ولا مُنِحْتُ ذهَبا

وما الجزاءُ؟ لا تَسَل ... كان الجزاءُ عجبا!
أَلقَوْا عليَّ شَبَكا ... وقطَّعوني إِرَبا
واتخذ الصُّنَّاعُ من ... شَحميَ زَيْتًا طيِّبا
ولم يَزَلْ إِسعافُهم ... لِيَ الحياةَ مَذهَبا
ولم يَزَلْ سَجِيَّتي ... وعملي المُحبَّبا
إذا سمعتُ صرخةً ... طِرتُ إليها طَربا
لا أَجِدُ المُسْعِفَ ... إلا مَلَكًا مُقرَّبا
والمُسْعِفون في غدٍ ... يؤلفون مَوْكبا
يقول «رِضوانُ» لهم: ... هَيَّا ادخُلوها مرحبا
مُذنِبُكم قد غَفر ... اللهُ لهُ ما أَذنبا

القَمَرُ عَلَى آفَاقِ كَلاَ زُومينَ لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الأَسْني

فدَيْناهُ من زائرٍ مُرْتقَبْ ... بدا للوُجودِ بمرأًى عَجَبْ
تَهُزُّ الجبالَ تَباشيرُهُ ... كما هَزَّ عِطفَ الطَّروبِ الطَّرَب
ويُحْلي البحارَ بَلألائه ... فمنَّا الكئوسُ، ومنه الحبَب
منارُ الحُزونِ إذا ما اعتَلى ... منارُ السهولِ إذا ما انقلَب
أتانا من البَحْرِ في زوْرَقٍ ... لُجَيْنًا مَجاذيفُهُ من ذهب
فقلنا: سُليمانُ لو لم يَمُتْ ... وفِرعوْنُ لو حَمَلَتْهُ الشُّهُب
وكِسرى وما خمدَتْ نارُه ... ويوسُفُ لو أَنه لم يشِبْ
وهيهاتَ! ما تُوِّجُوا بالسَّنا ... ولا عرشُهم كان فوقَ السُّحُب
أَنَافَ على الماءِ ما بينَها ... وبينَ الجبالِ وشُمِّ الهضبِ
فلا هو خافٍ، ولا ظاهرٌ ... ولا سافرٌ، لا، ولا مُنتقِب
وليس بثَاوٍ، ولا راحلٍ ... ولا بالبعيدِ، ولا المقتَرِب
تَوارَى بنصفٍ خلالَ السُّحُبْ ... ونصفٌ على جبلٍ لم يَغِب
يجدِّدُها آيةً قد خلت ... ويذكُرُ ميلادَ خيرِ العَرَب

أَثينا[٥]

«أوفدته الحكومة المصرية إلى (أثينا) عاصمة اليونان لحضور مؤتمر المستشرقين، فقال يخاطبها:»

إِن تسألي عن مِصْرَ (حَوّاءِ) القُرى ... وقَـرارةِ الـتـاريـخِ والآثـارِ
فالصُّبحُ في (مَنْفٍ) و(ثيبة) واضحٌ ... مَنْ ذا يُلاقي الصُّبحَ بالإنكار؟
بالهَيْلِ مِن (مَنْفٍ) ومن أَرباضِها ... مَجْدُوعُ أَنفٍ في الرّمالِ كُفَارِي[٢٣]
خَلَتِ الدُّهُورُ وما التَقَتْ أَجفانُه ... وأَتَتْ عليه كَلَيْلَةٍ ونَهار
ما فَلَّ ساعِدَه الزمانُ، ولم يَنَلْ ... منه اختلافُ جَوارِفٍ وذَوار
كالدَّهرِ لو مَلكَ القيامَ لِفَتْكةٍ ... أَو كان غيرَ مُقَلَّمِ الأَظفار
وثلاثةٍ شبَّ الزمانُ حيالها ... شُمٍّ على مَرِّ الزَّمانِ، كِبار[٢٤]
قامت على النيلِ العَهِيدِ عَهِيدةً ... تكسوه ثوبَ الفَجْرِ وهْيَ عَوار
من كلِّ مركوزٍ كَرَضْوَى في الثَّرَى ... متطاولٍ في الجوِّ كالإِعصار
الجنُّ في جَنَباتها مَطروقةٌ ... ببدائع البنَّاءِ والحفَّار
والأَرضُ أَضْيَعُ حِيلةً في نَزْعِها ... من حيلةِ المصلوبِ في المِسمار
تلك القبورُ أَضَنُّ من غَيْب بما ... أَخفَتْ منَ الأَعلاق والأَذخار
نام المُلوك بها الدُّهورَ طويلةً ... يجِدون أَروحَ ضَجْعَةٍ وقرارِ
كلٌّ كأَهلِ الكهف فوقَ سَريرِه ... والدهرُ دونَ سَريرِه بهِجار
أَملاكُ مصرَ القاهرون على الوَرَى ... المنزَلون منازلَ الأَقمار
هَتَكَ الزمان حِجابَهم، وأَزالهم ... بعدَ الصِّيانِ إزالةَ الأَسرار
هيهاتَ! لم يَلمِسْ جلالَهُمُو البِلَى ... إلا بأَيدٍ في الرَّغام قِصار
كانوا وظَرْفُ الدهر لا يسمُو لهم ... ما بالُهمْ عُرِضُوا على النُّظَّار؟
لو أَمهلوا حتى النُّشُورِ بَدُورِهم ... قاموا لخالِقهم بغير غُبار!

ذِكْرى مُحَمَّد فِريد

«أُلقيت في الاحتفال بالذكرى الخامسة للمغفور له مُحَمَّد فريد بك سنة ١٩٢٤»

[٥] نشرت بمجلة رعمسيس سنة ١٩١٢.

نُجدِّدُ ذِكرَى عهدِكم ونُعيدُ … ونُدني خَيالَ الأَمسِ وهْوَ بعَيدُ
وللناسِ في الماضي بصائرُ يَهتدِي … عليهِنَّ غاوٍ، أَو يسيرُ رشيد
إِذا الميْتُ لم يَكرُمْ بأَرضٍ ثناؤُهُ … تحيَّرَ فيها الحيُّ كيف يسود
ونحنُ قضاةُ الحقِّ، نَرعى قدِيَمهُ … وإِن لم يَفُتْنا في الحقوقِ جديد
ونعلمُ أَنَّا في البِناءِ دعائمٌ … وأَنتُم أَساسٌ في البناءِ وَطِيد
فريدُ ضحايانا كثيرٌ، وإِنما … مَجالُ الضحايا أَنتَ فيه فريد
فما خلْفَ ما كابَدْتَ في الحقِّ غايةٌ … ولا فوقَ ما قاسيْتَ فيه مَزيد
تغرَّبْتَ عشرًا أَنتَ فيهنَّ بائسٌ … وأَنت بآفاقِ البلادِ شَريد
تجوعُ بِبُلدانٍ، وتَعْرَى بِغيرِها … وتَرْزَحُ تحتَ الداءِ، وهْوَ عَتيد
أَلا في سبيل اللهِ والحقِّ طارفٌ … من المالِ لم تَبخلْ به، وتَليد
وَجودُكَ بعدَ المالِ بالنفسِ صابرًا … إِذا جزعَ المحضورُ وهْوَ يَجود
فلا زِلْتَ تمثالاً من الحقِّ خالصًا … على سِرِّه نَبني العُلا، ونَشِيد
يُعلم نَشْءَ الحي كيف هَوَى الحِمى … وكيف يُحامي دونهُ، ويَذود

النَّخيلُ مَا بَيْنَ الْمُنْتَزَهِ وَأَبي قِير

«نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١»

أَرى شَجَرًا في السماءِ احتجبْ … وشقَّ العَنانَ بمَرْأًى عَجبْ
مآذنُ قامت هُنا أَو هناكَ … ظواهِرُها درجٌ من شذَب
وليس يؤذِّنُ فيها الرجالُ … ولكن تَصيح عليها الغُرُب
وباسقةٍ من بنات الرمالِ … نَمتْ وربَتْ في ظلالِ الكُثُب
كساريةِ الفُلْكِ، أَو كالمِسَـ … ـلَّةِ، أَو كالفَنارِ وراءَ العَبَب
تطولُ وتقصُرُ خلفَ الكثيبِ … إِذا الريحُ جاءَ به أَو ذهب
تُخالُ إِذا اتَّقدَتْ في الضُّحَى … وجَرَّ الأَصيلُ عليها اللهَب
.. وطافَ عليها شُعاع النهارِ … مِنَ الصَّحْوِ، أَو مِنْ حَواشي السُّحُب
... وَصِيفةَ فرعونَ في ساحةٍ … من القصر واقفةً تَرْتقِب
قد اعتَصَبتْ بفصوص العَقِيقِ … مُفصَّلَةً بِشُذورِ الذهب

ونـاطـتْ قـلائـدَ مَـرْجـانِـهـا   على الصدر، واتَّشَحَتْ بالقَصَب
وشَدَّتْ على ساقِها مِئْزَرًا   تَعَقَّدَ من رأْسِها للذنَب
أَهذا هو النخلُ مَلْكُ الرِّياضِ   أَميرُ الحقولِ، عروسُ العزب؟
طعامُ الفقيرِ، وحَلوَى الغَنيِّ   وزادُ المسافرِ والمُغْتَرِب؟
فيا نخلةَ الرملِ، لم تَبخلي   ولا قصَّرَتْ نَخَلاتُ التُّرب
وأَعجَبُ: كيف طوَى ذِكْرَكُنَّ   ولم يحتفلْ شعراءُ العرب؟!
أَليس حرامًا خُلُوُّ القصا   ئدِ من وصفِكنّ، وعُطْلُ الكتُب؟
وأَنتنّ في الهاجراتِ الظِّلالُ   كأَنّ أَعالِيَكُنّ العَبَب
وأَنتنّ في البيد شاةُ المُعِيلِ   جَناها بجانبِ أُخرى حَلَب
وأَنتنّ في عَرَصاتِ القصورِ   حسانُ الدُّمى الزائناتُ الرّحب
جناكنّ كالكرْمِ شتّى المذاقِ   وكالشَّهْدِ في كل لون يُحَبّ

الْبَحْرُ الأَبْيَضُ

«نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١»

أَمِنَ البحرِ صائغٌ عَبْقَرِيٌّ   بالرّمالِ النَّواعِمِ البيضِ مُغْرَى؟!
طاف تحت الضُّحَى عليهنَّ، والجوْ   هَرُ في سُوقِهِ يُباعُ ويُشْرَى
جِئنَهُ في مَعاصمٍ ونُحورٍ   فكسا مِعْصَمًا، وآخرَ عَرَّى
وأَبَى أَن يُقلِّدَ الدُّرَّ واليا   قوتَ نحْرًا، وقلَّدَ الماسَ نحْرا
وتَرى خاتَمًا وراءَ بَنانٍ   وبَنانًا من الخواتمِ صِفْرا
وسِوارًا يَزينُ زَنْدَ كَعَابٍ   وسِوارًا من زَنْدِ حسناءَ فرَّا
وترى الغِيدَ لُؤلؤا ثَمَّ رَطْبًا   وجُمانًا حَوَالَي الماءِ نَثْرا
وكأَنَّ السماءَ والماءَ شِقَّا   صَدَفٍ، حُمِّلا رفيفًا ودُرَّا
وكأَنّ السماءَ والماءَ عُرْسٌ   مُتْرَعُ المِهرَجانِ لمْحًا وعِطرا
أَو رَبيعٌ من ريشةِ الفنِّ أَبهَى   مِن ربيعِ الرُّبى، وأَفتنُ زَهْرا
أَو تهاويلُ شاعرٍ عَبقريٍّ   طارَحَ البحرَ والطبيعةَ شعرا
يا سِوارَيْ فَيْرُوزَجٍ ولُجَيْنٍ   بهما حُلِّيَتْ معاصِمُ مِصْرا

في شُعاعِ الضُّحَى يعودان ماسًا – وعلى لمْحَةِ الأَصائلِ تِبْرا
ومَشَتْ فيهما النّجومُ فكانت – في حَواشِيهما يواقيتَ زُهْرَا
لكَ في الأَرض موكبٌ ليس يأْلو الـ – ـرِّيحَ والطيرَ والشياطينَ حَشْرا[٢٥]
سِرْتَ فيه على كنوز (سُليما – نَ) تعدُّ الخُطى اختيالاً وكِبْرا
وتَرنَّمْتَ في الركابِ، فقلنا – راهبٌ طاف في الأَناجيل يَقرا
هو لحنٌ مُضَيَّعٌ، لا جوابًا – قد عرفنا له، ولا مُستقَرَّا
لك في طيِّهِ حديثُ غرامٍ – ظَلَّ في خاطر المُلَحِّنِ سِرَّا
قد بعثنا تحيَّةً وثناءً – لكَ يا أَرفعَ الزواخِر ذِكرا
وغشِيناكَ ساعةً تَنْبشُ المَا – ضيَ نبشًا، وتقتُلُ الأَمسَ فِكرا
وفتحنا القدِيمَ فيك كتابًا – وقرأْنا الكتابَ سطرًا فسَطْرا
ونشَرْنا من طيِّهِنَّ الليالي – فلَمَحنا من الحضارةِ فَجْرا
ورأَينا مصرًا تُعلِّمُ (يونا – نَ)، ويونانَ تَقبِسُ العلمَ مصرا
تِلكَ تأْتيكَ بالبيانِ نبيًّا – عبقريًّا، وتِلك بالفنّ سِحْرا
ورأَينا المنارَ في مطلع النَّجْـ – ـمِ على برقِهِ المُلَمَّحِ يُسرى
شاطئٌ مثلُ رُقعةِ الخُلدِ حُسنًا – وأَديمِ الشبابِ طِيبًا وبِشرا
جَرَّ فيْرُوزَجًا على فِضَّةِ الما – ءِ، وجَرَّ الأَصيلُ والصبح تِبرا
كلَّمَا جئتَهُ تهلَّل بِشرًا – من جميع الجهاتِ، وافترَّ ثَغْرا
اِنثنَى مَوْجَةً، وأَقبلَ يُرخِي – كِلَّةً تارةً ويَرفعُ سِترا
شبَّ وانحطَّ مثلَ أَسرابِ طيرٍ – ماضياتٍ تَلُفُّ بالسَّهلِ وَعْرا
رُبما جاءَ وَهْدَةً فتردَّى – في المَهاوِي، وقام يَطفرُ صَخرا
وتَرى الرملَ والقصورَ كأَيْكٍ – ركب الوَكْرُ في نواحيهِ وَكْرا
وتَرى جَوْسَقًا يُزَيِّنُ رَوْضًا – وترى رَبوةً تزيِّنُ مصرا
سَيِّدَ الماءِ، كم لنا من (صلاحٍ) – و(عليٍّ) وراءَ مائكَ ذِكرى![٢٦]
كم مَلأناكَ بالسَّفينِ مَواقِيـ – ـرَ[٢٧] كشُمِّ الجبالِ جُندًا ووَفرا!
شاكياتِ السلاحِ يَخرُجنَ من مصـ – ـرٍ بملمومةٍ، ويَدْخلن مِصرا
شارعاتِ الجناحِ في ثَبَجِ الما – ءِ كنَسْرٍ يشدُّ في السُّحب نَسْرا
وكأَنّ اللُّجاجَ حينَ تَنزَّى – وتسدُّ الفِجاجَ كرًّا وفرًّا ...

... أجمٌ بعضُهُ لبعضٍ عدوٌّ زحَفَتْ غابةٌ لتمزيق أُخرَى!
قذَفَتْ ههنا زئيرًا ونَابًا ورَمَت ههنا عُواء وظُفرا
أَنتَ تَغلي إِلى القيامةِ كالقِدْ رِ، فلا حطَّ يومُها لكَ قِدْرا

قِفْ حَيِّ شُبَّانَ الْحِمَى

«نظمها في الطلاب المصريين الذين يطلبون العلم في أوربا»

قِفْ حَيِّ شُبَّانَ الحِمَى قبلَ الرحيلِ بقافِيَهْ
عَوَّدْتُهُمْ أَمثالَها في الصالحاتِ الباقيه
من كلِّ ذاتِ إِشارةٍ ليستْ عليهم خافيه
قلْ: يا شبابُ، نصيحة مما يُزَوَّدُ غاليه
هل راعكم أَن المدا رسَ في الكنانةِ خاوِيَه؟
هُجِرَتْ فكلُّ خلِيَّة من كلِّ شُهْدٍ خاليه
وتعطَّلتْ هالاتُها مِنكم، وكانت حاليه
غَدَتِ السياسةُ وَهْيَ آ مرة عليها ناهيه
فهجرتُمُو الوطنَ العز يزَ إِلى البلادِ القاصيه
أَنتمْ غدًا في عالَمٍ هو والحضارةُ ناحِيهْ
وارَيْتُ فيه شَبيبَتي وقضيتُ فيه ثمانِيه
ما كنتُ ذا القلبِ الغليـ ـظِ، ولا الطباعِ الجافيه
سِيروا به تتعلَّموا سرَّ الحياةِ العاليه
وتأَمَّلوا البُنْيَانَ، وادَّكِـ ـروا الجهودَ البانيه
ذوقوا الثمارَ جَنِيَّةً وَرِدُوا المناهِلَ صافيه
واقضُوا الشبابَ؛ فإِنّ سا عتَه القصيرةَ فانيه
واللهِ لا حَرَجٌ عليـ ـكم في حديثِ الغانيه
أَو في اشتِهاءِ السِّحْرِ من لَحْظِ العيونِ الساجيه
أَو في المسارحِ فَهْيَ بالنَّـ ـفْسِ اللطيفةِ راقيه

ثَنَى عِطْفَيْهِمَا الْهَرَمَانِ تيهًا

«وقال يحيي الملك فؤاد في إبَّان زيارته للجيزة في ديسمبر سنة ١٩٣٠»

بأَرضِ الجيزة اجتازَ الغَمامُ	وحلَّ سماءَها البدرُ التمام
وزار رياضَ إسماعيلَ غيثٌ	كوالِده له المِننُ الجِسام
ثَنَى عِطْفَيْهِمَا الهرمانِ تِيهًا	وقال الثالثُ الأَدنى: سلام
هَلُمِّي مَنْفُ؛ هذا تاجُ خوفو	كقُرْصِ الشمسِ يَعرِفه الأَنام
نَمتْهُ من بني فِرعَوْنَ هامٌ	ومن خلفاءِ إسماعيلَ هام
تألَّقَ في سمائكِ عبقريًّا	عليه جلالةٌ، وله وِسام
ترعرعَتِ الحضارةُ في حلاهُ	وشبَّ على جواهِره النظام
ونال الفنُّ في أُولى الليالي	وأُخراهُنَّ عِزًّا لا يُرام
مشَى فِي جيزة الفسطاط ظِلٌّ	كِظلِّ النيلِ بُلَّ به الأُوَام
إذا ما مَسّ تُرْبًا عاد مِسْكًا	ونافسَ تحتَه الذهبَ الرَّغام
وإِنْ هو حَلَّ أَرضًا قام فيها	جِدارٌ للحضارةِ أَو دِعام
فمدرسةٌ لحرب الجهلِ تُبْنَى	ومُسْتَشْفَى يُذادُ به السَّقام
ودارٌ يُستَغاثُ بها فَيَمضي	إلى الإسعافِ أَنجادٌ كرامُ
أساةُ جِراحةٍ حِينًا، وحينًا	مَيازيبٌ إذا انفجر الضِّرام
وأَحواضٌ يراضُ النيلُ فيها	وكلُّ نجيبةٍ ولها لجام
أَبا الفاروقِ، أَقبَلْنا صُفوفًا	وأَنتَ من الصفوفِ هو الإمام
إلى البيتِ الحرامِ بك اتَّجهنا	ومِصرُ — وحَقِّها — البيتُ الحرام
طلعتَ على الصعيدِ فهَشَّ حتى	علا شَفَتَيْ أَبي الهول ابتسام
ركابٌ سارتِ الآمالُ فيه	وطافَ به التلفُّتُ والزِّحام
فماذا في طريقك من كُفور	أَجلُّ من البيوتِ بها الرِّجام؟
كأَن الراقِدين بكل قاعٍ	هُمُ الأَيقاظُ، واليَقْظَى النِّيام
لقد أَزَمَ الزمانُ الناسَ، فانظُرْ	فعِندَكَ تُفْرَجُ الإِزَمُ العِظام
وبَعْدَ غدٍ يُفارِقُ عامُ بؤسٍ	ويَخلُفه من النَّعماءِ عام
يَدورُ بمصرَ حالاً بعدَ حالٍ	زمانٌ ما لِحَالَيهِ دَوام

ومِصْرُ بِناءُ جَدِّكَ لم يُتَمَّمْ   أليس على يَدَيكَ له تمام؟
فلسنا أُمّةً قعدتْ بشمس   ولا بلدًا بضاعتُه الكلام
ولكنْ هِمَّةٌ في كلِّ حينٍ   يَشُدُّ بِناءَها المَلِكُ الهُمام
نَرومُ الغايةَ القُصْوَى، فنَمْضي   وأَنت على الطريقِ هو الزِّمام
ونقصر خطوةً، ونَمُدُّ أُخرى   وتُلجِئُنا المسافةُ والمرام
ونَصبرُ للشدائدِ في مقامٍ   ويَغلِبُنا على صبر مقام
فقوِّ حضارةَ الماضي بأُخرَى   لها زَهْوٌ بِعصرِكَ واتّسامُ
تَرفُّ صحائفُ البَرْدِيِّ فيها   ويَنطقُ في هياكلها الرُّخام
رَعَتك وواديًا ترعاه عنَّا   منَ الرحمنِ عينٌ لا تنام
فإن يك تاجُ مصرَ لها قِوامًا   فمصرُ لتاجِها العالي قِوام
لِتهنأ مصرُ، وليَهْنأ بَنوها   فبينَ الرأسِ والجِسمِ التئام

الأَمِيرَة فَتْحِيةُ

«وقال في برقية يهنئ الأميرة السابقة فتحية»

فتْحِيَّةٌ دنيا تَدومُ، وصِحةٌ   تَبقى، وبهجَةُ أُمَّةٍ، وحياة
مَوْلايَ إِنّ الشمسَ في عليائها   أُنثَى، وكلُّ الطيباتِ بَناتُ!

تَهْنِئَة

«وقال يهنئ الدكتور علي باشا إبراهيم بمناسبة الإنعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠»

يَدُ الملكِ العلَوي الكريم   على العلمِ هَزَّتْ أَخاه الأَدِبْ
لسانُ الكنانةِ في شكْرها   وما هو إلا لسانُ العَرَب
قضَتْ مِصرُ حاجتَها يا (عَلِيُّ)   ونالتْ، ونال بَنوها الأَرَب
وَهَنَّأتُ بالرُّتَبِ العبقَرِيَّ   وهَنَّأتُ بالعبقَرِي الرُّتَب
عِليٌّ، لقد لقَّبَتْكَ البِلادُ   بآسِي الجِراحِ، ونِعْمَ اللَّقَب

سِـلاحُـك مـن أَدواتِ الـحـيـاةِ وكـلُّ سـلاحٍ أَداةُ الـعَـطَـب
ولـفـظُـكَ (بِـنْـجٌ)، ولـكـنَّـهُ لطيفُ الصَّبا في جُفون العَصب
أَنـامِـلُ مِـثـلُ بَـنـانِ الـمـسـيـح أَواسِي الجِراحِ، مَوَاحِي النُّدَب
تـعـالِـجُ كَـفَّـاكَ بؤسَ الـحـيـاةِ فـكـفٌّ تُـدَاوِي، وكـفٌّ تَـهَـب
ويستمسك الدَّمُ في راحَتَيْكَ وفَـوْقَـهُـمـا لا يَـقـرُّ الـذَّهـب
كـأَنـك لـلـمـوتِ مَـوْتٌ أتـيـح فـلـم يَـرَ وجْـهَـكَ إلا هَـرَب!

يا قَاهِرَ الْغَرْبِ الْعَتِيدِ

«وقال في حفل تكريم البطل العالمي في حمل الأثقال السيد نصير، في ديسمبر سنة ١٩٣٠»

شرَفًا نُصِيْرُ، ارْفعْ جَبِينَك عاليًا وتـلـقَّ مـن أَوطـانـك الإكـلـيـلا
يَهنِيكَ ما أُعطِيتَ من إكرامِها ومُنِحْتَ مِن عطف ابنِ إسماعيلا
اليومَ يَومُ السَّابِقين، فكنْ فتًى لم يَبْغِ من قصَبِ الرِّهانِ بَدِيلا
وإذا جَرَيْتَ مع السوابق فاقتحِمْ غُرَرًا تَسيل إلى المدى وحُجُولا
حـتـى يـراكَ الـجـمـعُ أَوَّلَ طالعٍ ويَـرَوْا عـلـى أَعـرافِـك الـمِـنْـدِيـلا
هـذا زمـانٌ لا تَـوسُّـطَ عِـنـدَه يَبْغِي المُغامِرُ عاليًا وجليلا
كنْ سابقًا فيه، أَوِ آبْقَ بِمَعْزِلٍ ليس التوسُّطُ للنُبوغِ سبيلا
يا قاهرَ الغربِ العتيدِ، مَلأْته بثناءِ مِصْرَ على الشِّفاه جَميلا
قـلَّـبْـتَ فـيـه يـدًا تـكـاد لِـشِـدَّةٍ في البأْسِ ترفع في الفَضاءِ الفِيلا!
إن الذي خَلق الحديدَ وبأْسَه جعل الحديدَ لِساعِديْكَ ذليلا
زَحْـزَحْـتَـه، فـتـخـاذلـتْ أَجـلادُه وطَرحْتَه أَرضًا، فصَلَّ صَليلا
لِمَ لا يَلِينُ لك الحديدُ, ولم تزَلْ تـتـلـو عـلـيـه وتـقـرأُ الـتَّـنـزِيـلا؟
الأَزْمَـة اشْـتَـدَّتْ ورانَ بـلاؤُهـا فاَصْدِمْ بِرْكنك رُكنَها ليَميلا
(شمشونُ) أَنت، وقد رَستْ أَركانُها فـتَـمـشَّ فـي أَركـانِـهـا لِـتَـزولا
قلْ لي نُصَيْرُ وأَنت بَرٌّ صادِقٌ أَحَمَلْتَ إنسانًا عليك ثقيلا؟
أَحَمَلْتَ دَيْنًا في حياتِك مَرَّةً؟ أَحَمَلْتَ يومًا في الضُّلوع غليلا؟

أَحَملتَ ظُلمًا من قريبٍ غادِرٍ أَو كاشحٍ بالأَمسِ كان خَليلا؟
أَحملتَ منًّا بالنهارِ مُكرَّرًا والليلِ، مِنْ مُسْدٍ إليك جَميلا؟
أَحملتَ طُغيانَ اللئيمِ إذا اغْتَنَى أَو نال مِنْ جاهِ الأُمورِ قليلا؟
أَحملتَ في النادي الغبِيَّ إذا التَقَى مِن سامِعِيه الحمدَ والتبجيلا؟
تلك الحياةُ، وهذه أَثقالُها وُزِنَ الحديدُ بها فعاد ضئيلا!

ابْنُ زَيْدُون

«أنشأها ترحيبًا بديوان ابن زيدون، حين ظهر مطبوعًا لأول مرة في مصر، بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلاني»

يا ابْنَ زيدونَ، مَرحَبا قد أَطلْتَ التَّغَيُّبا
إن ديوانَكَ الذي ظلَّ سرًّا مُحجَّبا،
يَشْتكي اليُتْمَ دُرُّه ويُقاسى التَّغرُّبا ...
... صار في كل بَلدةٍ للأَلِبَّاءِ مَطْلبا
جاءَنا «كاملٌ» به عربيًّا مُهَذَّبا
تَجدُ النَّصَّ مُعْجِبا وتَرى الشَّرح أَعجبا
أَنتَ في القول كلِّه أَجْملُ الناسِ مَذْهبا
بأَبي أَنتَ هيْكلاً مِن فنونٍ مُركَّبا
شاعِرًا أَم مُصَوِّرًا كنتَ، أَم كنتَ مُطربا؟
ترسِل اللحنَ كلَّه مُبْدِعًا فيه، مُغرِبا
أَحْسَنَ الناس هاتفْا بالغواني مُشَبِّبا
ونزيلَ المُتوَّجـ ـينَ، النديمَ المُقرَّبا
كم سَقاهم بشِعره مِدْحَةً أَو تَعَتُّبا
ومن المدْحِ ما جزَى وأَذاعَ المناقِبا
وإذا الهَجْوُ هاجَهُ لِمُعاناته أَبى
ورآه رذيلةً لا تُماشِي التأَدُّبَا
ما رأَى الناسُ شاعِرا فاضلَ الخُلْقِ طيِّبا

دَسَّ للناشقين في   زَنبَقِ الشعرِ عَقربا
جُلتَ في الخُلد جوْلةً   هل عن الخلد مِنْ نَبا؟
صف لنا ما وراءَه   من عيونٍ، ومن رُبى
ونعيمٍ ونَضرةٍ   وظلالٍ من الصِّبا
وصِفِ الحورَ موجزًا   وإذا شئت مُطْنِبا
قم تَرى الأَرضَ مِثلما   كنْتُمو أَمسِ مَلعَبا
وترى العيشَ لم يزلْ   لبَني الموتِ مأْرَبا
وترى ذاك بالذي   عند هذا مُعَذَّبا
إنَّ مَروانَ عُصبةٌ   يَصنعونَ العجائبَا[٢٨]
طوَّفوا الأَرض مَشرِقًا   بالأيادي ومَغرِبا
هالةٌ أَطلعتْكَ في   ذِروة المجدِ كوكبا
أَنت للفتحِ تنتمي   وكفى الفتحُ منْصِبا
لستُ أَرْضَى بغيره   لك جَدًّا ولا أَبا

الْبُلْبُلُ الْغَرِدُ الَّذي هزَّ الرُّبى

«أُنْشِدَت في الحفلة التي أقامتها رابطة الأدب الجديد، تكريمًا للشاعر الأستاذ «محمود أبو الوفا»، وكانت هذه القصيدة سببًا إلى عناية الحكومة المصرية وقتئذ بالشاعر — أبي الوفا — وتسفيره إلى أوربا لعمل رجْل صناعية بدل ساقه المبتورة!»

وعِصابةٍ بالخيرِ أُلِّف شَمْلُهم   والخيرُ أَفضلُ عُصبةً ورِفاقا
جعلوا التَّعاونَ والبنايةَ هَمَّهم   واستنهضوا الآدابَ والأَخلاقا
ولقد يُداوُون الجِراح بِبرِّهم   ويُقاتلون البؤسَ والإملاقا
يسمونَ بالأَدب الجديدِ، وتارةً   يَبْنُون للأَدبِ القديمِ رِواقا
بعثَ اهتمامَهُمو، وهاجَ حنانهم   زمنٌ يُثير العطفَ والإشفاقا
عَرَضَ القُعودُ فكان دون نُبوغِه   قَيدًا، ودونَ خُطَى الشباب وِثاقا
البُلبُلُ الغرِدُ الذي هزَّ الرُّبَى   وشَجَى الغصونَ، وحرَّكَ الأَوراقا
خَلَفَ البَهاءَ على القريض وكأْسِه   فسَقى بعَذبِ نسيبه العُشَّاقا

في القيد مُمتنِعُ الخُطى، وخياله يَطوِي البلادَ ويَنشُر الآفاقا
سبَّاقُ غاياتِ البيانِ جَرى بلا ساقٍ، فكيف إذا استَردَّ الساقا؟!
لو يَطعمُ الطِّبُّ الصنَّاعُ بَيانَه أَو لو يُسيغُ لما يقولُ مَذاقا ...
... غالى بقيمتِه، فلم يَصنع له إلا الجَناحَ مُحلِّقًا خفَّاقا!

خَليل مُطْرَان[٦]

«نظمها لتُنْشَدُ في حفلة أقيمت بدار الجامعة المصرية في ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ لتكريم الشاعر خليل مطران؛ لمناسبة إنعام الخديو عباس حلمي الثاني عليه بوسام، وكانت الحفلة برياسة الأمير محمد علي توفيق شقيق الخديو».

لُبْنَانُ، مَجْدُكَ في المشارق أَوَّلُ والأَرضُ رابيةٌ وأَنتَ سَنامُ
ونبوك أَلطفُ مِن نسيمكَ ظلُّهُمْ وأَشمُّ مِن هَضَبَاتِك الأَحلام
أَخرجتَهم للعالمين جَحاجِحًا عُرْبًا، وأَبناءُ الكريم كرامُ
بين الرياض وبين أُفْقٍ زاهرٍ طلع المَسيحُ عليه والإسلام
هذا أَديبُك يُحتفَى بِوسامِهِ وبيانُه للمَشْرقَيْنِ وِسامُ
ويُجَلُّ قدْرُ قِلادةٍ في صدره وله القائدُ سِمْطُها الإلهام
صدرٌ حَوالَيْه الجلالُ، ومِلؤهُ كرمٌ، وخَشيةٌ مومِنٍ، وذِمام
حَلاَّهُ إِحسانُ الخديوِ، وطالما حلاَه فضلُ اللهِ والإِنعام
لِعُلاك يا مُطرانُ، أَم لنهاك، أَم لِخلالك التشريفُ والإكرام؟!
أَم للمواقف لم يَقِفْها ضَيْغَمٌ لولاك لاضطربت له «الأَهرام»؟!
هذا مقامُ القولِ فيك، ولم يَزَلْ لك في الضمائر مَحْفِلٌ ومقام
غالَى بقيمتك الأَميرُ محمدٌ وسعى إليك يحفه الإعظام
في مجمعٍ هزّ البيانُ لواءَه بك فيه، واعتزَّتْ بك الأَقلامُ
ابنُ الملوكِ تَلاَ الثناءَ مخلَّدًا هَيْهَات يذهبُ للملوكِ كلام!
فمنِ البشِيرُ لبعْلَبَكَّ وبينَها نَسَبٌ تُضِيءُ بنوره الأَيام؟
يبْلَى المكينُ الفخْمُ من آثارها يومًا، وآثارُ الخليل قيام!

---

[٦] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

غَانْدِي

«أنشأها تحية لغاندي الزعيم الهندي المشهور، حين مروره بمصر سنة ١٩٣١، في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن»

بَنِي مِصرَ، ارْفَعُوا الغار   وحيُّوا بَطلَ الهِندِ
وأَدُّوا واجِبًا، واقضوا   حقوقَ العلَمِ الفرد
أَخوكم في المقاساةِ   وعَرْكِ الموقفِ النَّكْدِ
وفي التَّضْحِيةِ الكبرى   وفي المَطلبِ، والجُهد
وفي الجرح، وفي الدمع   وفي النَّفْيِ من المهدِ
وفي الرحلة للحقِّ   وفي مرحَلةِ الوفد
قِفوا حيُّوه من قرْبٍ   على الفلْكِ، ومن بُعد
وغَطُّوا البَرَّ بالآس   وغَطُّوا البحرَ بالورد
على إفريزِ (راجْبُوتا   نَ)[٢٩] تمثالٌ من المجد
نبيٌّ مِثلُ (كونْفشْيُو   سَ)، أَو من ذلك العهد
قريبُ القوْلِ والفعلِ   من المنتظَرِ المهدي
شبيه الرسْل في الذَّوْدِ   عن الحقِّ، وفي الزهد
لقد عَلَّم بالحقِّ   وبالصبر، وبالقصد
ونادى المشرقَ الأَقصى   فلبَّاه من اللحد
وجاءَ الأَنفسَ المرْضَى   فداوَاها من الحِقد
دَعا الهندوسَ والإِسلا   مَ للأُلفةِ والوُدِّ
بسحرٍ من قُوَى الروحِ   حَوَى السَّيْفَيْن في غِمد
وسلطانٍ من النفسِ   يُقوِّي رائِض الأَسْدِ
وتوفيقٍ منَ الله   وتيْسيرٍ من السَّعد
وحظٍّ ليس يُعطاهُ   سِوَى المخلوقِ للخلدِ
ولا يُخَذ بالحَوْلِ   ولا الصَّوْلِ، ولا الجُند
ولا بالنسل والمال   ولا بالكدحِ والكدِّ
ولكن هِبةُ المولى   — تعالى الله — للعبد

سلامُ النيل يا غَنْدِي وهذا الزهرُ من عندي
وإجلالٌ من الأَهرا مِ، والكرْنكِ، والبَرْدِي
ومن مَشْيَخَةِ الوادِي ومن أَشبالِهِ المُرْدِ
سلامٌ حالِبَ الشَّاةِ سلامٌ غازلَ البُرْدِ
ومَن صَدَّ عن المِلح ولم يُقبِل على الشُّهد
ومَنْ ترْكبُ ساقيْهِ من الهندِ إلى السِّنْدِ
سلامٌ كلَّما صلَّيْـ ـت عُريانًا، وفي اللِّبد
وفي زاويةِ السجن وفي سِلسِلةِ القيدِ
مِنَ (المائِدَةِ الخضْرَا ءِ)[٣٠] خُذْ حَذْرَكَ يا غنْدِي
ولاحظْ وَرَقَ «السِّيرِ» وما في ورق «اللورْدِ»
وكنْ أَبرَعَ مَن يَلعَـ ـبُ بالشَّطْرَنْجِ والنَّرْد
ولاقي العبقريِّينَ لِقاءَ النِّدِّ للنِّدّ
وقل: هاتوا أَفاعيَكم أَتى الحاوي من الهند!
وعُدْ لم تحفِل الذَّامَ ولم تَغتَرَّ بالحمد
فهذا النجمُ لا تَرْقَى إليه هِمَّةُ النقدِ
ورُدَّ الهندَ للأُمَّـ ـةِ من حدٍّ إلى حَدِّ

تَحِيَّةِ أَبُولُّو

«أبولو: مجلة فنية لخدمة الشعر الحيِّ، كان يصدرها مرة كل شهر — في سنة ١٩٣٢ — الدكتور أحمد زكي أبو شادي، فقال يحييها»

أَبولُّو، مَرحَبًا بك يا أَبولُّو فإنك من عُكاظِ الشعرِ ظِل
عُكاظُ وأَنتِ للبُلغاءِ سُوقٌ على جَنَباتِها رحَلوا وحلُّوا
ويَنبوعٌ من الإنشادِ صافٍ صدى المتأَدِّبين به يُقَلُّ
ومَضمارٌ يسوقُ إلى القوافي سوابِقُها إذا الشُّعراءُ قلُّوا
يقول الشِّعرَ قائلُهم رصينًا ويُحسِنُ حين يُكثِرُ أَو يُقِلُّ
ولولا المُحسنونَ بكلِّ أَرضٍ لما ساد الشُّعُوبُ ولا استقلُّوا

عسى تأْتينَنا بمُعَلَّقاتٍ نَروحُ على القديمِ بها نُدِلُّ
لعلَّ مَواهبًا خَفِيَتْ وضاعت تُذاعُ على يَديكِ وتُستَغَلُّ
صحائِفُكِ المدبَّجَةُ الحواشي رُبَى الوَرْدِ المُفتَّح أَو أَجَلُّ
رياحينُ الرِّياضِ يُمَلُّ منها ورَيحَانُ القرائِحِ لا يُمَلُّ
يُمَهِّدُ عَبقريُّ الشِّعر فيها لكلِّ ذخيرةٍ فيها مَحَلُّ
وليس الحقُّ بالمنقوصِ فيها ولا الأَعراضُ فيها تُستحَلُّ
وليستْ بالمجالِ لِنَقدِ باغٍ وراءَ يَراعِهِ حَسَدٌ وغِلُّ

أُغْنِيَة

«نظمها بلبنان في صيف سنة ١٩١٣ لتغنيها إحدى القيان»

بِي مِثلُ ما بِكِ يا قُمرِيَّةَ الوادي
ناديتُ ليلى، فقومي في الدُّجَى نادي
وأَرسِلي الشَّجوَ أَسجاعًا مُفصَّلةً
أَو رَدّدِي من وراءِ الأَيْكِ إِنشادي
لا تكتُمِي الوَجْدَ؛ فالجرحانِ من شَجَنٍ
ولا الصبابةَ؛ فالدمعان من وادِ
تَذَكري: هل تلاقَيْنا على ظمإٍ؟
وكيف بلَّ الصَّدَى ذو الغُلَّةِ الصادي؟
وأَنتِ في مجلِسِ الرَّيحانِ لاهيةٌ
ما سِرْتِ من سامرٍ إلا إِلى نادي
تذكري قُبلةً في الشَّعرِ حائرةً
أَضَلَّها فَمَشَتْ في فُرْقِكِ الهادي
وقُبلةً فوقَ خدٍّ ناعمٍ عَطِرٍ
أَبهى من الوردِ فِي ظلِّ النّدَى الغادي
تذكري منظرَ الوادي، ومجلِسَنا
على الغديرِ، كعُصفورَيْنِ في الوادي

والغُصنُ يحنو علينا رِقَّةً وجَوًى
والماءُ في قدَمَيْنا رائحٌ غادِ
تذكري نغماتٍ هاهُنا وهُنا
من لحنِ شاديةٍ في الدَّوحِ أَو شادي
تذكري مَوْعدًا جادَ الزمان به
هل طِرتُ شوقًا؟ وهل سابقتُ مِيعادي؟
فنلتُ ما نلتُ من سُؤْلٍ، ومن أَملِ
ورحتُ لم أَحصِ أَفراحي وأَعيادي؟

يَا شِرَاعًا وَرَاءَ دِجْلَة

«غنَّاها بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة زيارته لتلك البلاد في سنة ١٩٣١»

يا شراعًا وراءَ دِجلةَ يَجري — في دموعي تجنبَتكَ العَوادي
سِر على الماءِ كالمسيحِ رُويدًا — واجْر في اليمِّ كالشعاع الهادي
وأْتِ قاعًا كرفرَفِ الخلدِ طِيبًا — أَو كَفِرْدَوْسِهِ بشاشَةَ وادي
قِفْ، تمهَّلْ، وخُذ أَمانًا لقلبي — من عيونِ المهَا وراءَ السَّوادِ
والنُّواسِيُّ والنَّدامَى؛ أَمنِهِم — سامرٌ يملأُ الدُّجَى أَو نادِ؟
خَطَرَتْ فوقه المِهارةُ تعدو — في غُبارِ الآباءِ والأجداد
أُمَّةٌ تُنشِئ الحياةَ، وتَبنى — كبِناءِ الأُبوَّةِ الأَمجاد
تحتَ تاجٍ من القرابة والمُلْـ — ـكِ على فَرْقِ أَرْيحيٍّ جواد
ملك الشطِّ، والفراتيْنِ، والبطـ — ـحاءِ، أَعظِمْ بِفَيْصَلٍ والبلاد

الرَّجُلُ السَّعيد[٧]

«وهي ترجمة أبيات فرنسية عنوانها: L. home heureux لسمو الأمير حيدر فاضل»

[٧] نُشِرَت في مجلة الكشكول سنة ١٩٢٥.

عَفِيفُ الجَهْرِ والهمْسِ ... قَضَى الواجِبَ بالأَمْسِ
ولم يَعْرِضْ لِذِي حقٍّ ... بِنُقصانٍ ولا بَخْس
وعِندَ الناس مجهولٌ ... وفي أَلْسُنِهِمْ مَنْسِي
وفيه رقَّةُ القلْبِ ... لآلامِ بَني الجِنْسِ
فلا يَغْبِطُ ذا نُعْمى ... ويَرْثِي لأَخِي البُؤسِ
وللمحرُومِ والعافي ... حَوَالَيْ زادِهِ كُرْسِي
وما نَمَّ، ولا هَمَّ ... بِبَعْضِ الكَيْدِ والدَّسِّ
ينامُ الليلَ مَسْرورًا ... قليلَ الهَمِّ والهَجْس
ويُصْبحُ لا غُبارَ على ... سَرِيرَتِهِ كما يُمْسِي
فيا أَسعدَ من يَمشي ... على الأرضِ مِنَ الإِنْس
ومَنْ طَهَّرَهُ اللهُ ... من الرِّيبَةِ والرِّجْسِ
أَنِلْ قَدْرِيَ تَشْرِيفًا ... وهَبْ لي قُرْبَكَ القُدْسِي
عسى نَفسُكَ أَن تُدمـ ... ـج في أَحلامِها نَفسي
فأَلْقَى بَعض ما تَلْقى ... من الغِبطةِ والأُنْسِ!

الأَثَر

وجَدْتُ الحياةَ طريقَ الزُّمَرْ ... إلى بعْثةٍ وشُئون أُخر
وما باطِلاً يَنزِلُ النازلون ... ولا عَبثًا يُزْمِعونَ السَّفَرْ
فلا تَحتَقِرْ عالَمًا أَنتَ فيه ... ولا تَجْحَدِ الآخَرَ المُنْتَظَر
وخُذْ لكَ زادَيْنِ: من سِيرة ... ومن عملٍ صالحٍ يُدَّخَر
وكن في الطريق عفيفَ الخُطا ... شريفَ السَّمَاع، كريمَ النظر
ولا تخْلُ من عملٍ فوقَه ... تَعِشْ غير عَبْدٍ، ولا مُحتَقَر
وكن رجلاً إن أَتَوْا بَعدَه ... يقولون: مَرَّ وهذا الأَثَرْ

السِّتَار

قدَّمْتُ بين يَدَيَّ نَفْسًا أَذنبَتْ ... وأَتيْتُ بينَ الخوْفِ والإقرار
وجَعَلْتُ أَسْتُرُ عن سِواك ذنوبَها ... حتى عَيِيتُ، فمُنَّ لي بستار!

هوامش

(١) المأمون بن الرشيد العباسي، وعصره من أزهى عصور الدولة الإسلامية.
(٢) الأقسام: الحظوظ.
(٣) يشير إلى قول النابغة:

نفس عصام سوَّدت عصاما وعلَّمته الكر والإقداما

وعصام حاجب النعمان بن المنذر، وإليه ينسب كل عصامي.
(٤) الأواسي: الدعائم والأبنية المحكمة.
(٥) يشير إلى حديث التاريخ عن حريق مكتبة الإسكندرية.
(٦) يشير إلى ما كان من حدَّة الخلاف بين زعماء مصر في ذلك التاريخ.
(٧) الصياصي: الحصون. والعتاد: عدَّة الحرب.
(٨) الميكادو: الملك في لغة البابان.
(٩) العهاد: المطر.
(١٠) الانطياد: الارتفاع.
(١١) يعني وفود البلاد العربية التي اجتمعت لتكريمه ومبايعته بإمارة الشعر في مارس من تلك السنة نفسها.
(١٢) هو المرحوم محمد طلعت حرب باشا مؤسس البنك.
(١٣) قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ذائعة مشهورة.
(١٤) يعني منشئ دار العلوم المرحوم علي مبارك باشا.
(١٥) محمد طلعت حرب.
(١٦) يشير إلى مقابلة سعد زغلول وصاحبيه لممثل بريطانيا في مصر في نوفمبر من سنة ١٩١٨ ليطالبوا باستقلال مصر.
(١٧) لامت: لأمت.
(١٨) روح الله: عيسى، والكليم: موسى، عليهما السلام.
(١٩) جعفر البرمكي، ونكبة البرامكة مشهورة في تاريخ الرشيد.
(٢٠) من قصور بني الأحمر في غرناطة بالأندلس: (الهمبرا).
(٢١) الغريض ومعبد: من أمراء الغناء العربي.

(٢٢) زيدت هذه في الطبعة الثانية.

(٢٣) الكفاري: العظيم الأذنين، يشير إلى تمثال أبي الهول.

(٢٤) يشير إلى الأهرام.

(٢٥) ليس يألو الريح.. إلخ: ليس يقصر عنها.

(٢٦) يريد صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا.

(٢٧) مواقير: موقرة: مثلقة بما تحمل.

(٢٨) يشير إلى أصله «الرومي» وإلى أيادي بني مروان على العروبة، بما فتحوا من بلاد الروم، وبما استعرب من أهلها.

(٢٩) الباخرة التي أَقلَّت غاندي من الهند إلى لندن.

(٣٠) يطير إلى المؤتمر الذي كان مسافرًا إليه للبحث في دستور الهند.

الخصوصيات

أَبُو عَلِي

«وقال عندما بُشِّرَ بابنه علي شوقي»

صارَ شوْقِي أَبا علي   في الزمان «الترَلَّلِي»
وجَـنـاهـا جـنـايـةً   لـيسَ فـيـها بـأَوَّلِ!

الزَّمَنُ الأَخِير

«وقال في ذلك أيضًا»

عليٌّ، لو اسْتشرتَ أَباكَ قبْلاً   فإِن الـخير حظُّ المُسْتشِـير
إِذًا لـعَـلِـمْـتَ أَنَّـا فـي غَـنـاءٍ   وإِن نكُ من لقائِكَ في سرور
وما ضِقنا بِمقدَمِكَ المُفَدَّى   ولكن جئتَ في الزمَن الأخير!

صَاحِبُ عَهْدِه

«وقال أيضًا»

رُزِقتُ صاحِبَ عهْدي   وتمَّ لي النسْلُ بَعدي
هُم يَحسُدونِي عليهِ   ويغبِطوني بِسَعدي

ولا أَراني ونجلي   سَنَلتقي عند مَجد
وسوْف يَعلَمُ بَيتي   أَني أَنا النَّسْلُ وحْدي
فيا عليِ، لا تلُمْني   فما احتِقارُكَ قَصْدي
وأَنتَ مِني كرُوحِي   وأَنت مَنْ أَنت عندي!
فإِن أَساءَكَ قوْلي   كذِّبْ أَباكَ بوعْدِ!

يَالَيْلَة!

«وكانت ولادة بنته أمينة ووفاة والده في ساعة واحدة، فقال في ذلك»

يا لَيْلَةً سَمَّيْتُهَا لَيْلَتي   لأَنها بالناس ما مَرَّتِ
أَذكرُها، والموتُ في ذِكرها   على سبيلِ البَثِّ والعِبْرَةِ
لِيَعْلَمَ الغافِلُ ما أَمْسُه؟   ما يومُهُ؟ ما مُنْتَهى العِيشةِ؟
نَبَّهني المقدورُ في جُنْحِها   وكنتُ بين النَّوْم واليَقْظةِ
الموتُ عَجْلانٌ إِلى والدِي   والوَضْعُ مُسْتَعْصٍ على زَوْجَتي
هذا فتًى يُبْكَى على مِثلِه   وهذه في أَوَّلِ النَّشْأَةِ
وتلك في مِصْرَ على حالِها   وذاكَ رَهْنُ الموْتِ والغُرْبَةِ
والقلبُ ما بَينَهما حائرٌ   من بَلْدَةٍ أَسْرى إِلى بَلدةِ
حتى بَدا الصُّبحُ، فوَلَّى أَبى   وأَقبلَتْ بعدَ العَناءِ ابْنَتي
فقلتُ: أَحكامُكَ حِرْنا لها   يا مُخرجَ الحيِّ منَ الميِّتِ!

أَمِينَة

«وقال حين اكتملت بنته حولاً يصفها في هذا العمر»

أَمِينتي في عامِها   الأَوَّلِ مِثلُ المَلَكِ
صالحةٌ للحُبِّ مِنْ   كلٍّ، وللتَّبَرُّك
كم خَفَقَ القلبُ لها   عِندَ البُكا والضَّحِك
وكم رَعَتْها العَيْنُ في الـ   سُّكونِ والتَّحرُّك

فإن مَشَتْ فخاطِري		يَسبِقُها كالمُمْسِك
أَلحَظُها كأنها		من بَصَرِي في شَرَك
فيا جَبينَ السَّعْدِ لي		ويا عُيُونَ الفَلَك
ويا بياضَ العيْشِ في		الأَيَّامِ ذاتِ الحَلَك
إنّ الليالي وهْيَ لا		تَنْفَكُّ حَرْبَ أَهلِك
لو أَنصَفَتْكِ طِفلةً		لكنتِ بنتَ المَلِكِ!

طِفْلَةٌ لاَهِيَةٌ

«وقال يهنئها بسنتها الثانية»

أمينةُ، يا بِنتيَ الغاليَة		أُهَنِّيكِ بالسَّنةِ الثانِية
وأسأَلُ أَنْ تَسلَمي لي السنينَ		وأَنْ تُرْزَقي العَقلَ والعافية
وأَنْ تُقْسَمي لأَبَرِّ الرجالِ		وأَنْ تِلدي اَلأَنفُسَ العاليه
ولكنْ سأَلتُكِ بالوالِدَيْن		وناشدتُك اللُّعَبَ الغاليه
أَتدرِين ما مرَّ من حادِثٍ		وما كان في السَّنةِ الماضيه؟
وكم بُلْتِ في حُللٍ من حريرٍ		وكم قد كسَرْتِ منَ الآنِيه؟
وكم سَهَرتْ في رِضاكِ الجفونُ		وأَنتِ على غَضَبٍ غافِيه؟
وكم قد خَلتْ من أَبيكِ الجيوبُ		وليسَتْ جُيوبُكِ بالخاليه؟
وكم قد شكا المُرَّ من عَيْشه		وأَنتِ وحَلواكِ في ناحيه؟
وكم قد مرِضْتِ، فأَسقمتِه		وقمتِ، فكنتِ له شافيه؟
ويَضحكُ إن جِئتِه تضحكينَ		ويَبكي إذا جِئتِه باكيَه!
ومن عَجَب مرَّتِ الحادثاتُ		وأَنتِ لأَحدَاثِها ناسيَه!
فلو حَسَدَتْ مُهجةٌ وُلْدَها		حسدْتُكِ من طِفلةٍ لاهيَه!

الأَنَانيَة

«ونظم هذه الحكاية فيها وفي كلب لها أسود صغير»

يا حَبَّذا أَمينةٌ وكلبُها تُحِبُّهُ جدًّا كما يُحبُّها
أَمينتي تحبو إِلى الحَوْليْنِ وكلبُهَا يُنَاهِزُ الشهرَينِ
لكِنَّها بَيضاءُ مثلُ العاجِ وعبْدُها أَسوَدُ كالدَّياجِي
يلزَمُها نهارَها وتلزمُهْ ومِثلَما يُكرِمُها لا تُكرمُهُ
فعندَها من شدَّةِ الإشفاقِ أَن تأْخُذ الصغيرَ بالخِناقِ
في كلِّ ساعةٍ له صِياحُ وقلَّما يَنعَمُ، أَو يرتاحُ
وهذِهِ حادثةٌ لها مَعَهْ تُنبيك كيفَ استأْثرَتْ بالمنفعَهْ
جاءَتْ به إِلَيَّ ذاتَ مَرَّة تَحمِلُهُ وهْي بِه كالبَرَّهْ
فقلتُ: أَهلا بالعَرُوسِ وابنِها ماذا يكونُ يا تُرى مِن شأْنِها؟
قالت: «غلامى» يا أَبى جَوْعانُ وما لهُ كما لنا لِسانُ
فمُرهُمُوا يَأْتُوا بخبزٍ ولبنْ ويُحضِروا آنِية ذاتَ ثمنْ
فقُمتُ كالعادةِ بالمطلوب وجئتُها أَنظرُ من قريب
فَعَجَنَتْ في اللبنِ اللُّبابا كما تَرانا نُطعمُ الكلابا
ثم أَرادَتْ أَن تَذوقَ قبلَه فاستَطْعَمَتْ بنْتُ الكِرام أَكلَه
هُناكَ أَلقَتْ بالصَّغيرِ للوَرا واندَفعتْ تَبكي بُكاءً مُفْتَرَى
تقول: بابا، أَنا (دَحَّا) وهْوَ (كُخّ) معناه: بابا، ليَ وحْدِي ما طُبِخ
فقلْ لمنْ يَجهَل خَطْبَ الآنِيَهْ قد فُطِرَ الطِّفلُ على الأَنانِيَه

لُعْبَة

«وقال فيما ينفع أمينة من اللعب، وأشار إلى رأس السنة الميلادية الذي يكثر فيه بيعها»

صِغارٌ بحُلوانَ تَستَبْشِرُ ورُؤيَتُها الفرَحُ الأَكبَرُ
تَهُزّ اللواءَ بعيدِ المَسِيحِ وتُحيِيهِ من حيثُ لا تَشعُر
فهذا بلُعْبَتِه يَزدَهِي وهذا بحُلَّتِه يَفخَر
وهذا كغُصْنِ الرُّبا يَنْثَني وهذا كريح الصَّبا يَخطِر
إذا اجتمَعَ الكلُّ في بُقعة حَسبِتَهُموا باقةً تُزهِر

أَو افتَرقوا واحدًا واحدًا　　حَسِبتَهُموا لؤلؤًا يُنْثر
ومِنْ عَجَبٍ منهُمو المسلِمونَ　　أَو المسلمونَ هُمُ الأَكثر
فلاسِفةٌ كلُّهمْ في اتِّفاقٍ　　كما اتَّفَقَ الآلُ والمعشَر
ديسَمْبِرُ شعبانُ عند الجميعِ　　وشَعبانُ للكلِّ دَيسَمْبِر
ولا لُغةٌ غيْرَ صَوْتٍ شَجِيٍّ　　كرَوْضٍ بَلابلُه تَصْفِر
ولا يَزدَرِي بالفقيرِ الغنِيُّ　　ولا يُنكرُ الأَبيَضَ الأَسمر
فياليتَ شِعرِي أَضلَّ الصِغارُ　　أَمْ العقلُ ما عنهمو يُؤثَر؟
سؤال أَقدِّمه للكبار　　لعلَّ الكبارَ به أَخبَر
ولي طِفلةٌ جازَتِ السَّنَتيْنِ　　كبعضِ الملائِكِ، أَو أَطهَرُ
بعَيْنَيْنِ في مثل لونِ السَّماءِ　　وسِنَّيْنِ يا حَبَّذَا الجَوْهَر!
أَتتنِيَ تسأَلُني لُعْبةً　　لِتكسِرَها ضِمْنَ ما تكسِر
فقلتُ لها: أَيُّهذا الملاكُ　　تحِبُّ السَّلامَ، ولا أُنكِر
ولكنَّ قبلَكَ خابَ المسيحُ　　وباءَ بمنشورِه القَيْصَر
فلا تَرْجُ سلْمًا من العالمينَ　　فإِنّ السباعَ كما تُفْطَر
ومَنْ يَعدَمِ الظُّفْرَ بينَ الذِّئابِ　　فإِنّ الذِّئابَ به تَظْفَر!
فإِنْ شِئتَ تحيا حياةَ الكِبار　　يُؤمِّلُكَ الكلُّ، أَو يَحذر
فخذْ، هاكَ (بُندُقةً) نارُها　　سلامٌ عليكَ إِذا تُسْعَر
لعلكَ تألُفها في الصِّبا　　وتخلُفها كلَّما، تكبَر
ففيها الحياةُ لمن حازَها　　وفيها السعادةُ والمَفْخَر
وفيها السلامُ الوَطِيدُ البناءِ　　لمن آثرَ السِّلمَ أَو يُؤثِر
فلوبيلُ مُمسِكةٌ موْزَرًا　　ولوبيلُ تُمْسِكها مَوْزَر[1]
أَجابَتْ وما النُّطْقُ في وُسْعِها　　ولَكنّها العَيْنُ قد تُخْبِرُ
تقول: عجيبٌ كلامُك لي　　أَبِالشَّرِّ يا والِدِي تأْمُرُ؟
تَزين لبنتِكَ حبَّ الحروبِ　　وحُبُّ السلامِ بها أَجدَر!
وأَنتَ امرؤ لا تُحبُّ الأَذى　　ولا تَبتغيه، ولا تأْمُرُ!
فقلتُ: لأَمرٍ ضَلَلتُ السبيلَ　　ورُبَّ أَخي ضَلَّةٍ يُعْذَرُ
فلو جيءَ بالرسْل في واحدٍ　　وبالكتْب في صفحةٍ تُنْشَر

وبـالأَوَّلـيـن ومـا قـدَّمـوا وبـالآخِـريـنَ ومـا أَخَّـروا
ليَنْهَضَ ما بينهُمْ خاطِبا على العَرشِ نصٌّ له مِنْبَر
يقولُ: «السلامُ» يُحِبُّ السلامَ ويأْجُرُكم عنه ما يَأْجُر
لصُمّ العبادُ فلم يسمعوا وكُفّ العِبادُ فلم يُبْصروا

زَيْنُ الْمُهُود[١]

«وقال وقد قبَّلها قبلة في الصباح»

يا شِبهَ سيِّدَةِ البَتُو لِ، وصورةَ الملَك الطَّهورْ
نَسَّى جمالُكِ في الإنا ثِ جمالَ يوسُفَ في الذكور
زَيْنُ المُهودِ اليومَ أنـ ـتِ، وفي غدٍ زينُ الخُدور
إنّ الأَهِلَّةَ إن سَرَتْ سارت على نَهج البُدور
بِأَبي جبينٌ كالصَّبَا حِ إذا تهيَّأَ للسُّفور
بَقِيَتْ عليه من الدُّجى تلك الخُيُوطُ من الشُّعور
وكرائمٌ من لؤلؤٍ زيَّنَّ مَرْجانَ النُّحور
سبحانَ مُؤتِيها يَتا ئِمَ في المَراشف، والثُّغور
تَسقي وتُسقَى من لُعا بِ النَّحل، أو طَلِّ الزهور
وكأَنَّ نَفحَ الطِّيبِ حو لَ نَضيدِها أنفاسُ حُور
وغريبةٌ فوقَ الخدو دِ، بديعةٌ من وَرْدِ جُور
صفراءُ عند رَواحِها حمراءُ في وقتِ البُكور
قبَّلتُها، وشَمَمْتُها وسقيْتُها دَمْع السرور

أَوَّلُ خَطْوَه

«وقال يذكر دخول ولده علي في السنة الثانية من عمره»

---

[١] زيدت في هذه الطبعة الثانية.

هــذِهِ أَوَّلُ خــطــوَهْ هــذِهِ أَوّلُ كــبْــوَهْ
فــي طــريـقــي لِـعـلــيٍّ عنهُ لو يَعقِلُ غُنْوَه[٢]
يـأْخُـذُ الـعـيـشَـةَ فـيـه مُــرَّةً آنًــا، وحُــلــوَه
يا علِي إِن أَنتَ أَوفيْــ ــتَ على سِنِّ الفُتُوَّه
دافِع الـنـاسَ، وزاحِـمْ وخُـذِ الـعـيْـشَ بـقُـوَّه
لا تقلْ: كان أَبي! إِيَّــ ــاكَ أَن تَحْذُوَ حَذْوَه!
أَنا لم أَغنَمْ من النا سِ سوى فنجان قهوَه
أَنا لم أُجْزَ عن المَدْ ح من الأَملاكِ فروَه!
أَنا لم أُجْزَ عن الكتْــ ــبِ من القُرَّاءِ حُظوَه!
ضَـيَّـعَ الـكلُّ حـيـائِـي وعـفـافـي، والـمُـرُوَّه!

يَوْمُ فرَاقه

«وقال وقد بكى طفلاه وتشبثا به ألا يخرج»

بكـيـا لأَجلِ خُـروجـهِ فـي زَوْرَةٍ يا ليْتَ شِعْري: كيف يومُ فِراقِه؟!
لـو كـان يَـسـمَـعُ يَـومَـذاك بُـكـاهُـما رُدَّتْ إِلـيـهِ الـروحُ مـن إِشـفـاقـه

مَظْلُوم

«وكتب إلى عزيزه وظهيره صاحب العطوفة المرحوم أحمد مظلوم باشا من باريز، يهنئه بالنيشان المجيدي الأوَّل»

أَقسمْتُ لوْ أَمَرَ الزمانُ سماءَه فسعَتْ لِصَدْرِك شمسُها ونُجُومُها
لِيُنيلَ قدْرَك في المعالي حَقَّه شكَت المعالي أنه مَظلومُها

سَرَّنَا أَنَّكَ ارْتَقَيْت

«وبعث من باريز بهذا التاريخ إلى صاحب السعادة محمود شكري باشا يهنئه برتبة المتمايز» (١٩٠٣)

يا عزيزًا لنا بمصرَ عَلِمنا   أَنه بالرِّضا الخديويِّ فائِز
سَرَّنا أَنكَ ارتقيْتَ وتَرقَى   فكأَنا نحوزُ ما أَنتَ حائز
رتُبةً أَلسُنُ العُلا أَرَّخَتْها   أَنت محمودٌ في العُلا المُتمايِز

بَلَّغْتَني أَمَلاً

«وقال يشكر صاحب العطوفة المرحوم أحمد مظلوم باشا علي معروف صنعه معه»

ذِي همَّة دونها في شأْوها الهِممُ   لم تتَّخذْ «لا»، ولم تكذِب لها «نعمُ»
بلَّغتني أَمَلاً ما كنْتُ بالغَهُ   لولا وفاؤُك — يا مظلومُ — والكرَمُ
ودَادُك العِزُّ والنُّعمى لخاطِبِه   ووُدُّ غيركَ ضحكُ السِّنِّ، والكَلم
أَكلَّما قَعَدَتْ بي عنك معذرَةٌ   مَشتْ إِليَّ الأَيادي منكَ والنِّعم؟
تُجِلُّ في قلَم الأَوطانِ حامِلَهُ   فكيف يَصبرُ عن إِجلالِك القلم؟

أُصيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصبْتَ

«وكتب إلى صديقه المفضال سعادة المرحوم إسماعيل باشا صبري يهنئه بالسلامة، على أثر حادثة في القطار»

أتتني الصُّحْفُ عنك مُخبِّرَاتِ   بحادِثةٍ ولا كالحادِثاتِ
بخَطبِكَ في القِطار أَبا حُسَيْنٍ   وليس منَ الخُطوبِ الهيِّنات
أَصيبَ المجدُ يومَ أُصِبْتَ فيه   ولم تخْلُ الفَضيلةُ منْ شَكاة
وساءَ الناس أَنْ كبَتِ المعالي   وأَزعجَهُمْ عِثارُ المَكرُمات
ولستُ بناسٍ الآدابَ لمَّا   تَراءَتْ رَبِّها مُتلهِّفات
وكان الشِّعْرُ أَجزَعَها فُؤَادًا   وأَحرَصَها لدَيْكَ على حياة
هجَرْتَ القَوْلَ أَيامًا قِصارًا   فكانَتْ فَترةً للمُعْجِزات
وأَن ليالِيًا أَمسكْت فيها   لسُودٌ لليَراعِ وللدَّواة
فقلْ لي عن رَضوضِك: كيف أَمْستْ؟   فقَلبي في رُضوضٍ مُؤْلِمات
وهَبْ لي مِنك خَطًّا أَو رسولاً   يُبَلِّغُ عَنكَ كلَّ الطَّيِّبات

سأَلْتُكَ بالْوِدَادِ

«وكتب إلى سعادته يهنئه بتعيينه وكيلاً لنظارة الحقَّانية»

سأَلتُكَ بالوِدادِ أَبا حُسيْنٍ وبالذِّمَمِ السَّوالِف والعُهودِ
وحبٍّ كامِنٍ لكَ في فؤادي وآخَرَ في فُؤادِكَ لي أَكيد
أَحَقٌّ أَنَّ مَطْوِيَّ الليالي سَيُنشَرُ بين (أَحمدَ) و(الوليدِ)؟
وأَنَّ مناهِلاً كنّا لدَيْها ستدْنو للتَّأَنُّسِ والوُرود؟
قدومُكَ في رُقِيِّكِ في نَصيبي سُعودٌ في سُعودٍ في سعود
وَفَدْتُ على رُبوعِكَ غِبَّ نَأيٍ وكنتَ البدْرَ مأْمولَ الوُفود
لئنْ رَفعوكَ مَنزلةً فأَعلى لقدْ خُلِقَ الأَهِلَّةُ للصُّعود
وأُقسِمُ ما لرفعَتِكَ انتِهاءٌ ولا فيها احتمالٌ للمزيد

اهْنَأْ أَخِي

«وكتب إلى صديقه الفاضل صاحب العزَّة حمزة بك فهمي يهنئه برتبة المتمايز الرفيعة»

قالوا: «تمايَزَ» حمزَةُ قلتُ: «التَّمَايُزُ» من قديمِ
لو لم يَمِيزوهُ بها لا مْتازَ بالخُلُقِ العظيم
رُتَبٌ كرائِمُ في العُلا وُجِّهْنَ منكَ إلى كريم
فاهنأْ أَخِي بِوُفودِها وتلقَّ تَهنِئَةَ الحَميم
وارْقَ المنازلَ كلَّها حتى تُنِيفَ على النُّجوم

يَانَصِيب

«وقال يعابث صديقه الشاعر خليل بك مطران، وقد جاءه أنه ربح ربحًا»

لقد وافَتْنيَ البُشرى وأُنْبِئْتُ بما سَرَّا
وقالوا عنْكَ لي أَمسِ ربِحتَ النِّمرَةَ الكبرى

فيا مُطرانُ، ما أَوْلى ... ويا مُطرانُ، ما أَحْرى
لقد أَقبَلتِ الدنيا ... فلا تجزَع على الأُخرى
أَخذْتَ الصِّفرَ باليُمنى ... وكان الصِّفرُ باليُسرى
وكانت فضَّةً بيضًا ... فصارت ذَهبًا صُفرا
وقال البعضُ: أَلفَيْنِ ... وقالوا: فوْقَ ذا قَدْرَا

الْمُدَامةُ

(وقال عن بعض شعراء الترك)

كنْ في التواضُعِ كالمُدا ... مَةِ حين تُجْلى في الكُئوسْ
مَشَتِ اتِّئادًا في الصُّدور ... فحكُموها في الرءُوسُ

تارِيخ

(وقال يؤرخ ديوانه الأول — الشوقيات — وقد صدر في سنة ١٣١٧هـ)

وجَنَّاتٍ منَ الأَشعار فيها ... جَنًى لِلمجْتَنِي من كلِّ ذوْق
تأَمَّلْ كمْ تمنَّوْها وأَرِّخْ ... لِشوقِيَّاتِ أَحمدَ أَيَّ شوْق

أَلْيَقُ دِيوَانٍ ظَهَرَ

وقال يؤرخ الشوقيات أيضًا»

مجمُوعَةٌ لأَحمَدٍ ... مُعْجِزُه فِيها بهَرْ
تُعَدُّ في تاريخِها ... أَليَقَ ديوانٍ ظَهَرْ

هوامش

(١) لوبيل: اسم تدلل به أمينة، وموزر: نوع من البنادق سريع الطلقات كان له شهرة قبل الحرب الحاضرة.

(٢) الغنوة: الغنى، يقول: هو في غنى عن سلوك طريقي.

الحكايات

أَنْتَ وَأَنا

يـحـكـونَ أَنَّ رَجُـلا كُـرْدِيًّـا   كان عظيمَ الجسمِ هَمْشَرِيًّا
وكان يُلقِي الرُّعْبَ في القلوبِ   بكَثْرةِ السِّلاحِ في الجُيوبِ
ويُفْزعُ اليَهودَ، والنَّصارَى   ويُرْعِبُ الكِبارَ، والصِّغار
وكلَّما مَرَّ هُناك وهُنا   يَصيحُ بالناس: أَنا! أَنا! أَنا!
نَمَى حديثُه إِلى صبيٍّ   صغيرِ جِسمٍ، بطلٍ، قويٍّ
لا يَعْرِفُ الناسُ له الفُتُوَّهْ   وليس مِمَّنْ يَدَّعون القوَّهْ
فقال للقوْمِ: سأُدْريكم بِهِ   فتَعلمون صِدْقَه من كِذبِهِ
وسارَ نحوَ الهَمْشَرِيِّ في عَجَلْ   والناسُ مما سيكونُ في وَجَلْ
ومَدَّ نحوَه يَمينًا قاسِيَهْ   بضربةٍ كادَتْ تكونُ القاضِيَهْ
فلم يُحَرِّكْ ساكِنًا، ولا ارتبَكْ   ولا انتَهى عن زَعمِه، ولا تَرَكْ
بلْ قال للغالب قوْلاً ليِّنا: الآنَ صرْنا اثنيْن: أَنتَ وأَنا

نَديمُ الْبَاذِنْجَانِ

كان لسُلطانٍ نديمٌ وافِ   يُعيدُ ما قال بِلا اختلافِ
وقد يزيدُ في الثَّنا عليهِ   إِذا رأَى شيئًا حَلا لديهِ
وكان مَولاهُ يَرى، ويَعلمُ   ويسمعُ التَّمليقَ، لكنْ يَكتُمُ

فجلسَا يومًا على الخِوانِ وجيءَ في الأَكل بِباذِنجانِ
فأَكل السلطانُ منه ما أَكلْ وقال: هذا في المذاق كالعسَلْ
قال النديمُ: صدقَ السلطانُ لا يستوي شُهدٌ وباذِنجانُ
هذا الذي غَنى به «الرئيسُ»[١] وقال فيه الشِّعْرَ «جالينوسُ»
يُذهِبُ أَلفَ عِلَّةٍ وعِلَّهْ ويُبردُ الصَّدْرَ، ويَشْفِي الغُلَّهْ
قال: ولكنْ عنْده مراره وما حَمدتُ مَرَّةً آثارَهْ
قال: نعم، مُرٌّ، وهذا عَيْبُه مُذْ كنتُ يا مولاي لا أُحِبُّه
هذا الذي مات به «بُقراطُ» وسُمَّ في الكأْسِ به «سُقراطُ»
فالتفتَ السلطان فيمنْ حولَه وقال: كيف تجدون قولَهْ؟
قال النديمُ: يا مَليكَ الناسِ عُذرًا؛ فما في فعلتي من باسِ
جُعلْتُ كيْ أَنادِمَ السلطانا ولم أَنادمْ قَطُّ باذِنجانا

ضِيافَةُ قِطَّة[١]

لستُ بناسٍ ليلةً من رَمَضَانَ مَرَّتِ
تطاوَلتْ مثلَ ليا لي القطْبِ، واكفهرَّتِ
إِذِ انفلَتُّ من سُحو ري، فدَخلتُ حُجرَتي
أَنظُرُ في ديوان شِعـ ـرِ، أَو كتابِ سِيرةِ
فلم يَرُعْني غير صوْ تٍ كمُواءِ الهِرَّة
فقمْتُ أَلقي السَّمـ عَ في السُّتُورِ، والأَسِرَّة
حتى ظفِرْتُ بالتي عليَّ قد تَجرَّت
فمُذ بدت لي، والتقتْ نَظَرتُها ونظرتي
عاد رَمادُ لَحْظِها مثلَ بَصيصِ الجَمرَة
وردَّدَتْ فحِيحَها كحَنَشٍ بقَفْرَة

---

[١] نُشِرَت في سنة ١٩٢٩.

ولبِسَتْ لي من ورا ... ءِ السترِ جلدَ النمرةِ
كرَّتْ، ولكن كالجَبا ... نِ قاعدًا، وفرَّت
وانتفضتْ شوارِبًا ... عن مثلِ بيتِ الإبرة
ورفعت كفًّا، وشا ... لتْ ذَنبًا كالمذرة
ثم ارتَقَتْ عن المُوا ... ءِ، فَعَوَتْ، وهَرَّتِ
لم أَجزِها بشِرَّةٍ ... عن غضبٍ وشِرَّة
ولا غَبيتُ ضَعفَها ... ولا نَسِيتُ قُدْرَتي
ولا رأَيتُ غيرَ أُمٍّ ... بالبنينَ بَرَّة
رأَيتُ ما يَعطِفُ نَفْـ ... ـسَ شاعرٍ من صورة
رأَيتُ جِدَّ الأُمَّها ... تِ في بناءِ الأسْرَة
فلم أَزَلْ حتى اطمَأَنَّ ... جأْشُها، وقَرَّت
أَتَيْتُها بشَربَةٍ ... وجئتُها بكِسْرَة
وصُنتُها من جانِبَيْ ... مَرْقَدِها بستُرَتي
وزِدْتُها الدِّفءَ، فقرَّ ... بْتُ لها مَجْمَرَتي
ولو وجدت مَصْيَدًا ... لجِئتُها بفأْرَة
فاضطجعَتْ تحت ظِلا ... ل الأَمْنِ واسبَطرَّت
وقرأَتْ أَورادَها ... وما دَرَتْ ما قَرَت
وسَرَحَ الصِّغارُ في ... ثُدِيِّها، فدَرَّت
غُرٌّ نجومٍ سُبَّحٌ ... في جَنَبَاتِ السُّرة
اختلطوا، وعَبَّثُوا ... كالعُمْي حَوْلَ سُفْرة
تَحسَبُهم ضَفادِعًا ... أَرسَلْتَها في جَرَّةٍ
وقلتُ: لا بأْسَ على ... طِفلِكِ يا جُوَيرَتِي
تَمَخَّضي عن خمسةٍ ... إن شِئتِ، أَو عن عَشْرَة
أَنتِ وأَولادُكِ حتَّى ... يَكبروا في خُفْرتي

الصَّيَّادُ وَالْعُصْفُورَة[٢]

حكايةُ الصَّيَّادِ والعُصفوره   صارتْ لبعض الزاهدين صوره
ما هَزَءُوا فيها بمستَحِقِّ   ولا أَرادوا أَولياءَ الحقِّ
ما كلُّ أَهلِ الزهدِ أَهلُ اللهِ   كمْ لاعبٍ في الزاهدين لاه
جعلتُها شِعرًا لتَلْفِتَ الفَطِنْ   والشِّعرُ للحكمةِ مُذْ كان وطَن
وخَيْرُ ما يُنْظَمُ للأَديب   ما نَطقَتْه أَلسُنُ التَّجْريب
أَلقَى غُلامٌ شَرَكا يَصطادُ   وكلُّ مَن فوق الثَّرى صَيَّادُ
فانحدرتْ عُصفورةٌ من الشَّجَرْ   لم يَنْهَها النَّهيُ، ولا الحزْمُ زَجَر
قالت: سَلامٌ أَيُّها الغُلامُ   قال: على العُصفورةِ السلامُ
قالت: صَبِيٌّ مُنْحَنِي القناةِ؟!   قال: حَنَتْها كثرةُ الصلاةِ
قالت: أَراك بادِي العِظامِ!   قال: بَرَتْها كثرةُ الصيامِ
قالت: فما يكونُ هذا الصوفُ؟   قال: لباسُ الزاهدِ الموصوفُ
سَلِي إذا جَهِلْتِ عارفيهِ   فابنُ عُبيدٍ والفُضَيْلُ فيه
قالت: فما هذِي العَصا الطويلةْ؟   قال: لِهاتِيكِ العَصا سَليله
أَهشُّ في المَرْعَى بها، وأَتَّكي   ولا أَرُدُّ الناسَ عن تبرُّكِ
قالت: أَرى فوق التراب حَبَّا   مما اشتَهى الطيرُ، وما أَحَبَّا
قال: تَشَبَّهْتُ بأَهل الخيرِ   وقلت أَقرِي بائساتِ الطَّيْرِ
فإِنْ هَدَى الله إِليه جائعا   لم يَك قرباني القليلُ ضائعا
قالت: فجُدْلى يا أَخا التَنسُّكِ   قال: القُطِيه. بارَك اللهُ لكِ
فصَلِيَتْ في الفخِّ نار القارِي   ومَصْرَعُ العصفورِ في المِنْقار
وهتَفَتْ تقول للأَغرارِ   مقالةَ العارفِ بالأَسرار:
«إِياكَ أَن تَغتَرَّ بالزُّهَّادِ   كم تَحتَ ثوبِ الزُّهدِ من صيَادِ!»

الْبَلَابِلُ التي ربَّاهَا الْبُوم

[٢] زيدت في هذه الطبعة الثانية.

أُنْبِئْتُ أَنّ سُليمانَ الزَّمَانِ ومَنْ ... أَصْبى الطُّيُورَ، فناجَتْهُ، وناجاها
أُعطَى بَلابلَهُ يـومـًا — يـؤدبـها ... لِحرمةٍ عندَه — لِلبُوم يَرعاها
واشتاق يومًا مِنَ الأيامِ رُؤيَتَها ... فأَقبلَتْ وهْيَ أَعْصَى الطَّيْرِ أفواها
أَصابَها العِيُّ، حتى لا اقتِدَارَ لها ... بأَنْ تَبُثَّ نبيَّ اللهِ شَكواها
فنالَ سيِّدَها من دائها غَضَبٌ ... وودَّ لو أَنه بالذَّبحِ داواها
فجاءَه الهُدْهدُ المعهُودُ مُعْتَذِرًا ... عنها، يقولُ لِموْلاهُ ومولاها:
بلابِلُ اللهِ لم تخرَسْ، ولا وَلِدَتْ ... خُرْسًا، ولكنَّ بُومَ الشؤْمِ ربَّاها

الدِّيكُ الْهِنْديُّ وَالدَّجَاجُ الْبَلَدي

بَينَا ضِعافٌ من دَجاج الرِّيفِ ... تَخطِرُ فِي بيتٍ لها طريفِ
إذ جاءَها هِنْدِي كبيرُ العُرْفِ ... فقام في الباب قيامَ الضَّيْف
يقولُ: حيَّا اللهُ ذي الوُجُوها ... ولا أَراها أَبدًا مكرُوها
أَتيْتُكم أَنشُرُ فيكم فضلي ... يومًا، وأَقضي بَينَكم بالعدْلِ
وكلُّ ما عِندَكُمُ حرامُ ... عليَّ، إلا الماءُ، والمنامُ
فعاودَ الدَّجاجَ داءُ الطَّيْشِ ... وفتحت لِلعلجِ بابَ العُشِّ
فجالَ فيه جوْلَةَ المليكِ ... يدعو لِكلِّ فرْخةٍ وديكِ
وباتَ تِلكَ الليلةَ السِّعيدَهْ ... مُمتَّعًا بدارِهِ الجديدَةْ
وباتتِ الدَّجاجُ في أَمانِ ... تحلمُ بالذِّلةِ والهوانِ
حتى إذا تهلَّلَ الصباحُ ... واقتبَستْ من نورِهِ الأَشباحُ
صاحَ بها صاحبُها الفصيح ... يقولُ: دامَ منزلي المَليحُ!
فانتَبهتْ من نَومِها المَشئومِ ... مذعورَةً من صيحةِ الغَشوم
تقولُ: ما تِلكَ الشروطَ بيننا ... غَدَرْتنا واللهِ غدرًا بيِّنا!
فضَحِك الهِنْدِيُّ حتى استلقى ... وقَال: ما هذا العَمَى يا حَمْقى؟!
متى ملكتُمْ أَلْسُنَ الأَربابِ؟ ... قد كان هذا قبلَ فتحِ البابِ!

الْعُصْفُورُ والْغَديرُ الْمَهْجُورُ

أَلَمَّ عصفورٌ بمجرًى صافِ ... قد غاب تحتَ الغابِ في الأَلفاف
يَسقي الثَّرَى من حيثُ لا يدرِي الثرى ... خشيَةَ أَن يُسمَعَ عنه، أَو يُرَى
فاغتَرَفَ العصفورُ من إحسانِه ... وحَرَّكَ الصَّنيعُ من لِسانِه
فقالَ: يا نورَ عُيونِ الأَرضِ ... ومُخجِلَ الكوْثرِ يومَ العَرْضِ
هل لكَ في أَن أُرْشِدَ الإنسانا ... لِيَعْرِفَ المكانَ والإمكانا؟
فينظُرَ الخيْرَ الذي نظرْتُ ... ويشكرَ الفضلَ كما شكرْتُ؟
لعلَّ أَن تُشهَرَ بالجمِيل ... وتُنسِيَ الناسَ حديثَ النِّيل؟
فالتفَتَ الغدِيرُ لِلعُصفور ... وقال يُهدِي مُهجَةَ المَغْرُورِ
يأَيُّها الشاكِرُ دونَ العالَمِ ... أَمَّنكَ اللهُ يدَ ابنِ آدمِ
النِّيلُ — فاسمعْ، وافهَمِ الحدِيثا — ... يُعطِي، ولكنْ يأْخُذُ الخبيثا
من طُولِ ما أَبصرَهُ الناسُ نُسِي ... وصار كلُّ الذِّكرِ لِلمهندِس
وهكذا العَهدُ بِوُدِّ الناسي ... وقيمةُ المحسِن عندَ الناس
وقد عَرفتَ حالتي، وضِدَّها ... فقلْ لِمَنْ يسأَلُ عنِّي بَعدَها
إنْ خفِيَ النافعُ فالنفعُ ظَهَرَ ... يا سَعْدَ مَنْ صَافَى، وصُوفِي، واستتَر!

الأَفْعَى النِّيليَّةُ وَالْعَقْرَبَةُ الْهِنْدِيَّة

وهذِهِ واقعةٌ مُسْتغرَبهْ ... في هَوَسِ الأَفعَى وخُبثِ العَقربَهْ
رأَيتُ أَفعَى من بناتِ النِّيلِ ... مُعجَبَةً بِقدِّها الجميلِ
تحتَقِرُ النصْحَ، وتجفو النَّاصِحا ... وتَدَّعي العقلَ الكبيرَ الرَّاجِحا
عَنَتْ لها رَبيبَةُ السَّباخِ ... تحمِلُ وَزْنَيْها منَ الأَوساخ
فحسِبَتْها — والحِسابُ يُجدي — ... ساحرَةً من ساحراتِ الهِندِ
فانخَرَطَتْ مثلَ الحُسامِ الوالجِ ... واندفعت تِلكَ كسَهْم زالج
حتى إذا ما أَبلَغَتْها جُحْرَها ... دارتْ عليه كالسِّوارِ دَوْرَها
تقولُ: يا أُمَّ العَمَى والطَّيْشِ ... أَينَ الفِرَارُ يا عدُوَّ العَيْش؟
إن تلِجي فالموتُ في الولُوج ... أَو تخرُجي فالهُلكُ في الخروجِ
فسكتَتْ طريدَةُ البُيوتِ ... واغتَرَّتِ الأَفعى بذا السكوت

وهجَعَتْ على الطريقِ هجْعهْ فخرجَتْ ضَرَّتُهَا بسُرعَهْ
ونَهضتْ في ذِرْوَةِ الدماغِ واستَرْسَلتْ في مُؤلِمِ التَّلْداغِ
فانتبهَت كالحالم المذعور تصيحُ بالويل، وبالثُّبور
حتى وهَت من الفتاةِ القوهْ فنزلت عن رأَسها العدُوّهْ
تقول: صبرًا للبَلاءِ، صبرا وإِنْ وجَدْتِ قسْوَةً فعُذرا
فرأْسُك الداءُ، وذا الدواءُ وهكذا فلتُرْكبُ الأَعداءُ
مَنْ مَلَكَ الخَصْمَ ونامَ عنه يُصْبحُ يَلقَى ما لقيت منه
لولا الذي أَبصرَ أَهلُ التَّجْرِبَهْ مِنّي لمَا سمُّوا الخبيثَ عقرَبهْ

السَّلُوقِيُّ وَالْجَوَادُ

قال السَّلوقِيُّ مرَّةً للَجوادْ وهْوَ إِلى الصَّيْدِ مَسُوقُ القِيادْ
باللهِ قلْ لي يا رفيقَ الهنا فأَنتَ تدْري لي الوفا في الوِداد
أَلستَ أَهلَ البيدِ، أَهلَ الفَلا أَهلَ السُّرى والسَّيرِ، أَهلَ الجِهاد؟
أَلمْ تكنْ رَبَّ الصفاتِ التي هامَ بها الشاعِرُ في كلِّ واد؟
قال: بلى، كل الذي قلتَه أَنا به المشهورُ بين العباد
قال: فما بالُكَ يا صاحِبي إِذا دعا الصيِّدُ، وجَدَّ الطِّراد
تشكو، فتُشكيكَ عصا سيِّدي إِنَّ العصا ما خُلِقَتْ للجوَاد
وتَنثني في عَرَقٍ سائِلٍ مُنكَّسَ الرَّأْسِ، ضئيلَ الفُؤاد
وذا السَّلوقيُّ أَبدًا صابِرٌ ينقادُ للمالِكِ أَيَّ انقِياد؟
فقال: مهلا يا كبيرَ النُّهى ما هكذا أَنظارُ أَهل الرَّشاد
السرُّ في الطَّيْرِ وفي الوحشِ لا في عَظْمِ سيقانِكَ ياذا السَّدادِ
ما الرِّجْلُ إِلا حيثُ كان الهوى إِنّ البُطْونَ قادراتٌ شِداد
أَمَا تَرى الطَّيْر على ضَعْفِها تَطوي إِلى الحَبِّ مئات البلاد؟

فَأَرُ الْغَيْط وَفَأَرُ الْبَيْت

يُقالُ: كانتْ فأْرَةُ الغِيطانِ تَتِيهُ بابنيْها على الفِيرانِ!
قد سَمَّتِ الأَكبَرَ نُورَ الغَيْطِ وعَلَّمَتْه المشْيَ فوقَ الخيْطِ
فعَرَف الغِياضَ والمُرُوجا وأَتقَنَ الدُّخولَ والخُروجا
وصارَ في الحِرْفةِ كالآباءِ وعاش كالفلاحِ في هناءِ
وأَتعَبَ الصَّغيرُ قلبُ الأُمِّ بالكِبْر، فاحتارَتْ بما تُسَمِّي
فقال سمِّيني بنورِ القصْرِ لأَنني — يا أُمُّ — فأْرُ العصْرِ
إنِي أَرى ما لم يرِ الشَّقيقُ فلِي طريقُ، وله طريق
لأَدْخُلَنَّ الدارَ بعدَ الدارِ وثْبًا منَ الرَّف إِلى الكرار
لعلَّني إن ثَبَتَتْ أَقدامي ونلتُ — يا كلَّ المنى — مَرامي
آتيكما بما أَرى في البيتِ من عسلٍ، أَو جُبْنَةٍ، أَو زيتِ
فعطَفَتْ على الصغيرِ أُمُّهْ وأَقبلَتْ من وَجْدِها تَضُمُّهْ
تقولُ: إني — يا قتيل القوتِ — أَخشى عليكَ ظُلمةَ البُيوتِ
كان أَبوكَ قد رأَى الفلاحا في أَن تكون مِثلَه فلَّاحا
فاعملْ بما أَوصى تُرِحْ جَنانِي أَو لا، فسِرْ في ذِمّةِ الرحمنِ
فاستضحَك الفأْرُ، وهزَّ الكِتفَا وقال: من قال بِذا قد خَرِفا
ثم مضى لِما عليه صَمَّما وعاهدَ الأُمَّ على أَن تكتُما
فكان يأْتي كل يومِ جَمْعَهْ وجُبْنةٌ في فمِه، أَو شمعَهْ
حتى مَضى الشهرُ، وجاءَ الشهرُ وعُرف اللِّصُّ، وشاعَ الأَمر
فجاءَ يومًا أُمَّه مُضْطَرِبا فسأَلَته: أَينَ خلَّي الذَّنَبا؟
فقال: ليسَ بالفقيدِ من عَجبْ في الشهدِ قد غَاصَ، وفي الشهدِ ذَهَبِ
وجاءَها ثانيةً في خَجَلِ منها يُداري فقْد إِحدى الأَرجُلِ
فقال: رفٌّ لم أَصِبْهُ عالي صيَّرَنِي أَعرج في المعالي
وكان في الثالثةِ ابنُ الفارهْ قد أَخلفَ العادةَ في الزيارهْ
فاشتغَلَ القلبُ عليه، واشتعلْ وسارت الأُمُّ له على عَجَل
فصادَفَته في الطريقِ مُلْقَى قد سُحِقَت منه العِظامُ سَحْقا
فناحتِ الأُم، وصاحتْ: واهَا! إن المعالي قَتلت فتاها!

مَلكُ الْغِرْبَانِ وَنُدُور الْخَادِم

كانَ لِلغربانِ في العصرِ مَلِيكْ — وله في النخلةِ الكبرى أَرِيكْ
فيه كرسيٌّ، وخِدْرٌ، ومُهودْ — لِصغارِ المُلك أَصحابِ العُهود
جاءَهُ يومًا ندورُ الخادِمُ — وهْوَ في البابِ الأَمينُ الحازِمُ
قال: يا فرْعَ الملوكِ الصالِحينْ — أَنت مازِلْتَ تُحِبُّ الناصِحِينْ
سُوسةٌ كانت على القصرِ تدورْ — جازتْ القصرَ، ودبَّتْ في الجُدور
فابعَث الغِربانَ في إِهلاكها — قبلَ أَن نَهلِكَ في أَشْراكِها
ضَحكَ السُّلطانُ من هذا المَقال — ثم أَدنَى خادِمَ الخيرِ، وقال:
أَنا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضافي الجَناح — أَنا ذو المنقارِ، غَلاَّبُ الرياح
«أَنا لا أَنظرُ في هذِي الأُمور» — أَنا لا أبصر تحتي بانُدور!
ثم لمَّا كان عامٌ بعدَ عامْ — قام بينَ الريحِ والنخلِ خِصامْ
وإِذا النخلةُ أَقوى جِذعها — فبدا للرِّيح سهلاً قلعُها
فَهَوَتْ لِلأَرضِ كالتَّلِّ الكبير — وَهَوَى الديوانُ، وانقضَّ السَّرير
فدها السُّلطانَ ذا الخَطْبُ المَهول — ودعا خادمَهُ الغالي يقول:
يا نُدورَ الخيرِ، أَسعِفْ بالصياح — ما تَرى ما فعلَتْ فينا الرياح؟
قال: يا مولايَ، لا تَسأَل نُدور — «أَنا لا أَنظُر في هذِي الأُمور»!

الظَّبْيُ وَالْعِقْدُ وَالْخِنْزِير

ظبْيٌ رأَى صورتَهُ في الماءِ — فرفع الرأْسَ إِلى السماءِ
وقال يا خالِقَ هذا الجيدِ — زِنْهُ بِعقدِ اللؤلؤِ النَّضِيدِ
فسمِعَ الماءَ يقولُ مُفصحَا — طلبْتَ يا ذا الظَّبْيُ ما لن تُمنَحا
إِنّ الذي أَعطاكَ هذا الجِيدا — لم يُبق في الحسنِ له مَزيدا
لو أَن حُسنَهُ على النُّحورِ — لم يخرج الدُّر من البُحور
فافتتَن الظبْي بِذِي المقالِ — وزادهُ شوقًا إِلى اللآلي
ولم يَنلهُ فمُهُ السقيمُ — فعاش دهرًا في الفَلا يَهيم
حتى تَقضَّى العمرُ في الهُيامِ — وهجْرِ طِيبِ النَّومِ والطعام
فسارَ نحوَ الماءِ ذاتَ مرَّهْ — يَشكو إِليه نفعَهُ وضرَّه

وبينما الجارانِ في الكلام أَقبلَ راعي الدَّيرِ في الظلام
يتبَعُه حيثُ مشى خِنزيرُ في جِيدِهِ قِلادةٌ تُنير
فاندَفَع الظبْيُ لذاكَ يَبكي وقال من بعدِ انجلاءِ الشَّكِ
ما آفةُ السعي سوَى الضلالِ ما آفةُ العمرِ سوى الآمال
لولا قضاءُ الملِكِ القدير لما سعى العِقدُ إِلى الخِنزير
فالتفتَ الماءُ إِلى الغزال وقال: حالُ الشيخِ شرُّ حال
لا عَجَبٌ؛ إِن السنينَ مُوقِظهْ حفِظْتَ عُمرًا لو حَفِظْتَ موْعِظَهْ

وَلِيُّ عَهْدِ الأَسَدِ وَخُطْبَةُ الْحمَار

لمَّا دَعَا داعِي أَبي الأَشبالِ مُبشِّرًا بأَوَّلِ الأَنجالِ
سعَتْ سباعُ الأَرضِ والسماءِ وانعقَد المجلسُ للهَناءِ
وصَدَرَ المرسومُ بالأَمانِ في الأَرضِ للقاصي بها والدَّاني
فضاقَ بالذيُولِ صحنُ الدار من كلِّ ذي صُوفٍ وذي مِنقار
حتى إِذا استكملَتِ الجمعيَّهْ نادى منادي اللَّيْث في المَعيَّهْ
هل من خطيبٍ محسِنٍ خبيرِ يدعو بطول العمر للأَمير؟
فنَهضَ الفيلُ المشيرُ السامي وقال ما يليقُ بالمقام
ثم تلاه الثَّعْلَبُ السفيرُ يُنشدُ، حتى قيلَ: ذا جرير
واندفعَ القردُ مديرُ الكاسِ فقيلَ: أَحسنتَ أَبا نُواسِ!
وأَوْمأَ الحِمارُ بالعقيرَه يريدُ أَن يُشرِّفَ العشيره
فقال: باسمِ خالِقِ الشعيرِ وباعثِ العصا إِلى الحميرِ!..
فأَزعج الصَّوتُ ولِيَّ العَهدِ فماتَ من رِعْدَتِه في المَهدِ
فحمَلَ القومُ على الحِمارِ بجُملةِ الأَنيابِ والأظفار
وانتُدبَ الثَّعلبُ لِلتأبينِ فقال في التعريضِ بالمسكين:
لا جَعَل اللهُ له قرارَا عاشَ حِمَارًا ومضى حمارا!

الأَسَدُ والثَّعْلَبُ والْعِجْل

نظرَ اللَّيْثُ إلى عجلٍ سمينْ
فاشتَهتْ من لحمه نفسُ الرئيس
قال للثعلبِ: يا ذا الاحتيال
فدعا بالسَّعدِ والعُمرِ الطويل
وأتى الغَيْطَ وقد جَنَّ الظلام
قائلاً: يَأَيُّها المولى الوزيرْ
حَملَ الذِّئبَ على قتلي الحَسَد
فترامَيْتُ على الجاهِ الرفيع
فبكى المغرورُ من حالِ الخبيث
قال: هل تَجهلُ ياحُلْوَ الصِّفات
فرأَى السُّلطانُ في الرأْس الكبير
ورآكم خيْرَ مَن يُستَوْزَرُ
ولقد عدُّوا لكم بين الجُدود
فأَقامَوا لمعاليكم سرِير
واستَعدَّ الطيرُ والوحشُ لذاك
فإذا قُمتمْ بأَعباءِ الأُمورْ
برِّئُوني عندَ سُلطانِ الزمان
وكفاكم أَنني العبدُ المُطيع
فأَحَدَّ العِجلُ قرْنيْهِ، وقال:
فامْضِ واكشف لي إلى الليثِ الطريق
فمَضى الخِلاّنِ تَوًّا للفَلاه
وهُناك ابتَلعَ الليثُ الوزير
فانثنى يضحكُ من طيشِ العُجولْ
سلِمَ الثعلبُ بالرأسِ الصغير

كان بالقربِ على غيْطٍ أَمينْ
وكذا الأَنفسُ يُصْبيها النفيس
رأْسُكَ المحبوبُ، أَو ذاك الغزل!
ومضى في الحالِ للأَمْرِ الجليل
فرأَى العجلَ فأَهداهُ السلام
أَنت أَهلُ العفوِ والبرِّ الغزير
فوشَى بي عندَ مَولانا الأَسد
وهْوَ فينا لم يزَل نِعمَ الشَّفيع!
ودنا يسأَلُ عن شرحِ الحديث
أَنَّ مولانا أَبا الأَفيالِ مات؟
موطنَ الحكمةِ والحِذقِ الكثير
ولأَمْرِ المُلكِ ركنًا يُذخر
مثل آبِيسَ ومَعبودِ اليهود
عن يمين الملكِ السامي الخطير
في انتظار السَّيدِ العالي هناك
وانتَهى الأُنسُ إِليكم والسرورْ
واطلبوا لي العَفْوَ منه والأَمان
أَخدُمُ المُنْعِمَ جهدَ المستطيع
أَنت مُنذُ اليومِ جاري، لا تُنال!
أَنا لا يَشْقى لديْهِ بي رَفيق
ذا إِلى الموتِ، وهذا للحَياه
وحبَا الثعلبَ منه باليَسير
وجرى في حَلْبَةِ الفَخْر يقولْ:
فَفَداه كلُّ ذي رأْسٍ كبيرا

الْقِرْدُ وَالْفيلُ

قِردٌ رأَى الفيلَ على الطَّريقِ ... مُهروِلاً خَوفًا من التَّعْويقِ
وكان ذاك القِردُ نصفَ أَعمى ... يُريد يُحْصِي كلَّ شيءٍ عِلما
فقال: أَهلاً بأَبي الأَهوالِ ... ومَرْحبًا بِمُخْجِلِ الجِبالِ
تَفدِي الرُّءُوسُ رأَسَكَ العظِيما ... فقِف أَشاهدْ حُسْنَك الوَسيما
للهِ ما أَظرفَ هذا القَدَّا ... وأَلطَف العَظْمَ وأَبهى الجلدا!
وأَملَحَ الأذْنَ فِـ الاستِرسالِ ... كأَنها دائرةُ الغِربالِ!
وأَحسَنَ الخُرطومَ حين تاهَا ... كأَنه النخلةُ في صِباها!
وظَهرُك العالي هو البِساطُ ... للنفْسِ في رُكوبِه انبِساطٌ
فعدَّها الفيلُ من السُعودِ ... وأَمَرَ الشاعِرَ بالصُّعود
فجالَ في الظَّهْر بلا تَوَانِ ... حتى إذا لم يَبقَ من مكان
أَوفى على الشيءِ الذي لا يُذكرُ ... وأَدخَلَ الأصبُعَ فيه يَخبُرُ
فاتهَم الفيلُ البَعوضَ، واضطَربْ ... وضيَّقَ الثَّقْبَ، وصالَ بالذَّنَبْ
فوقَعَ الضربُ على السليمه ... فلحِقَتْ بأُختِها الكريمه
ونزل البصيرُ[٢] ذا اكتِئابِ ... يشكو إلى الفيلِ من المُصابِ
فقال: لا مُوجِبَ للندامه ... الحمد لله على السلامه
من كان في عينيْه هذا الداءُ ... ففي العَمَى لنفسِه وقاءُ

الشَّاةُ وَالْغُرَابُ

مَرَّ الغُرابُ بشاةٍ ... قد غابَ عنها الفطيمُ
تقولُ والدمعُ جار ... والقلبُ منها كلِيم:
ياليْت شِعْريَ يا ابنِي ... وواحِدِي، هل تَدوم؟
وهل تكونُ بجَنْبي ... غدًا على ما أَرُوم؟
فقال: يا أُمَّ سعدٍ ... هذا عذابٌ أَليم
فكَّرتِ في الغَدِ، والفِكـ ... ـرُ مُقعِدٌ ومُقيم
لكلِّ يوم خُطُوبٌ ... تكفي، وشُغلٌ عظيم
وبينما هُوَ يهذِي ... أَتى النَّعِيُّ الذَّميم

يقول: خَلَّفْتُ سعْدًا والعَظمُ منه هَشيم
رأى منَ الذِّئبِ ما قد رأى أَبوه الكريم
فقال ذو البَيْنِ للأُم حين ولَّتْ تَهيم:
إن الحكيمَ نبيٌّ لسانُه معصوم
أَلم أَقلْ لكِ توا لكل يومٍ هُموم؟
قالت: صدَقتَ، ولكِنْ هذا الكلامُ قديم
فإن قَوْميَ قالوا: وجْهُ الغُراب مَشوم

أُمَّةُ الأَرَانِب وَالْفِيلُ

يَحكون أَن أُمَّةَ الأَرانِبِ قد أَخَذَت من الثَرى بِجانِبِ
وابتَهجَت بالوطنِ الكريمِ ومَوْئِلِ العِيالِ والحريمِ
فاختارَه الفيلُ له طريقَا مُمزِّقًا أَصحابَنا تمزيقا
وكان فيهم أَرنبٌ لبيبُ أّذهَبَ جُلَّ صُوفِه التَّجريب
نادى بهم: يا مَعشَر الأَرانبِ من عالِمٍ، وشاعرٍ، وكاتب
اتَّحِدوا ضِدَّ العَدُوِّ الجافي فالاتحادُ قوّةُ الضِّعاف
فأَقبَلوا مُستَصْوِبين رايَهْ وعقدوا للاجتماعِ رايه
وانتخبوا من بينِهم ثلاثه لا هَرَمًا راعَوْا، ولا حَداثه
بل نظروا إلى كمالِ العقلِ واعتَبروا في ذاك سِنَّ الفضْل
فنهض الأَوَّلُ للخِطاب فقال: إنّ الرأْيَ ذا الصواب
أَن تُترَكَ الأَرضُ لذي الخُرطومِ كي نستريحَ من أَذى الغَشوم
فصاحَت الأَرانبُ الغَوالي: هذا أَضَرُّ من أَبي الأَهوال
ووثَبَ الثاني فقال: إنِي أَعهَدُ في الثعلبِ شيخَ الفنِّ
فلندْعُه يُمِدّنا بحِكمتِهْ ويأخذ اثنْينِ جزاءَ خدمته
فقيل: لا يا صاحبَ السُّمُوِّ لا يُدفعُ العدوُّ بالعدوِّ
وانتَدَبَ الثالثُ للكلامِ فقال: يا معاشِرَ الأَقوامِ
اجتمِعوا؛ فالاجتِماع قوَّهْ ثم احفِروا على الطريق هُوَّة

يهوي إليها الفيلُ في مرورِه ... فنستَريحُ الدهرَ من شرورِه
ثم يقولُ الجيلُ بعدَ الجيلِ ... قد أَكلَ الأَرنبُ عقلَ الفيل
فاستَصْوَبوا مقالهُ، واستَحْسَنوا ... وعملوا من فَوْرِهم، فأَحسَنوا
وهلكَ الفيلُ الرفيعُ الشَّانِ ... فأَمستِ الأُمَّةُ في أَمان
وأَقبلَتْ لِصاحِبِ التدبيرِ ... ساعيَةً بالتاجِ والسرير
فقال: مهلاً يا بَني الأَوطانِ ... إنّ محلِّي لَلمَحَلُّ الثاني
فصاحبُ الصَّوتِ القويِّ الغالبِ ... مَنْ قد دعا: يا مَعشَرَ الأَرانبِ

حكَايَةُ الْخُفَّاش وَمَليكَةُ الْفَرَاش

مرَّتْ على الخُفاشِ ... مليكةُ الفَراشِ
تطيرُ بالجموعِ ... سعيًا إلى الشموعِ
فعطَفتْ ومالت ... واستضحكَتْ فقالت:
أَزْرَيْتَ بالغرامِ ... يا عاشق الظلامِ
صِفْ لي الصديقَ الأَسْودَا ... الخاملَ المُجَرَّدا[٣]
قال: سأَلتِ فيه ... أَصدَقَ واصِفيهِ
هو الصديقُ الوافي ... الكاملُ الأَوصافِ
جِوارُهُ أَمانُ ... وسرُّه كتمانُ
وطرفُه كليلُ ... إذا هفا الخليلُ
يحنو على العشَّاق ... يَسمعُ لِلمشتاق
وجُملةُ المقالِ ... هو الحبيبُ الغالي
فقالتِ الحمقاءُ ... وقولُها استِهزاءُ
أَين أَبو المِسْكِ الخَصِي ... ذو الثَّمَنِ المُسْتَرْخَصِ[٤]
مِنْ صاحِبي الأَميرِ ... الظاهِرِ المنيرِ؟[٥]
إن عُدَّ فيمن أَعرِفُ ... أَسمُو بِه وأَشرُفُ
وإن سُئِلتُ عنهُ ... وعن مكاني منهُ
أُفاخِرُ الأَترابا ... وأَنثني إعجابَا

فقال: يا مَليكَهْ ورَبَّةَ الأَريكَهْ
إنّ مِنَ الغُرورِ ملامَةَ المغرورِ
فأَعطِني قفاك وامضي إلى الهلاك
فتركتْه ساخِرَهْ وذهَبتْ مُفاخِرهْ
وبعدَ ساعةٍ مضَتْ من الزمانِ فانقضَتْ
مَرَّتْ على الخُفَّاشِ مَليكةُ الفَراشِ
ناقصةَ الأَعضاءِ تشكو من الفَناءِ
فجاءَها مُنهَمِكا يُضحِكه منها البُكا
قال: أَلم أَقل لكِ هَلكْتِ أَو لم تَهلِكي
رُبَّ صديقٍ عبدِ أَبيَضُ وجهِ الوُدِّ
يَفديك كالرَّئيسِ بالنَّفْسِ والنفيسِ
وصاحِبٍ كالنُّورِ في الحُسْنِ والظهورِ
مُعْتَكِرِ الفؤادِ مُضَيِّعِ الوداد
حِبالُه أَشراكُ وقُرْبُه هلاكُ؟

الأَسَدُ وَوَزِيرُهُ الحِمَارُ

اللَّيثُ مَلْكُ القِفارِ وما تَضمُّ الصَّحاري
سَعت إليه الرعايا يومًا بكلِّ انكسار
قالت: تعيشُ وتبقَى يا دامِيَ الأَظفار
ماتَ الوزيرُ فَمَنْ ذا يَسوسُ أَمرَ الضَّواري؟
قال: الحمارُ وزيري قَضى بهذا اختِياري
فاسْتَضْحَكت، ثم قالت: «ماذا رأَى في الحِمارِ؟»
وخلَّفتْهُ، وطارت بِمُضحِكِ الأَخبار
حتى إذا الشَّهْرُ ولَّى كليْلةٍ أو نَهار
لم يَشعُرِ اللَّيثُ إلا ومُلكُهُ في دَمار
القردُ عندَ اليمين والكلبُ عند اليَسار

والـقِـطُّ بـيـن يـديـه   يَـلـهـو بِـعـظـمَـةِ فـار!
فقالَ: مَن في جُدودي   مثلي عديمُ الوقار؟!
أَينَ اقتِداري وبَطشي   وهَيْبتي واعتباري؟!
فجاءَهُ القردُ سرًّا   وقال بعدَ اعتذار:
يا عاليَ الجاه فينا   كن عاليَ الأنظار
رأَيُ الرعِيَّةِ فيكم   من رأيكم في الحمار!

النَّمْلةُ والمُقَطَّمُ

كانتِ النملةُ تمشي   مرَّةً تحتَ المُقطَّمْ
فارتخى مَفصِلُها من   هَيبةِ الطَّوْدِ المعظَّمْ
وانثنتْ تنظرُ حتى   أَوجَدَ الخوْفُ وأَعدَم
قالتِ: اليومَ هلاكي   حلّ يومي وتحتم!
ليت شعري: كيف أَنجو   — إنْ هوى هذا — وأَسلم؟
فسعَتْ تجري، وعينا   ها ترى الطَّوْدَ فتَنْدَم
سقطتْ في شبرِ ماءٍ   هو عند النملِ كاليمّ
فبكت يأْسًا، وصاحت   قبلَ جَرْيِ الماءِ في الفمْ
ثمّ قالتْ وهْيَ أَدرَى   بالذي قالت وأَعلَم:
ليْتني لم أَتأَخَّر   ليتني لم أَتقدَّم
ليتني سَلَّمْتُ، فالعا   قِلُ مَنْ خاف فسَلَّم!
صاحِ لا تخشَ عظيما   فالذي في الغيْبِ أَعظم

الغزالُ والكلبُ

كان فيما مَضى من الدهرِ بَيتٌ   من بيوتِ الكرامِ فيه غزالُ
يَطعَم اللَّوْزَ والفطيرَ ويُسقى   عسلا لم يَشُبْه إلا الزُّلال
فأتى الكلبَ ذاتَ يومٍ يُناجيـ   ـهِ وفي النفسِ تَرحَةٌ وملال

قال: يا صاحِبَ الأَمانةِ، قل لي — كيف حالُ الوَرَى؟ وكيف الرجال؟
فأَجابَ الأَمينُ وهو القَئولُ الصَّ — ـادِقُ الكامل النُّهَى المِفضال
سائلي عن حقيقةِ الناس، عذرًا — ليس فيهم حقيقةٌ فتقال
إنما هُم حِقدٌ، وغشٌّ، وبُغضٌ — وأَذاةٌ، وغيبةٌ، وانتحال
ليت شعري هل يستريحُ فؤادي؟ — كم أُداريهم! وكم أَحتال!
فرِضا البعض فيه للبعضِ سُخْطٌ — ورضا الكلِّ مطلبٌ لا يُنال
ورضا اللهِ نَرتجيهِ، ولكن — لا يُؤدِّي إليه إلا الكمال
لا يَغُرَّنْكَ يا أَخا البيدِ من مَوْ — لاك ذاك القَبولُ والإقبال
أَنتَ في الأَسْرِ ما سَلِمتَ، فإن تَمـ — ـرض تقطَّعْ من جسمِك الأَوصال
فاطلبِ البِيدَ، وارض بالعُشبِ قوتًا — فهناك العيشُ الهنيُّ الحلال
أَنا لولا العظامُ وهْيَ حياتي — لم تَطِب لي مع ابن آدمَ حال

الثَّعْلَبُ والدِّيك

برز الثعلبُ يومًا — في شعار الواعِظينا
فمشى في الأَرضِ يَهذي — ويَسُبُّ الماكرينا
ويقولُ: الحمدُ للـ — ـهِ إلهِ العالمينا
يا عِباد الله، تُوبُوا — فهْوَ كهفُ التائِبينا
وازهَدُوا في الطَّير؛ إنّ الـ — ـعيْشَ عيشُ الزاهِدينا
واطلبوا الدِّيك يؤذنْ — لصلاةِ الصُّبحِ فينا
فأَتى الديكَ رسولٌ — من إمام الناسِكينا
عَرَضَ الأَمْرَ عليه — وهْوَ يرجو أَن يَلينا
فأَجاب الديكُ: عُذرًا — يا أَضلَّ المُهتدينا!
بلِّغِ الثعلبَ عني — عن جدودي الصالحينا
عن ذوي التِّيجان ممن — دَخل البَطْنَ اللعِينا
أَنهم قالوا وخيرُ الـ — ـقولِ قولُ العارفينا
«مُخطئٌ مَن ظنّ يومًا — أَنّ للثعلبِ دينا»

النَّعْجَةُ وَأَوْلاَدُهَا

اسمَعْ نفائس ما يأْتيكَ مِنْ حِكَمي ... وافهمْهُ فَهمَ لبيبٍ ناقِدٍ واعِي
كانت على زَعمِهِمْ فيما مَضى غَنَمٌ ... بأَرضِ بغدادَ يَرعَى جَمْعَها راعي
قد نام عنها، فنامَتْ غيْرَ واحدةٍ ... لم يدْعُها في الدَّياجِي للكَرَى داعي
أُمُّ الفَطيمِ، وسعْدٍ، والفَتى عَلفٍ ... وابنِ امِّهِ، وأَخيه مُنْيةِ الرَّاعي
فبينَما هي تحتَ الليْلِ ساهرةٌ ... تُحْييهِ ما بين أَوجالٍ وأَوجاع
بَدَا لها الذِّئْبُ يَسعَى في الظلامِ على ... بُعْدٍ، فصاحت: أَلا قوموا إِلى الساعي!
فقامَ راعي الحِمى المرعِيِّ مُنْذَعِرًا ... يقولُ: أَين كِلابي أَين مِقلاعي؟
وضاقَ بالذِّئْبِ وجهُ الأَرض من فَرَق ... فانسابَ فيه انسيَابَ الظَّبْي في القاع
فقالتِ الأُمُّ: يا لَلفخرِ! كان أَبي ... حُرًّا، وكان وفِيًّا طائلَ الباع
إِذا الرُّعاة على أَغنامها سَهِرَتْ ... سَهْرتُ من حُبِّ أَطفالي على الرّاعي!

الْكَلْبُ والقطُّ وَالْفَأْر

فأَرٌ رأَى القِطَّ على الجِدارِ ... مُعَذَّبًا في أَضيَقِ الحِصار
والكلبُ في حالِته المعهوده ... مُسْتَجْمِعًا للوثبةِ الموعودة
فحاولَ الفأرُ اغتنامَ الفُرصة ... وقال أَكفِي القِطَّ هذِي الغُصَّةْ
لعله يَكْتُبُ بالأَمانِ ... لي ولأَصحابي من الجيران
فسارَ للكلبِ على يَدَيْهِ ... ومَكَّنَ الترابَ من عينَيه
فاشتغل الرَّاعي عن الجِدار ... ونَزلَ القِطُّ على بِدار
مُبْتَهِجًا يفكر في وليمَه ... وفي فريسةٍ لها كريمه
يجعلها لِخَطْبِه علامه ... يذكُرها فيذكرُ السَّلامة
فجاءَ ذاكَ الفأرُ في الأَثناءِ ... وقال: عاشَ القِطُّ في هَناءِ
رأَيتَ في الشِّدَّةِ من إِخلاصِي ... ما كان منها سببَ الخَلاص
وقد أَتيْتُ أَطلبُ الأَمانا ... فامنُنْ به لِمعشَري إِحسانا
فقال: حقًّا هذه كرامَه ... غنيمةٌ وقبلَها سَلامَه

يَكفيك فخرًا يا كريمَ الشِّيمَه   أَنك فأرُ الخطْبِ والوليمه
وانقَضَّ في الحالِ على الضَّعِيفِ   يأكلُه بالمِلحِ والرغيف
فقلت في المقام قوْلاً شاعا   «مَنْ حفِظَ الأَعداءَ يومًا ضاعا»

سُلَيْمَانُ وَالْهُدْهُدْ

وقفَ الهُدْهُدُ في با   بِ سُليمانَ بِذِلَّهْ
قال: يا مولايَ، كن لي   عِيشَتي صارت مُمِلَّه
متُّ من حَبَّةِ بُرٍّ   أَحدَثتْ في الصدر غُلَّه
لا مِياهْ النِّيلِ تُرْويـ   ـها، ولا أَمواهُ دِجْله
وإِذا دامَت قليلا   قتلتْنِي شرَّ قِتْلَه
فأَشار السيِّدُ العا   لي إِلى مَن كان حوْلَه:
قد جَنَى الهدهُدُ ذنْبا   وأَتى في اللؤم فَعْلَه
تِلك نارُ الإثمِ في الصَّدْ   رِ، وذي الشكوَى تَعِلَّه
ما أَرَى الحَبَّة إِلا   سُرِقت من بيتِ نمله
إِن للظالم صَدْرًا   يَشتَكي من غير عِله!

سُلَيْمَانُ وَالطَّاوُوس

سمعتُ بأَن طاوُوسًا   أَتى يومًا سليمانا
يُجَرِّرُ دون وفْدِ الطَّيْـ   ـرِ أَذيالا وأَردانا
ويُظْهِرُ ريشَهُ طوْرًا   ويُخفي الرِّيشَ أَحيانا
فقال: لدَيَّ مسأَلةٌ   أَظنُّ أَوانَها آنا
وها قد جئتُ أَعرضُها   على أَعتابِ مولانا:
أَلستُ الرَّوْضَ بالأَزها   رِ والأَنوارِ مُزْدانا؟
أَلم أَستوفِ آيَ الظَّرْ   فِ أَشكالا وأَلوانا؟
أَلم أصبِح ببابِكمُ   لِجَمْعِ الطَّيرِ سُلطانا؟

فكيف يَليقُ أَن أَبقَى وقوْمِي الغُرُّ أَوثانا؟!
فحُسنُ الصوتِ قد أَمسَى نصيبي منه حِرمانا
فما تَيَّمْتُ أَفْئِدَةً ولا أَسكَرْتُ آذانا
وهذِي الطَّيْرُ أَحقَرُها يزيدُ الصَّبَّ أَشجانا
وتَهتزُّ الملوكُ له إذا ما هَزَّ عِيدانا؟
فقال له سُليمانُ لقد كان الذي كانا
تعالت حِكمةُ الباري وجلَّ صنيعُهُ شانا
لقد صَغَّرتَ يا مغرو رُ نُعمَى الله كُفرانا
ومُلك الطيْر لم تحفِل به، كِبرا وطغيانا
فلو أَصبَحتَ ذا صوْت لمَا كلَّمْتَ إِنسانا!

الْغُصْنُ وَالْخُنْفُسَاء

كان برَوْضٍ غُصُنٌ ناعمٌ يقولُ: جلَّ الواحدُ المنفردْ
فقامتي في ظَرفِها قامتي ومثلُ حُسني في الورى ما عُهِدْ
فأَقبلت «خُنفُسَةٌ» تنثَني ونجلُها يمشي بِجنبِ الكبِدْ
تقول: يا زَيْنَ رياضِ البَها إِنّ الذي تطلُبُهُ قد وُجِد
فانظر لِقَدِّ ابني، ولا تفتَخر ما دام في العالم أُمٌّ تَلد!

الْقُبَّرَةُ وَابْنُهَا

رأيتُ في بعضِ الرياضِ قُبَّرَهْ تُطَيِّرُ ابنَها بأَعلى الشَّجَره
وهْيَ تقولُ: يا جمالَ العُشِّ لا تعتَمِدْ على الجَناح الهَشِّ
وقِفْ على عودٍ بجنبِ عودِ وافعل كما أَفعلُ في الصُّعودِ
فانتقلَت من فَننٍ إلى فَنَنْ وجَعَلَتْ لِكلِّ نقلةٍ زَمَنْ
كيْ يَسْتريحَ الفرْخُ في الأَثناءِ فلا يَمَلُّ ثِقَلَ الهواءِ
لكنَّهُ قد خالف الإشارهْ لمَّا أَراد يُظهرُ الشَّطارهْ

وطار في الفضاءِ حتى ارتفعا   فخانه جَناحُه فوقعا
فانكَسَرَتْ في الحالِ رُكبتاهُ   ولم يَنَلْ منَ العُلا مُناهُ
ولو تأَنى نالَ ما تَمنَّى   وعاشَ طولَ عُمرِهِ مُهَنَّا
لكلِّ شيءٍ في الحياة وقتُهُ   وغايةُ المسْتَعْجلين فوْتُه!

النَّعْجَتَان

كان لِبعضِ الناسِ نعجتان   وكانتا في الغيْطِ ترعيانِ
إِحداهما سمينةٌ، والثانِيه   عِظامها منَ الهُزالِ باديَه
فكانتِ الأُولى تُباهِي بالسِّمَنْ   وقولِهم بأَنها ذاتُ الثُمَنْ
وتَدَّعي أَن لها مقدارا   وأَنها تستَوْقفُ الأَبصارا
فتصبِرُ الأُختُ على الإدلالِ   حاملةً مَرارةَ الإذلال
حتى أَتى الجزّارُ ذاتَ يومِ   وقلبَ النعجةَ دون القوْمِ
فقال لِلمالِكِ: أَشْتريها   ونقدَ الكيسَ النفيسَ فيها
فانطلقتْ من فورِها لأُختِها   وهْيَ تَشكُّ في صلاح بختِها
تقولُ: يا أُختاهُ خبِّريني   هل تعرِفينَ حاملَ السِّكين؟
قالت: دَعِيني وهُزالي والزَّمَن   وكلِّمي الجزّارَ ياذاتَ الثَّمَنْ!
لكلِّ حال حُلُوها ومُرُّها   ما أَدَبُ النعجةِ إلا صبرُها

السَّفِينَةُ وَالْحَيَوَانَات

لمَّا أَتمَّ نوحٌ السَّفِينهْ   وحَرَّكَتْها القُدْرَة المُعِينهْ
جَرى بها ما لا جَرَى بِبالِ   فما تعالى الموْجُ كالجِبالِ ...
... حتى مَشَى اللَّيْثُ مع الحِمار   وأَخَذ القِطُّ بأَيدِي الفارِ
واستَمَعَ الفيلُ إِلى الخِنزيرِ   مُوتَنِسًا بصوتِه النَّكيرِ
وجلس الهِرُّ بجنب الكلبِ   وقبَّل الخروفُ نابَ الذِّئبِ
وعَطفَ البازُ على الغزالِ   واجتمع النملُ على الأَكَّال

وفَلَت الفرْخةُ صُوفَ الثعلبِ   وتيَّمَ ابنَ عِرْسَ حُبُّ الأَرنبِ
فذهبَتْ سوابِقُ الأَحقادِ   وظَهر الأحبابُ في الأعادي
حتى إذا حَطُّوا بسَفْحِ الجُودِي   وأَيقنوا بعَوْدةِ الوجودِ
عادوا إلى ما تَقتَضيهِ الشِّيمةْ   وَرَجَعوا للحالةِ القديمة
فقِسْ على ذلك أَحوالَ البشَرْ   إن شمِلَ المحذورُ، أَو عَمَّ الخَطَر
بيْنا ترَى العالَمَ في جِهادِ   إذْ كلهم على الزمان العادي

الْقِرْدُ فِي السَّفِينَة

لم يَتَّفِقْ مما جَرَى في المركَبِ   ككَذِبِ القردِ على نوحِ النبي
فإنه كان بأَقصى السَّطحِ   فاشتاقَ من خِفتِه للمَزْحِ
وصاحَ: يا لَلطَّيْر والأَسماكِ   لِموْجَةٍ تجِدُّ في هَلاكي!
فبَعثَ النبي له النسورا   فوجَدَتْه لاهيًا مسرورا
ثم أَتى ثانيةً يصيحُ   قد ثُقِبَتْ مَرْكبُنا يا نوحُ!
فأَرسَل النبيُّ كلَّ مَن حَضرْ   فلم يرَوْا كما رأى القِرْدُ خَطَر
وبينما السَّفيهُ يومًا يَلعبُ   جادَتْ به على المِياهِ المركَبُ
فسمِعوه في الدُّجَى يَنوحُ   يقولُ: إني هالِكٌ يا نوحُ
سَقطْتُ من حماقتي في الماءِ   وصِرْتُ بين الأَرضِ والسماءِ
فلم يصَدِّقْ أَحدٌ صِياحَهْ   وقيلَ حقًّا هذه وقاحَهْ
قد قال في هذا المقامِ مَن سَبَقْ   أَكذبُ ما يُلفى الكذوبُ إن صَدق
مَن كان مَمنُوًّا بِداءِ الكذِبِ   لا يَتْرُكُ اللهَ، ولا يُعفِي نبي!

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَالنَّمْلَةُ فِي السَّفِينَةِ

قد وَدَّ نوحٌ أَن يُباسِطَ قَوْمَهُ   فدعا إليهِ معاشِرَ الحيوانِ
وأَشار أَنْ يَلِيَ السفينةَ قائدٌ   منهم يكونُ من النّهى بمكان
فتقدَّمَ اللّيثُ الرفيع جلالُه   وتعرَّضَ الفيلُ الفخيمُ الشان

وتلاهُما باقي السِّباعِ، وكلهُمْ … خَرُّوا لهيبِتهِ إلى الأَذقان
حتى إذا حيُّوا المؤيَّدَ بالهدى … ودَعَوْا بطولِ العزِّ والإِمكان
سَبَقَتْهمُ لخطابِ نوحٍ نملةٌ … كانت هناكَ بجانِبِ الأَرْدان
قالت: نبيَّ اللهِ، أَرضي فارسٌ … وأَنا يَقينًا فارسُ الميْدانِ
سأديرُ دِفَّتَهَا، وأَحْمِي أَهلَها … وأَقودُها في عصمةٍ وأَمان
ضحِكَ النبيُّ وقال: إنّ سَفينتَي … لهِيَ الحياة، وأَنتِ كالإِنسان
كل الفضائِلِ والعظائمِ عنده … هو أَوَّلٌ، والغيْرُ فيها الثاني
ويودُّ لو ساسَ الزَّمانَ، ومالَهُ … بأَقلِّ أَشغالِ الزمان يَدان

الدُّبُّ في السَّفِينَة

الدُّبُّ معروفٌ بسوءِ الظنِّ … فاسمعْ حديثَهُ العجيبَ عَنِّي
لمَّا استطال المُكْثَ في السَّفينهْ … ملَّ دوامَ العيشةِ الظنينة
وقال: إن الموْتَ في انتظاري … والماءُ لا شكَّ بِه قراري
ثم رأَى مَوْجًا على بُعدٍ عَلا … فظنَّ أَن في الفضاءِ جبلا
فقال: لا بُدَّ من النزولِ … وصَلْتُ، أَو لم أَحْظَ بالوُصولِ
قد قال مَن أَدَّبَهُ اختبارُهْ: … السعيُ للموتِ ولا انتِظارُه!
فأَسلمَ النفسَ إلى الأَمواجِ … وهْيَ مع الرياحِ في هياجِ
فشرِبَ التعيسُ منها، فانتفَخْ … ثم رَسا على القرارِ، ورسَخ
وبعدَ ساعتَينِ غِيضَ الماءُ … وأَقلَعَتْ بأَمْرِهِ السماءُ
وكان في صاحِبنا بعضُ الرَّمَق … إذ جاءَهُ الموتُ بطيئًا في الغرَقْ
فلمحَ المركبَ فوْقَ الجُودِيِ … والرَّكبُ في خيْرٍ وفي سُعودِ
فقال: يالَجَدِّيَ التعيسِ … أَسأَت ظني بالنبي الرئيسِ!
ما كان ضَرَّني لو امتثَلتُ … ومِثلَما قد فعلوا فعلتُ؟!

الثَّعْلَبُ فِي السَّفِينَةِ

أَبو الحُصَيْنِ جالَ في السَّفِينَهْ فَعَرَفَ السَّمينَ والسَّمينه
يقولُ: إنَّ حالَه استَحالا وإنَّ ما كان قديمًا زالا
لِكوْنِ ما حَلَّ من المصائبِ من غَضَبِ اللهِ على الثعالِبِ
ويُغْلِظُ الأَيْمَانَ للديوكِ لِما عَسَى يَبقى من الشكوك
بأَنهمْ إن نَزَلوا في الأَرضِ يَرَوْنَ منه كلَّ شيءٍ يُرْضي
قيل: فلما تَركوا السفينه مَشى مع السَّمين والسمينه
حتى إذا ما نَصَفوا الطَّرِيقا لم يُبق منهمْ حَوْلَهُ رَفيقا
وقال: إذْ قالوا عَديمُ الدِّينِ لا عَجَبٌ إن حَنَثَتْ يَميني
فإنما نحن بَنى الدَّهاءِ نَعْمَلُ في الشّدَّةِ للرَّخاءِ
ومَنْ تخاف أَن يَبيعَ دينَهْ تَكفيكَ منه صُحْبَةُ السفينه!

اللَّيْثُ وَالذِّئْبُ فِي السَّفينَة

يقال إنّ الليْثَ في ذي الشِّدَّهْ رأَى من الذِّئبِ صَفا المودَّه
فقال: يا مَنْ صانَ لي مَحلَّي في حالَتيْ ولايتي وعَزْلي
إنْ عُدْتُ للأَرض بإذنِ اللهِ وعاد لي فيها قديمُ الجاهِ
أَعطيكَ عِجْليْنِ وأَلفَ شاة ثم تكونُ والِيَ الوُلاةِ
وصاحِبَ اللِّواءِ في الذِّئابِ وقاهِرَ الرعاةِ والكلابِ
حتى إذا ما تَمَّتِ الكرامَهْ ووَطِئَ الأَرضَ على السلامَه
سَعَى إليه الذِّئبُ بعدَ شهرِ وهْوَ مُطاعُ النَّهي ماضي الأَمْرِ
فقال: يا مَنْ لا تُداسُ أَرضُه ومَنْ له طُولُ الفَلا وعَرْضُه
قد نِلتَ ما نِلتَ منَ التكريمِ وذا أَوان المَوْعِدِ الكريمِ
قال: تجرَّأْتَ وساءَ زعمُكا فمَن تكونُ يا فتَى؟ وما اسمُكا؟
أَجابَه: إن كان ظنِّي صادِقا فإنَّني والي الوُلاةِ سابِقَا!

الثَّعْلَبُ وَالأَرْنَبُ فِي السَّفِينَةِ

أَتى نبيَّ اللهِ يومًا ثعلبُ   فقال: يا مولايَ، إني مُذْنِبُ
قد سوَّدَتْ صحيفتِي الذُّنوبُ   وإن وجدْتُ شافعا أَتوب
فاسأَلْ إلهي عَفوَهُ الجليلا   لِتائِبٍ قد جاءَهُ ذليلا
وإنني وإن أَسأتُ السَّيْرا   عَمِلْتُ شرًّا، وعملتُ خيرا
فقد أَتاني ذاتَ يوم أَرنبُ   يرتَعُ تحتَ منزلي ويَلعَبُ
ولم يَكن مراقِبٌ هُنالكا   لكنَّني تَركتُهُ معْ ذلكا
إذ عِفتُ في افتراسِهِ الدَّناءَهْ   فلم يَصِلهُ من يدي مَسَاءَهْ
وكان في المجلِسِ ذاك الأَرنَبُ   يَسمعُ ما يُبدِي هُناكَ الثعلَبُ
فقال لمَّا انقطعَ الحديثُ:   قد كان ذاكَ الزُّهدُ ياخبيث
وأَنت بينَ الموتِ والحياةِ   من تُخمةٍ أَلقتْك في الفلاةِ!

الأَرْنَبُ وَبِنْتُ عِرْسٍ فِي السَّفينَة

قد حَمَلَتْ إحدى نِسا الأَرانِبِ   وحلَّ يومُ وضعِها في المركَبِ
فقلِقَ الرُّكابُ من بكائها   وبينما الفتاةُ في عَنائها ...
... جاءَت عجوزٌ من بَناتِ عِرسِ   تقولُ: أَفدِي جارَتي بنفسي
أَنا التي أُرْجَى لِهذِي الغايهْ   لأَنني كنتُ قديمًا «دَايَهْ»
فقالتِ الأَرنبُ: لا ياجارَه   فإن بعدَ الألفةِ الزِّياره
مالي وُثوقٌ ببناتِ عِرْسِ   إني أُريدُ دايةً من جنسي!

الْحمَارُ فِي السَّفينَة

سِقط الحِمارُ منَ السَّفينةِ في الدُّجى   فبكى الرِّفاقُ لِفَقدِهِ، وتَرَحَّمُوا
حتى إذا طلعَ النَّهارُ أَتت بِه   نحوَ السفينةِ مَوْجَةٌ تَتقدَّمُ
قالتْ: خُذُوهُ كما أَتانِي سالمًا   لم أَبْتَلِعْهُ؛ لأَنه لا يُهضَمُ!

سُلَيْمَانُ عليه السَّلاَم وَالحَمَامَة

كـان ابـنُ داوُدٍ يُـقَـ ـرِّبُ في مجالسِهِ حمامَهْ
خـدَمَـتْـه عُـمْـرًا مِـثْـلَـمـا قد شاءَ صدْقًا واستِقامه
فـمـضَـتْ إلـى عُـمَّـالِـه يومًا تَبَلِّغُهمْ سَلامَه
والـكـتْـبُ تـحـتَ جَـنـاحِـهـا كُتِبَتْ لها فيها الكرامه
فـأَرادتِ الـحـمـقـاءُ تَـعـ ـرِفُ من رسائِله مَرامَه
عَـمَـدَتْ لأَوَّلِـهـا، وكـا ن إِلى خليفتِهِ برامه[٦]
فـرأَتْـهُ يـأْمُـرُ فـيـه عـا مِلَه بتاجٍ للحمامه
ويـقـولُ: وَفُّـوهـا الـرِّعـا يةَ في الرَّحيلِ، وفي الإقامه
ويُـشـيـرُ فـي الـثـانِـي بـأَن تُعطَى رِياضًا في تِهامه[??]
وأَتـتْ لِـثـالـثـهـا، ولـم تَستَحْي أَن فضَّتْ خِتامه
فـرأَتْـه يـأْمُـرُ أَن تـكـو نَ لها على الطَّيْرِ الزعامه
فـبـكـت لـذاك تـنـدُّمًـا هَيهاتَ لا تُجدِي النَّدامه!
وأَتـت نَـبـيَّ الـلـهِ وهْـ ـيَ تقولُ: يارَبِّ السَّلامه!
قالت: فَقَدْتُ الكتْبَ — يا مولايَ — في أَرضِ اليَمامه[??]
... لِـتَـسَـرُّعِـي لـمَّـا أَتـا ني البازُ يدفعُني أَمامه!
فـأَجـابَ: بَـل جِـئـتِ الـذي كادت تقومُ لهُ القيامَه
لـكـنْ كـفـاكِ عـقـوبـةً مَن خانَ خانتهُ الكرامَه!

الأَسَدُ وَالضِّفْدَع

انفعْ بِما أُعطِيتَ من قدرَةٍ واشفع لذي الذنبِ لَدَى المجمعِ
إِذ كيفَ تسمو لِعُلا يا فتَى إِن أَنتَ لم تنفع ولم تَشفعِ؟
عـنـدي لـهـذا نـبـأ صـادقٌ يُعجِبُ أَهلَ الفضل فاسمع، وعِ
قالوا: استَوى الليثُ على عرشهِ فجيءَ في المجلِسِ بالضِّفدَعِ
وقيل للسُّلطانِ: هذِي التي بالأَمسِ آذتْ عالِيَ المِسمَعِ
تُـنـقـنِـقُ الـدَّهـرَ بـلا عِـلَّـةٍ وتَدَّعي في الماءِ ما تَدَّعِي
فانظر — إِليك الأَمرُ — في ذنبِها ومُرْ نُعلِّقْها من الأَربَعِ

فنهضَ الفيلُ وزيرُ العُلا   وقال: يا ذا الشَّرَفِ الأَرفع
لا خيْرَ في الملكِ وفي عِزِّهِ   إنْ ضاقَ جاهُ الليثِ بِالضِّفدَعِ
فكتبَ الليثُ أَمانًا لها   وزاد أَنْ جاد بمُستنْقَعِ!

النَّملةُ الزَّاهدَة

سعْيُ الفتَى في عَيْشِهِ عِبادَهْ   وقائِدٌ يَهديهِ للسعادهْ
لأَنّ بالسَّعي يقومُ الكوْنُ   واللهُ للسَّاعِينَ نِعْمَ العَونُ
فإِن تشأ فهذِه حِكايهْ   تُعَدُّ في هذا المقامِ غايهْ
كانت بأَرضٍ نَملةٌ تَنْبالهْ   لم تَسْلُ يومًا لذَّةَ البطالهْ
واشتَهرَتْ في النمل بالتَّقشُّفِ   واتَّصفَتْ بالزُّهْدِ والتَّصَوُّفِ
لكن يقومُ الليْلَ مَن يَقتاتُ   فالبطْنُ لا تَملؤُه الصلاةُ
والنملُ لا يَسعَى إِليهِ الحبُّ   ونَملتي شَقَّ عليها الدأْبُ
فخرجَتْ إِلى التِماسِ القوتِ   وجعلتْ تطوفُ بالبُيوتِ
تقولُ: هل من نَملةٍ نَقِيَّهْ   تُنْعِمُ بالقوتِ لذِي الوَلِيَّهْ؟
لقد عَيِيتُ بالطَّوى المُبَرِّحِ   ومُنذ ليْلتيْن لم أَسبِّحِ
فصاحَتِ الجاراتُ: يا لَلعارِ   لم تترُكِ النملةُ للصرصارِ!
متى رضينا مثْلَ هذِي الحالِ؟   متى مددنا الكفَّ للسُّؤالِ؟!
ونحن في عين الوُجودِ أُمَّهْ   ذاتُ اشتِهارٍ بعُلوِّ الهمّهْ
نحمِلُ مالا يصبِرُ الجِمالُ   عن بعضِه لو أَنها نِمالُ
أَلم يقلْ من قولُه الصوابُ:   ما عِندنا لسائلٍ جَوابُ؟!
فامضي؛ فإِنَّا يا عجوزَ الشُّومِ   نَرَى كمالَ الزُّهْدِ أَن تصومي!

الْيَمَامَةُ وَالصَّيَّاد

يمامةٌ كانت بأَعلى الشَّجرهْ   آمِنَةً في عُشِّها مُسْتَتِره
فأَقبلَ الصَّيّادُ ذات يَومِ   وحامَ حوْلَ الرَّوضِ أَيَّ حَوْمِ

فلم يجِدْ للطَّيْر فيه ظِلاًّ   وهمَّ بالرحيلِ حينَ مَلاًّ
فبرَزَتْ من عُشِّها الحمقاءُ   والحُمْقُ داءٌ مالَه دواءُ
تقولُ جَهْلا بالذي سيَحدُثُ:   يا أَيُّها الإنسانُ، عَمَّ تبحثُ؟
فالتَفَتَ الصيادُ صوبَ الصوتِ   ونَحْوَه سدَّدَ سهْمَ الموتِ
فسَقَطَت من عرشِها المَكينِ   ووقعَت في قبضَةِ السِّكِّينِ
تقول قولَ عارف مُحقِّق: «مَلَكْتُ نفْسِي لو مَلَكْتُ مَنْطِقي!»

الْكلْبُ وَالْحَمَامَة

حِكايةُ الكلبِ معَ الحمامَه   تشهدُ للجِنسَيْنِ بالكرامَهْ
يُقالُ: كان الكلبُ ذاتَ يومِ   بينَ الرِّياضِ غارقًا في النَّوم
فجاءَ من ورائه الثعبانُ   مُنتفِخًا كأنه الشيطانُ
وهَمَّ أَن يَغدِرَ بِالأَمينِ   فرقَّتِ الورْقاءُ لِلمِسكينِ
ونَزلتْ توًّا تُغيثُ الكلبَا   ونَقَرَتْهُ نقرةً، فهبَّا
فحمدَ اللهَ على السلامَهْ   وحَفِظ الجميلَ للحمامَهْ
إذ مَرَّ ما مرَّ من الزمانِ   ثم أَتى المالكُ للبُستانِ
فسَبَقَ الكلب لتلك الشجرَهْ   ليُنْذرَ الطيرَ كما قد أَنذرَهْ
واتَّخذ النَّبْحَ له علامَهْ   ففهِمَتْ حديثَهُ الحمامهْ
وأَقلعتْ في الحالِ للخلاصِ   فسَلِمتْ من طائِرِ الرَّصاصِ
هذا هو المعروفُ يا أَهلَ الفِطَنْ   الناسُ بالناسِ، ومَن يُعِن يُعَنْ!

الْكَلْبُ وَالْبَبَّغَاءُ

كان لبعض الناسِ بَبَّغاءُ   ما ملَّ يومًا نُطقَها الإصغاءُ
رفيعةُ القدْرِ لَدَى مولاها   وكلُّ مَنْ في بيتِه يهواها
وكان في المنزلِ كلبٌ عالي   أَرْخَصَهُ وجودُ هذا الغالي
كذا القليلُ بالكثيرِ يَنقُصُ   والفضلُ بعضُه لبعضٍ مُرْخِصُ

فجاءَها يومًا على غِرارِ   وقلبُهُ من بُغضِها في نارِ
وقال: يا مليكةَ الطُّيورِ   ويا حياةَ الأُنسِ والسرورِ
بحسنِ نُطقِكِ الذي قد أَصبى   إلا أَرَيْتِني اللِّسانَ العذْبا
لأَنني قد حِرْتُ في التفكُّر   لمَّ سمعتُ أنه من سُكَّر!
فأَخْرَجتْ من طيشِها لسانها   فعضَّهُ بنابه، فشانَها
ثم مضى من فورِهِ يصيحُ:   قطعتُه لأَنه فصِيحُ!
وما لها عنديَ من ثأْرٍ يُعدُّ   غيرَ الذي سمَّوْهُ قِدْمًا بالحسدْ!

الْحمَارُ وَالْجَمَل

كان لبعضِهمْ حِمارٌ وجَملْ   نالهُما يومًا من الرِّق مَلَلْ
فانتظرَا بَشائرَ الظَّلماءِ   وانطَلقا معًا إِلى البَيْداءِ
يجتلِيانِ طلعةَ الحرِّيَّهْ   ويَنشَقانِ ريحَها الزكيَّهْ
فاتفَقا أَن يَقضيا العُمْرَ بها   وارتضَيا بمائِها وعُشبِها
وبعدَ ليلةٍ من المسيرِ   التفت الحِمارُ لِلبعيرِ
وقال: كربٌ يا أَخي عظيمُ   فقفْ؛ فمشيَ كلُّهُ عقيمُ!
فقال: سَلْ فِداكَ أُمِّي وأَبي   عسى تنالُ بي جليلَ المطلبِ
قال: انطلقْ معي لإِدراكِ المُنى   أَو انتظِر صاحبَكَ الحرَّ هنا
لابْدّ لي من عَوْدة للبَلدِ   لأَنني تركتُ فيه مِقوَدِي!
فقال سر والزَمْ أَخاكَ الوَتِدا   فإِنما خُلِقْتَ كي تُقيَّدا!

دُودَةُ الْقَزِّ وَالدُّودَةُ الْوَضَّاءَة

لِدودةِ القزِّ عندي   ودودةِ الأَضـــواءِ
حكايةٌ تشتَهيها   مسامعُ الأَذكياءِ
لمَّا رأَت تِلكَ هذِي   تنُيرُ في الظلماءِ
سَعَتْ إِليها، وقالت: تعيشُ ذاتُ الضِّياءِ!

أَنـا الـمؤمَّلُ نـفـعـي أَنـا الـشـهـيرُ وفـائـي
حلا ليَ النَّفعُ حتى رضيتُ فيه فنائي
وقـد أَتـيْـتُ لأَحـظـى بـوجـهـكِ الـوضَّـاءِ
فهل لنُورِ الثُّرَى في مَـوَدّتـي وإِخـائـي؟
قالت: عَرَضتِ علينا وجهًا بغيرِ حياءٌ
مَن أَنتِ حتى تُداني ذَاتَ السَّنا والسَّناءِ؟!
أَنا البديعُ جمالي أَنا الرفيعُ عَلائي
أَين الكواكبُ مني؟! بل أَين بدرُ السماءِ؟!
فامضي؛ فلا وُدَّ عندي إِذ لستِ من أَكفائي!
وعند ذلك مرَّتْ حسناءُ معْ حسناءِ
تقولُ: للهِ ثوبي في حُسنِه والبَهاءِ!
كم عندنا من أَيادٍ لـلـدودةِ الـغـرَّاءِ!
ثم انثَنتْ فأَتتْ ذي تـقـولُ لـلـحـمْـقـاءِ:
هل عندكِ الآنَ شَكٌّ في رُتبتي القَعساءِ؟!
وقد رأَيتِ صنيعي وقد سمعتِ ثَنائي؟!
إِن كان فيك ضياءٌ إِن الثناءَ ضيائي
وإِنـه لـضـيـاءٌ مـؤيَّـدٌ بـالـبـقـاءِ!

الْجَمَلُ وَالثَّعْلَبَ

كان على بعضِ الدُّروبِ جَملُ حَمَّلهُ المالكُ ما لا يُحملُ
فقال: يا للنَّحسِ والشقاءِ! إِن طال هذا لم يَطُلْ بقائي
لم تحمِلِ الجبالُ مثلَ حِملي أَظنُّ مولاي يُريد قتلي!
فجاءَهُ الثعلبُ من أَمامِهْ وكان نالَ القصدَ من كلامِهْ
فقال: مهلاً يا أَخا الأحمالِ ويا طويلَ الباعِ في الجِمالِ
فأَنتَ خيرٌ من أَخيكَ حالاً لأَنـنـي أَتـعَـبُ مـنـك بـالاً
كـأَن قُـدّامِـي أَلـفَ ديـكِ تسأَلني عن دمها المسفوكِ

كأَنّ خَلفي أَلفَ أَلفِ أَرنبِ   إذا نهضتُ جاذبتني ذَنَبي
ورُبَّ أُمٍّ جئتُ في مُناخِها   فجعتُها بالفتكِ في أفراخِها
يبعَثُني مِنْ مَرْقدي بُكاها   وأَفتحُ العيْن على شكواها
وقد عرفتَ خافيَ الأَحمالِ   فاصبِرْ، وقلْ لأُمَّةِ الجِمال:
ليسَ بحملٍ ما يَمَلُّ الظهرُ   ما الحِمْلُ إلا ما يُعاني الصَّدْرُ

الْغَزَالَةُ والأَتَانُ

غزالةٌ مرَّتْ على أَتانِ   تُقبِّلُ الفَطِيمَ في الأَسنانِ
وكان خلف الظَّبْيةِ ابنُها الرَّشا   بِوُدِّها لوْ حَمَلتْه في الحَشا
ففعلتْ بسيِّد الصِّغارِ   فِعْلَ الأَتَانِ بابنِها الحمارِ
فأَسرع الحمارُ نحوَ أُمِّهِ   وجاءَها والضحْكُ مِلْءُ فمِهِ
يصيحُ: يا أُمّاه، ماذا قد دها   حتى الغزالةُ استَخفَّت ابنَها؟!

الثَّعْلَبُ الَّذي انْخَدَع

قد سمِعَ الثعلبُ أَهلَ القرَى   يدعونَ مُحتالاً بيا ثعلبُ!
فقال حقًّا هذه غايةٌ   في الفخْرِ لا تُؤْتَى ولا تُطْلب
مَن في النُّهى مِثْلِي حتى الورَى   أَصبَحْتُ فيهم مَثلاً يُضْرب
ما ضَرَّ لو وافيْتُهم زائرًا   أُرِيهِمُ فوقَ الذي استغرَبوا
لعلَّهم يُحْيُون لي زينةً   يَحضُرُها الدِّيكَ أَوِ الأَرنب
وقصَدَ القوْمَ وحياهُم   وقام فيما بينهم يَخطُب
فأُخِذَ الزائرُ من أُذنِه   وأُعطيَ الكلبَ بِه يلعَب!
فلا تَثِق يومًا بِذي حِيلةٍ   إذْ رُبَّما يَنخَدِعُ الثعلب!

ثُعَالَةُ وَالْحِمَارُ

أَتـى ثـعـالَـةَ يـومًـا | من الضَّـواحـي حِـمارُ
وقال إِن كنتَ جاري | حـقًّـا ونـعـمَ الـجـار
قل لـي فإِنـي كئيبٌ | مُـفـكـرٌ مُـحـتـار
في موْكِبِ الأَمسِ لمَّا | سرنا وسارَ الكِبار ...
... طرَحْتُ مولاي أَرضًا | فـهـل بـذلـك عـار
وهـل أَتـيْـتُ عظيـمًا! | فـقـال: لا يـا حِـمـار!

الْبَغْلُ وَالْجَوَادُ

بـغـلٌ أَتـى الـجـوادَ ذات مَـرَّهْ | وقـلـبُـهُ مُـمـتـلِـئٌ مَـسَـرَّهْ
فقال: فضلي قد بدا يا خِلِّي | وآنَ أَن تـعْـرِفَ لـي مَـحـلِّـي
إِذ كنتَ أَمْسِ ماشيًا بجانبي | تعجَبُ من رقصيَ تحتَ صاحبي
أَخـتـالُ، حـتـى قـالـتِ الـعـبـادُ: | لمَنْ مِن الملوكِ ذا الجوادُ؟
فضَـحِـكَ الـحِـصانُ من مقالِهِ | وقـال بـالـمـعـهـود من دلالِـهِ:
لم أَر رقصَ البغلِ تحتَ الغازي | لـكـن سـمعـتُ نـقرَة الـمِـهـمـازِ!

الْفَأْرَةُ وَالْقِطَّةُ

سَـمِـعْـتُ أَنَّ فـأْرَةً أَتـاهـا | شـقـيـقُـهـا يَـنـعَـي لـهـا فَـتـاهـا
يصيحُ: يا لي مِن نُحوسِ بَختي | مَنْ سَلَّط القِطَّ على ابنِ أُختي؟!
فـوَلـوَلـتْ وعـضَّـتِ الـتُّـرابَـا | وجَـمَـعَـتْ لـلـمَـأْتَـمِ الأَتـرابـا
وقالتِ: اليَومَ انقضَت لذَّاتي | لا خيْرَ لي بعدَكَ في الحياةِ
من لـي بـهـرٍّ مثلِ ذاك الـهـرِّ | يُريحُني من ذا العذابِ المرِّ؟!
وكـان بـالـقـرْبِ الـذي تـريـد | يَسمَعُ ما تُبْدِي وما تُعيدُ
فـجـاءَهـا يـقـولُ: يـا بُـشْـراكِ | إِن الـذي دَعَـوْتِ قـد لـبَّـاك!
فـفَـزِعـت لـمَّـا رأَتـه الـفـارَهْ | واعتَصَمَتْ منه ببيْتِ الجارَهْ
وأَشَـرفـتْ تـقـولُ لـلـسَّـفـيـهِ: | إِن مُتُّ بعدَ ابني فَمَنْ يَبكيه؟!

الْغَزَالُ وَالْخَرُوفُ وَالتَّيْسُ وَالذِّئْبُ

تَنازَعَ الغزالُ والخروفُ — وقال كلٌّ إنه الظَّريف
فرأَيا التَّيْسَ؛ فظَنَّا أَنَّه — أَعطاهُ عقلاً مَنْ أَطالَ ذقنَه!
فكلَّفاه أَن يُفَتِّشَ الفَلا — عن حَكَمٍ له اعتِبارٌ في المَلا
ينظُرُ في دَعواهُما بالدِّقَّهْ — عساهُ يُعطِي الحقَّ مُسْتحِقَّه
فسارَ للبحثِ بِلا تَواني — مُفتَخِرًا بثِقةِ الإِخوانِ
يقول: عِندي نظرةٌ كبيرهْ — تَرفعُ شأْنَ التَيْسِ في العَشيرهْ
وذاكَ أَنَّ أَجدَرَ الثَّناءِ — بالصِّدْقِ ما جاءَ من الأَعداءِ
وإِنني إِذا دَعَوْتُ الدِّيبَا — لا يستطيعانِ له تكذيبا
لكوْنه لا يَعرفُ الغزالا — وليس يُلقِي للخروفِ بالا
ثم أَتى الذِّيبَ، فقال: طِلْبَتي — أَنتَ، فسِرْ معي، وخُذْ بلحيتي!
وقادَه للموضِع المعروفِ — فقامَ بين الظَّبيِ والخروفِ
وقال: لا أَحكمُ حَسْبَ الظاهِر — فمزَّقَ الظَّبْيَيْنِ بالأَظافِرِ
وقال للتيْس: انطلقْ لِشأْنِكا — ما قتَل الخَصْمَيْن غيْرُ ذَقنكا!

الثَّعْلَبُ وَالأَرْنَبُ وَالدِّيكُ

من أَعجَبِ الأَخبارِ أَن الأَرنبا — لمَّا رأى الدِّيكَ يَسُبُّ الثعْلبا
وهْوَ على الجِدارِ في أَمانِ — يَغلبُ بالمكانِ، لا الإِمكانِ
داخَلهُ الظنُّ بأَنَّ الماكرا — أَمْسى من الضَّعفِ يُطيقُ الساخِرا
فجاءَهُ يَلْعَنُ مثل الأَوَّلِ — عِدادَ ما في الأَرضِ من مُغفَّلِ
فعصَفَ الثعلبُ بالضعيفِ — عَصْفَ أَخيه الذِّيبِ بالخروف
وقال: لي في دَمِكَ المسفوكِ — تسليةٌ عن خيْبتي في الديكِ!
فالتفتَ الديكُ إِلى الذبيح — وقال قولَ عارِفٍ فصيح
ما كلُّنا يَنفعُهُ لسانُهْ — في الناس مَن يُنطقُه مَكانُهْ!

الثَّعْلَبُ وَأُمُّ الذِّئْبِ

كـان ذئـبٌ يَـتـغـدَّى　　فجرتْ في الزَّوْر عَظمَهْ
أَلـزَمَـتْـهُ الـصَّـوْمَ حتـى　　فَجعَتْ في الروح جسْمَهْ
فـأَتـى الـثـعـلَبُ يبكي　　ويُـعـزِّي فـيـه أُمَّـه
قـال: يـا أُمَّ صـديقـي　　بـيَ مـمـا بـكِ غُـمَّـهْ
فـاصبِري صبرًا جميلاً　　إنّ صـبْـرَ الأُمِّ رحْـمـه!
فأَجابتْ: يا ابنَ أُختي　　كلُّ ما قد قلتَ حِكمَهْ
ما بيَ الـغـالـي، ولـكن　　قـولُـهُـم: ماتَ بِـعظْـمَـه!
لـيْـتـه مـثـلَ أَخـيـه　　ماتَ محسودا بتُخْمَه!

هوامش

(١) المقصود «ابن سينا» الطبيب العربي.
(٢) البصير: الأعمى.
(٣) تعني الليل والخفاش لا يأنس إلا بالظلام.
(٤) أبو المسك الخصي: كافور الإخشيد وكان عبدًا أسود.
(٥) تعني الضوء.
(٦) رامة، وتهامة، واليمامة: أمكنة.

ديوان الأطفال

مجموعة من الشعر السهل، نظمها لتكون للأطفال أدبًا وثقافة.

الْهِرَّةُ والنَّظَافة

هِـرَّتـي جِـدُّ أَلـيـفَـهْ   وهْـي للـبيـتِ حليفهْ
هـي مـا لـم تـتـحـرَكْ   دُمْيةُ البيتِ الظريفه
فـإذا جـاءَتْ وراحـتْ   زِيدَ في البيتِ وصِيفه
شغْلها الفارُ: تُنقِّي الرَّ   فَّ منـه والـسَّـقـيـفَـهْ
وتقومُ الظهرَ والعصــ   ــرَ بـأَوراد شـريـفـه
ومن الأَثوابِ لم تمــ   ــلِكْ سوى فروٍ قطيفه
كلما استَوسَخَ، أَو آ   وَى البراغيثَ المُطِيفه
غـسَـلْـتُـه، وكـوَتْـه   بـأَسـالـيـبَ لـطـيـفـه
وحَّدَتْ ما هو كالحمَّا   م والـمـاءِ وظـيـفـه
صَيَّرَتْ ريقتَها الصَّا   بونَ، والشاربَ لِيفه
لا تَمُرَّنَّ على العين   ولا بـالأَنـفِ جـيـفـه
وتـعـوَّدْ أَن تُـلاقَـى   حسَنَ الثوبِ نظيفه
إِنما الثوْبُ على الإِنســ   ــان عُنوانُ الصحيفة

الْجَدَّةُ

لـي جَـدَّةٌ تَـرْأَفُ بـي	أَحنَـى علـيَّ مِـن أَبـى
وكـلُّ شـيءٍ سـرَّنـي	تـذهـب فـيـه مَـذهـبـي
إِن غضِبَ الأَهلُ عليَّ	كلُّـهـم لـم تَـغـضَـب
مشى أَبى يومًا إِلـيَّ	مِـشـيـةَ الـمـؤدّبِ
غَضبانَ قد هَدَّدَ بالضرْبِ،	وإِن لـم يَـضـرِبِ
فـلـم أَجِـد لـي مـنـهُ	غيرَ جَدَّتي من مَهرَبِ
فـجـعَـلـتـنـي خـلـفَـهـا	أَنجو بـهـا، وأَخْـتـبـي
وهْـيَ تـقـولُ لأَبـي	بِـلـهـجـة الـمـونِّـبِ:
ويـحٌ لـه! ويـحٌ لِـهــ	ــذا الولدِ المُعَذَّبِ!
أَلـم تـكـن تـصـنـعُ مـا	يَصنعُ إِذا أَنت صبي؟

الْوَطَن

عُصفورتانِ في الحِجا	زِ حَلَّتـا عـلـى فنَـن
فـي خامِلٍ من الرِّيا	ضِ، لا نَدٍ، ولا حسَـن
بينـا هُمـا تَنتَجِيا	نِ سَحَرًا على الغُصُن
مَـرَّ عـلـى أَيـكِـهـمـا	ريحٌ سَرَى مِنَ اليَمَنْ
حـيَّـا وقـال: دُرَّتـا	نِ في وِعاءٍ مُمَتَهَن!
لقد رأيتُ حَوْلَ صَنـ	ـعَاءَ، وفي ظلِّ عَدَن[1]
خـمـائـلاً كـأَنـهـا	بقِيَّةٌ من ذِي يزَن[2]
الـحَـبُّ فـيـهـا سُـكَّرٌ	والـمـاءُ شُـهْـدٌ ولـبَـن
لم يَرها الطَّيْرُ ولم	يَسمَعْ بها إِلا افتَتَن
هـيَّا اركبانـي نـأْتِـهـا	في ساعة منَ الزمن
قـالـتْ لـه إِحـداهـمـا	والطَّيْرُ مِنهنّ الفطِنْ:
يا ريحُ أَنتَ ابنُ السَّبيـ	ـل، ما عَرَفْتَ ما السَّكن
هَب جنةَ الخُلدِ اليمن	لا شيءَ يَعدِلُ الوطن!

الرِّفْقُ بالْحَيَوَان

الحيوانُ خَلْقُ ... له عليْكَ حَقُّ
سَخَّرَه اللهُ لكا ... وللعِبادِ قَبْلَكا
حَمُولةُ الأَثقالِ ... ومَرْضِعُ الأَطفالِ
ومُطْعِمُ الجماعةْ ... وخادِمُ الزِّراعة
مِنْ حقِّهِ أَن يُرْفَقا ... به وأَلا يُرْهَقا
إِن كَلَّ دَعْهُ يَستَرِحْ ... وداوِه إِذا جُرِحْ
ولا يَجُعْ في دارِكا ... أَو يَظْمَ في جِوارِكا
بهيمةٌ مِسكِينُ ... يشكو فلا يُبينُ
لسانُه مقطوعُ ... وما له دُموع!

الأُمُّ

لولا التُّقى لقلتُ: لم ... يَخلُقْ سِواكِ الوَلدا!
إِن شِئتِ كان العَيْرَ، أَو ... إِن شئتِ كان الأَسدا
وإِن تُرِدْ غَيًّا غَوى ... أَو تَبْغِ رُشْدًا رَشدا
والبيْتُ أَنتِ الصوتُ فيـ ... ـه، وهْوَ للصَّوتِ صَدى
كالبّبَّغا في قفصٍ: ... قِيلَ له، فقَلَّدا
وكالقضيبِ اللِّدْنِ: قدْ ... طاوَع في الشَّكلِ اليَدا
يأْخُذُ ما عَوَّدْتِه ... والمرءُ ما تعوَّدا!

وَلَدُ الْغُرَاب

ومُمهَّد في الوكرِ من ... ولدِ الغرابِ مُزَقَّقِ
كرُوَيهِبٍ مُتَقلِّسٍ ... مُتأَزِّرٍ، مُتَنطِّقِ[٣]
لبسَ الرَّمادَ على سَوا ... دِ جَناحِه والمَفرِقِ

كالفحْمِ غادرَ في الرَّما ... دِ بقِيَّةً لم تُحرَق
ثُلثاهُ مِنقارٌ ورأ ... سٌ، والأَظافِرُ ما بقِي
ضخمُ الدِّماغِ على الخُلُوِّ ... مِنَ الحِجَى والمنطِقِ
مِنْ أُمِّهِ لقي الصغـ ... ـيرُ منَ البَلِيّةِ ما لقِي
جَلبَتْ عليهِ ما تَذو ... دُ الأُمَّهاتُ وتَتَّقي
فُتِنت به، فَتوَهَّمَتْ ... فيه قُوًى لم تخلق
قالت: كبِرْتَ، فثِب كما ... وثب الكِبارُ، وحلِّق
ورَمَتْ به في الجوِّ، لم ... تَحرِصْ، ولم تَسْتَوثِق
فَهَوى، فمُزِّق في فِنا ... ءِ الدارِ شرَّ مُمزَّق
وسَمِعتُ قاقاتٍ تُردَّ ... دُ في الفضاءِ وترتَقي
ورأَيتُ غِرْبانًا تَفَرَّ ... قُ في السماءِ وتلتقي
وعرفتُ رَنَّةَ أُمِّهِ ... في الصارِخاتِ النُّعَّقِ
فأَشرْتُ، فالتَفَتَتْ، فقلـ ... ـتُ لها مَقالةَ مُشْفِق:
أَطلِقته؛ ولو امتَحنـ ... ـتِ جَناحَه لم تُطلِقي
وكما تَرَفَّقَ والِدَا ... كِ عليكِ لم تَتَرَفَّقي!

النِّيل

النِّيلُ العَذْبُ هو الكوْثرُ ... والجنةُ شاطئُه الأَخضَرْ
ريَّانُ الصَّفْحَةِ والمنظَر ... ما أَبهَى الخُلدَ وما أَنضَر!
البحرُ الفَيَّاضُ، القُدْسُ ... الساقي الناسَ وما غرَسوا
وهو المِنْوالُ لما لبِسوا ... والمُنْعِمُ بالقطنِ الأَنوَر
جعلَ الإِحسانَ له شَرْعَا ... لم يُخْلِ الواديَ من مَرْعى
فَترَى زرعًا يَتلو زرعا ... وهُنا يُجنَى، وهُنا يُبْذَر
جارٍ ويُرَى ليس بجارِ ... لأَناةٍ فيه ووقار
يَنصَبُّ كتَلٍّ مُنْهارِ ... ويَضِجُّ فَتحسَبُه يَزأَر
حَبَشِيُّ اللَّوْنِ كجِيرتِه ... من مَنْبَعِه وبُحيْرَتِه

صَبَغَ الشَّطَّيْنِ بسُمْرَته لوْنًا كالمسكِ وكالعَنبَر

الْمَدْرَسَة

أَنا المدرَسةُ اجعَلني كأُمٍّ، لا تَمِلْ عنِّي
ولا تفْزَعْ كمأخوذٍ من البيتِ إلى السِّجن
كأني وجْهُ صَيَّادٍ وأَنت الطيرُ في الغصن
ولا بُدَّ لك اليوْمَ — وإلا فغدًا — مِنِّي
أَوِ استَغْنِ عن العقلِ إذنْ عَنِّيَ تستغني
أَنا المِصْباحُ للفِكرِ أَنا المِفتاحُ للذِّهْن
أَنا البابُ إلى المجدِ تعالَ ادخلْ على اليُمْن
غدًا تَرْتَعُ في حَوْشي ولا تشبَعُ من صَحْنِي
وأَلقاكَ بإخوانٍ يُدانونَكَ في السِّنِّ
تُنادِيهمْ بيا فِكري ويا شَوقي، ويا حُسني
وآباءٍ أَحَبُّوكَ وما أَنت لهم بابن

نَشِيدُ مصْر

بَنى مِصرٍ مَكانُكمُو تَهَيَّا فَهَيَّا مَهدُوا للمُلكِ هيَّا
خُذوا شمسَ النهارِ له حُلِيًّا أَلم تَكُ تاجَ أَوَّلِكم مَلِيًّا؟!
على الأَخلاق خُطُّوا المُلكَ وابنوا فليسَ وراءَها للعِزِّ رُكن
أَليس لكم بِوادِي النِّيل عَدْنُ وكوثرُها الذي يَجري شهيّا؟!
لنا وطنٌ بأَنفسِنا نَقيه وبالدُّنيا العريضةِ نَفتديه
إذا ما سِيلَتِ الأَرواحُ فيه بَذَلناها كأَنْ لم نُعْطِ شيَّا
لنا الهَرَمُ الذي صحِبَ الزمانا ومن حَدَثانِه أَخذ الأَمانا
ونحنُ بنو السَّنا العالي، نمانا أَوائلُ عَلَّموا الأُمَمَ الرُّقِيا
تطاوَلَ عهدُهمْ عِزا وفخرًا فلما آل للتاريخِ ذُخْرا

نشأنا نشأَةً في المجدِ أُخرى | جَعَلنا الحقَّ مَظْهرَها العَلِيّا
جعلنا مِصْرَ مِلَّةَ ذي الجَلالِ | وَأَلَّفْنَا الصليبَ على الهلالِ
وأَقبَلنا كصفٍّ من عَوالِ | يُشدُّ السَّمْهَرِيُّ السَّمْهَرِيّا
نرومُ لِمصرَ عِزًّا لا يُرَامُ | يَرِفُّ على جوانبِه السَّلامُ
وينَعمُ فيه جِيرانٌ كِرامُ | فلن تَجدَ النَّزيلَ بنا شقيًّا
نقومُ على البِنايةِ مُحسِنينا | ونعهَدُ بالتَّمامِ إلى بنينا
إليْكِ نَموتُ — مِصْرُ — كما حَيينا | ويَبقى وجهُكِ المَفْدِيُّ حيًّا

نَشِيدُ الْكَشَّافَةِ

نحنُ الكَشَّافةُ في الوادي | جِبريلُ الروحُ لنا حادِي
يارِبِّ، بِعيسى، والهادي | وبموسى خذْ بيَدِ الوطنِ
كشَّافةُ مِصرَ، وصِبيَتُها | ومناةُ الدارِ، ومُنيتُها
وجمالُ الأَرضِ، وحليتُها | وطلائعُ أَفراحِ المدُنِ
نَبتدِرُ الخيرَ، ونَستبِقُ | ما يَرضَى الخالقُ والخُلُقُ
بالنفسِ وخالِقِها نثِقُ | ونَزيدُ وُثوقًا في المِحَنِ
في السَّهلِ نَرِف رَياحِينا | ونجوبُ الصَّخر شياطينا
نبْني الأَبدانَ وتبنينا | والهِمَّةُ في الجسم المَرِنِ
ونُخَلِّي الخلقَ وما اعتقدوا | ولوَجه الخالِقِ نجتهدُ
نأسو الجْرحَى أَنَّى وُجدُوا | ونُداوي مِنْ جَرْح الزَّمَنِ
في الصِّدْقِ نشأنا والكَرَمِ | والعِفَّةِ عن مَسِّ الحُرَمِ
ورعايةِ طفلٍ أَو هَرِمِ | والذوْدِ عن الغِيدِ الحُصُنِ
ونُوافي الصَّارخَ في اللُّجَجِ | والنارِ الساطعةِ الوَهَجِ
لا نسأَلُهُ ثمنَ المُهَجَ | وكفى بالواجِبِ من ثمنِ
يارِبِّ، فكثِّرْنا عدَدا | وابذُل لأُبوَّتِنا المَدَدا
هَيِّئْ لهمُ ولنا رَشَدا | يارِبِّ، وخُذ بِيَد الوطن

هوامش

(١) صنعاء وعدن: من بلاد اليمن.

(٢) ذو يزن: من ألقاب ملوك اليمن في التاريخ القديم.

(٣) رويهب: راعب صغير، والمتقلس، والمتأزر، والمتنطق: الذي يلبس القلنسوة، والإزار، والنطاق، كالرهبان.

(٤) القاقات: نعيق الغربان.

من شعر الصبا

قصرَ الأعزةِ، ما أعزَّ حماكا!

«وقال في صباه يهنئ الخديو توفيق بعيد الفطر ويشير إلى صلة أنفذها إليه وهو في الدراسة بأوربا»

قصْرَ الأَعِزَّةِ، ما أَعَزَّ حِماكا! وأَجَلَّ في العَلياءِ بَدْرَ سَماكا!
تتساءَلُ العربُ المُقَدَّسُ بيْتُها: أَأُعِيدَ بانِي رُكِنه فبَناكا؟!
وتقولُ إذْ تأَتِيكَ تَلتمِسُ الهُدَى: سِيَّانِ هذا في الجلال وذاكا
يا مُلتَقى القمَرَيْنِ، ما أَبهاكَ! بل يا مَجْمَعَ البَحْرَين، ما أَصفاكا!
إِنّ الأَمانةَ، والجلالةَ، والعُلا في هالةٍ دارتْ على مغْناكا
ما العِزُّ إلا في ثرَى القَدَمِ التي حَسَدَتْ عليها النيِّراتُ ثراكا
يا سادِسَ الأُمَراءِ من آبائِه ما للإمارةِ مَنْ يُعَدُّ سِواكا
التُّرَّكُ تَقرأُ باسمِ جَدِّك في الوَغى والعُرْبُ تَذكرُ في الكتاب أَباكا[1]
نَسَبٌ لوِ انتَمَت النُّجومُ لِعقْدِه لتَرَفَّعَتْ أَن تَسكنَ الأَفلاكا
شرَفًا — عزيزَ العصرِ — فُتَّ مُلوكَهُ فضْلاً، وفاتَ بَنيهِمُ نَجلاكا
لك جنَّةُ الدنيا، وكوْثرُها الذي يجري به الملكِ شَرْطُ غِناكا
ولك المدائنُ والثُّغورُ مَنيعةً في مَجْمَعِ البحرين تحتَ لِوَاكا
مُلْكٌ رعيْتَ اللهَ فيه، مؤيَّدًا باسم النبيِّ، موَفَّقًا مَسعاكا
فأَقمتَ أمْرًا — يا أَبا العباسِ — مأْ مونَ السبيلِ على رَشيد نُهاكا
إِن يَعرضوهُ على الجبال تَهنْ له وهِيَ الجبالُ، فما أَشدَّ قُواكا!

بسياسة تقفُ العقولُ كليلةً لا تستطيع لكُنْهِها إدراكا
وبحكمةٍ في الحكمِ توفيقيَّةٍ لك يَقتَفي فيها الرجالُ خُطاكا
مَولايَ، عيدُ الفطرِ صُبحُ سُعودِه في مِصرَ أسفَر عن سنا بُشْراكا
فاستقبلِ الآمالَ فيه بشائِرًا وأشائرًا تُجْلَى على عَلياكا
وتلقَّ أَعيادَ الزمان مُنيرةً فهناؤه ما كان فيه هَناكا
أَيَّامُكَ الغرُّ السعيدةُ كلُّها عيدٌ، فعيدُ العالمين بَقاكا
فليَبْقَ بيتُكَ، ولَيَدُمْ ديوانُه ولْيَحْيَ جُندُكَ، ولْتَعِشْ شُوراكا
ولْيَهنِني بك كلّ يومٍ أَنني في أَلفِ عيدٍ من سُعودِ رضاكا
يأَيها الملك الأَريبُ، إِليكها عذراءَ هامتْ في صفاتِ عُلاكا
فطوتْ إليكَ البحرَ أَبيضَ نِسبةً لِنظيرِه الموردِ من يُمناكا
قدِمَتْ على عيدٍ لبابك بعدما قدِمَتْ عليَّ جديدةً نُعماكا
أَوَ كلَّما جادَت نَداكَ رَوِيَّتي سَبَقتْ ثَنايَ بالارتجالِ يداكا؟!
أَنتَ الغنيُّ عن الثناءِ، فإِن تُرِدْ ما يُطربُ الملكَ الأَديبَ فهاكا!

قَصْرُ الْمُنْتَزَه

«وقال يصف قصر المنتزه العامر بالإسكندرية بعد رؤية معالمه الشائقة بدعوة من الجناب العالي سنة ١٨٩٥»

مُنتَزهُ العبّاسِ للمجتَلي آمنتُ باللهِ وجَنَّاتِهِ!
العيشُ فيه ليس في غيرِهِ يا طالبَ العيشِ ولذّاتِهِ
قصورُ عزٍّ باذخاتُ الذُّرَى يودُّها كسرَى مَشيداتِه
من كل راسي الأَصل تحت الثرى مُحير النجمِ بِذِرواته
دارتْ على البحرِ سلاليمُهُ فبتن أَطواقًا لِلَبَّاتِه
مُنتظِماتٌ مائجاتٌ به مُنمقاتٌ مثلَ لُجَّاتِه
من الرخامِ النذْرِ، لكنها تُنازعُ الجوهَرَ قيماته
من عملِ الإِنسِ، سوى أَنها تُنسي سليمانَ وجِنَّاته
والريحُ في أَبوابِه، والجوا ري مائلاتٌ دون ساحاته

وغابُه مَنْ سارَ في ظلِّها   يَأْتي على البُسفورِ غاباتِه
بالطولِ والعرضِ تُباهِي، فذَا   وافٍ، وهذا عند غاياتِه
والرَّمْلُ حال بالضُّحى مُذهَبٌ   يُصَدِّئُ الظلُّ سَبيكاتِه
وتُرْعةٌ لو لم تكن حُلوَةً   أَنْسَتْ «لَمَرْتِينَ» بُحَيْراتِه[2]
أَوْ لم تكنْ ثَمَّ حياةَ الثرَى   لم تُبْقِ في الوصفِ لحيّاتِه
وفي فمِ البحرِ لِمنْ جاءَهُ   لِسانُ أَرضٍ فاقَ فُرْضاتِه
تَنْحَشِدُ الطَّيْرُ بأَكنافِه   ويَجمعُ الوحشُ جماعاتِه
مِنْ معِزٍ وَحْشِيَّةٍ، إن جَرَتْ   أَرَتْ مِن الجرْيِ نِهاياتِه
أَو وثَبتْ فالنَّجْمُ من تحتِها   والسُّورُ في أَسْرِ أَسِيراتِه
وأرنبٌ كالنَّملِ إن أحصيَتْ   تَنْبُتُ في الرَّملِ وأَبياته
يَعلو بها الصَّيْدُ ويعلو إذا   ما قيْصَرٌ أَلقَى حِبالاته
ومن ظِباءٍ في كِناساتِها   تَهيجُ العاشِقِ لَوْعاتِه
والخَيْلُ في الحيِّ عراقِيَّةٌ   تَحمِي وتُحمَى في بُيوتاته
غُرٌّ كأَيامِ عزيزِ الورَى   مُحجَّلاتٌ مِثل أَوقاته

«وقال يهنئ الخديو توفيق بقدوم نجليه من سياحتهما بأوربا»

ما باتَ يُثني على علياكَ إنسانُ   إلا وأَنت لعَيْنِ الدَّهْرِ إنسانُ
وما تَهلَّلتَ إذْ وافاكَ ذو أَمَلٍ   إلا وأَدهَشَه حُسْنٌ وإحسان
لله ساحَتُكَ المسعودُ قاصِدُها   فإنما ظِلُّها أَمْنٌ وإيمان
لئِنْ تَباهى بِك الدِّينُ الحنيف لَكَمْ   تقوَّمَتْ بك للإسلامِ أَركان
تُراقِبُ اللهَ في مُلكٍ تدَبِّرُه   فأَنت في العدْلِ والتَّقوى سُليمان
أَنجَى لك اللهُ أَنجالاً يُهيِّئُهم   لرِفعَةِ المُلكِ إقبالٌ وعِرْفان
أَعِزَّةٌ أَينَما حلَّتْ ركائِبُهم   لهم مكانٌ كما شاءُوا وإمكان
لم تثنِهِمْ عن طِلابِ العِلمِ في صِغَرٍ   في عزِّ مُلكِك — أَوطارٌ وأَوطان
تأَبى السعادةُ إلا أَن تُسايِرَهم   لأنهم لِملوكِ الأَرضِ ضيفان
نجلانِ قد بلغا في المجدِ ما بَلَغا   مُعَظَّمٌ لهما بين الورى شان
يكفيهما في سبيل الفخرِ أَن شَهدَتْ   بفضلِ سَبقِهما روسٌ وأَلمان

هُما هُما، تعرِفُ العَلياءُ قدرَهُما ... كِلاهُما كَلِفٌ بالمجدِ يَقظان
ما الفَرْقَدانِ إذا يومًا هُما طلعا ... في مَوكِبٍ بهما يَزهو ويزدان؟
يا كافِيَ الناس بعد الله أَمْرَهُمُ ... النَّصرُ إلا على أَيديكَ خِذْلان
ويا مُنِيلَ المعالي والنَّدى كرمًا ... الربح من غيرِ هذا البابِ خُسران
مولايَ، هل لِفتى بالبابِ مَعذرَةٌ ... فعقلهُ في جلالِ الملكِ حيرانُ؟!
سعى على قدمِ الإخلاصِ مُلتَمِسًا ... رضاك، فهْوَ على الإقبالِ عُنوان
أَرى جَنابَكَ رَوضًا للندى نَضِرًا ... لأَنّ غُصنَ رجائي فيه رَيَّان
لا زالَ مُلكُكَ بالأنجالِ مُبتَهِجا ... ما باتَ يُثني على عَلياكَ إنسان

«وقال مهنئًا للخديو عباس بولادة إحدى الكريمات»

أعطى البريةَ إذ أَعطاكَ باريها ... فهل يُهنِّيك شعري أَم يُهنِّيها؟
أَنت البرية، فاهنأ، وهْيَ أَنت، فمَنْ ... دعاكَ يومًا لِتهنا فهْو داعيها
عيدُ السماءِ وعيدُ الأَرضِ بَينهما ... عيدُ الخلائِقِ قاصيها ودانيها
فبارَكَ اللهُ فيها يومَ مَولِدِها ... ويومَ يرجو بها الآمالَ راجيها
ويومُ تُشرِقُ حوْلَ العرشِ صبيتُها ... كهالةٍ زانتِ الدنيا دَراريها
إنّ العنايةَ لمَّا جامَلَتْ وعَدَتْ ... أَلا تَكُفَّ وأَن تَتْرَى أياديها[3]
بكلِّ عالٍ من الأَنجالِ تحسَبه ... من الفراقِدِ لو هَشَّتْ لرائيها
يقومُ بالعهدِ عن أَوفى الجدودِ به ... عن والدٍ أَبلجِ الذِّمَّاتِ عاليها
ويأْخذُ المجدَ عن مصرٍ وصاحبها ... عنِ السَّراةِ الأَعالي من مواليها
الناهضين على كرسيِّ سُؤددها ... والقابضين على تاجَيْ مَعاليها
والساهرين على النيل الحفيِّ بها ... وكأسها وحُمَيَّاها وساقيها
مولاي، للنفسِ أن تُبدي بشائِرَها ... بما رزقتَ، وأَن تهدي تهانيها
الشمسُ قدرًا، بلِ الجوْزاءُ منزلةً ... بَل الثُّرَيَّا بل الدنيا وما فيها
أُمُّ البنينَ إذا الأَوطانُ أَعوزَها ... مُدبِّرٌ حازمٌ أَو قلَّ حاميها
مِنَ الإِناثِ سِوى أَنّ الزمان لها ... عبدٌ، وأَنَّ الملا خُدّامُ ناديها
وأَنها سرُّ عباسٍ وبضعتُهُ ... فهْيَ الفضيلةُ، مالي لا أُسمِّيها؟!
أَغرُّ يستقبلُ العصرُ السلامَ به ... وتشرقُ الأَرضُ ما شاءَتْ لياليها

عالي الأَريكةِ بين الجالسين، له   منَ المفاخر عليها وغاليها
عباسُ، عِشْ لنفوسٍ أَنت طِلْبَتُها   وأَنت كلُّ مُرادٍ من تناجيها
تُبدي الرجاءَ وتدعوهُ ليَصْدُقها   والله أَصدق وعدًا، وهْوَ كافيها

بَيْني وَبَيْنَ أَبي الْعَلاَءِ

بيني وبين أَبي العلاءِ قضيَّةٌ   في البِرِّ أَسْتَرْعِي لها الحُكماءَ
هُوَ قدْ رأَى نُعْمى أَبيه جِنايةً[٤]   وأَرَى الجِنايةَ من أَبي نعْماءَ

دَوَاءُ الْمُتَيَّم

دَاوِ المُتَيَّمَ، دَاوِهِ   من قَبْلِ أَنْ يَجِدَ الدَّوا
إِنَّ النَّواصِحَ كلَّهُمْ   قالوا بتبدِيلِ «الهوا»[٥]
فتَحْتُمُوا بابًا على صَبِّكم   لِلصّدِّ، والهَجْرِ، وطُولِ النَّوى
فلا تَلومُوهُ إِذا ما سَلا   قد فُتِحَ البابُ ومرَّ «الهوا»[٦]

وَكَتَبَ عَلَى صُورَةٍ مُهْدَاةٍ لِصَدِيق

سَعَتْ لكَ صُورَتِي، وأَتاكَ شَخْصِي   وسارَ الظِّلُّ نحوَكَ والجِهاتُ
لأَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكَ وهْيَ أَصلٌ   وحيثُ الأَصلُ تَسْعَى المُلْحَقات
وهبْها صورَةً مِن غيْرِ رُوح   أَليس من القَبُولِ لها حياةُ؟!

هوامش

(١) هو توفيق بن «إسماعيل».

(٢) لامرتين: شاعر فرنسا العظيم، وقصيدته عن «البحيرات» ذائعة وقد تُرْجِمَت إلى العربية مرات.

(٣) تترى: متواترة متتابعة، وقد استعملها الشاعر هنا بمعنى تتواتر.

(٤) يشير إلى قول أبي العلاء المعرى:

هذا جناه أبي عليَّ، وما جنيت على أحد

وأبو العلاء لم يتزوج ولم ينجب.

(٥) يستعمل الشاعر كلمة «الهوا» على طريقة الإيهام عند البديعيين فيقصد معنى ويوهم معنى غيره، والهوا «مقصور الهواء» غير الهوى بمعنى العشق والمحبة.

محجوبيات

«كان بين الشاعر والدكتور محجوب ثابت صلة متينة من الود، وكان بينهما مسامرات ومداعبات أوحت إلى الشاعر ببعض ما ننشره بعد من شعر الفكاهة».

بَيْنَ مَكْسُويني وَالأُوتُومُبيلِ

«كان للدكتور محجوب ثابت حصان يرتاد به ما شاء من أحياء القاهرة في أيام الثورة، وكان أصدقاؤه يُسمُّون حصانه «مكسويني» وهو اسم بطل أيرلندي مشهور انتحر جوعًا؛ يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه وعدم العناية به».

«وقد استبدل به الدكتور محجوب سيارة، فنظم الشاعر هذه القصيدة يداعب الدكتور ويعزي حصانه. وقد نُشِرَت هذه القصيدة في سنة ١٩٢٤».

لكم في الخطِّ سيَّارَهْ … حديثُ الجارِ والجارَهْ
(أَوفْر لانْدُ) يُنبِّيكَ … بها القُنْصُلُ (طَمَّارَه)[١]
كسيَّارةِ (شارْلوتَ) … على السَّواقِ جبَّارَهْ[٢]
إذا حَرَّكَهَا مالتْ … على الجنْبَيْنِ مُنْهَارَهْ!
وقد تَحْرُنُ أَحيانًا … وتمشِي وحدَها تارَهْ
ولا تُشْبِعُها عَيْنٌ … مِنَ (البِنزينِ) فوَّارَهْ
ولا تُرْوَى من الزَّيْتِ … وإن عامَتْ به الفاره
ترى الشارعَ في ذُعْرٍ … إذا لاحَتْ من الحاره

وصِبْيانًا يَضِجُّونَ   كما يَلقَوْن طَيَّاره
وفي مَقدَمِها بوقٌ   وفي المُؤْخِرِ زَمّاره
فقد تَمشي مَتى شاءَتْ   وقد ترجِعُ مُختاره
قضى اللهُ على السَّوَّا   ق أَن يجعلها داره!
يُقَضّى يَومَهُ فيها   ويَلْقَى الليلَ ما زاره!
أَدُنيا الخيلِ (يا مَكسِي)   كدُنيا الناسِ غدّاره؟!
لقد بَدَّلك الدهرُ   من الإقبالِ إِدباره
فصبرًا يا فتَى الخيلِ   فنفْسُ الحرِّ صَبَّاره
أَحقٌّ أَنّ (مَحجوبًا)   سَلا عنك بفَخَّاره؟
وباعَ الأَبْلَقَ الحُرَّ   (بأوفرْ لانْد) نَعَّاره؟
ولم يَعرِفْ له الفضلَ   ولا قدَّرَ آثاره
قد اختارَ لك الشَّلْحَ   وما كنتَ لتَختاره
فسَلْه: ما هو الشَّلْحُ؟   عسى يُنْبيكَ أَخباره
كأَن لم تَحمِلِ الرَّا   يةَ يومَ الرَّوْع والشَّاره[٣]
ولم تَركبْ إِلى الهوْلِ   ولم تحمِلْ على الغاره
ولم تَعطِفْ على جَرْحَى   من الصِّبيةِ نَظَّاره
فمضروبٌ برَشَّاش   ومَقلوبٌ بغَدّاره
ولا والله ما كلَّفـ   ـتَ (محجوبًا) ولا باره
فلا البِرْسيمُ، تَدْرِيهِ   ولا تعرِف نَوَّاره!
وقد تَرْوَي على (صُلْتٍ)   إِذا نادَمْتَ سُمَّاره[٤]
وقد تَسكَرُ من خَوْدٍ   على الإِفريزِ مِعْقاره
وقد تشبَعُ يا ابنَ الليْلـ   ـلِ من رَنّةِ قِيثاره!
عسَى اللهُ الذي ساقَ   إِلى (يوسُفَ) سَيّاره
فكانت خَلفهم دُنيا   له في الأَرضِ كباره
يهيِّي لك هَوّارًا   كريمًا وابنَ هَوَّاره[٥]
فإِن الحظَّ جَوّالٌ   وإِنّ الأَرضَ دَوّاره!

مَكْسويني ...

«وهذه مداعبة أخرى قيلت في مكسويني حصان الدكتور محجوب أيام الثورة المصرية حين كان الدكتور يرتاد بار اللواء وجريدة الأهرام»

تفدِّيك — يا مَكسُ — الجيادُ الصَّلادِمُ وتفدي الأساةُ النُّطْسُ مَن أَنتَ خادمُ
كأَنكَ — إِن حاربتَ — فوْقكَ عنترٌ وتحتَ ابن سينا أَنت حين تسالِمُ
ستُجْزَى التماثيلَ التي ليس مِثلُها إِذا جاءَ يومٌ فيه تُجزَى البهائِم
فإِنك شمسُ، والجيادُ كواكبٌ وإِنك دينارٌ، وهُنَّ الدراهم
... مثالٌ بِساحِ البرْلمانِ مُنصَّبٌ وآخرُ في (بارِ اللِّوا) لك قائم
ولا تظفرُ (الأَهرامُ) إلا بثالثٍ «مزاميرُ» داودٍ عليه نَواغِمُ[٦]
وكم تَدَّعِي السُّودانَ يا مَكس هازلاً وما أَنت مُسْوَدٌّ، ولا أَنت قاتم
وما بكَ مما تُبصرُ العينُ شُهبةٌ ولكن مشِيبٌ عَجَّلتْهُ العظائم
كأَنك خيْلُ التركِ شابَت مُتونُها وشابت نَواصيها، وشاب القوائم
فيا رُبَّ أَيامٍ شهدْتَ عصيبةٍ وقائعُها مشهورةٌ والملاحِم!

ذَخِيرَةٌ

«وهذه مداعبة أخرى — لم تكمل — نظمها في أيام الثورة وهو يشير فيها إلى ألفي جنيه كان الدكتور محجوب قبل اكتنزها وحرص عليها في بنك حسن باشا سعيد ...»

قل لابن سِينا: لا طَبيـ ـبَ اليومَ إلا الدرْهمُ
هو قبلَ بقراطٍ وقبْـ ـلَكَ للجِراحةِ مَرْهم
والناسُ مُذ كانوا عليـ ـه دائرون وحُوَّم
وبِسحْره تعلو الأَسا فِلُ في العيونِ وتعظُم
يا هل تُرى الأَلفانِ وقـ ـفٌ لا يُمسُّ ومَحرَم؟!
بنكُ «السَّعيدِ» عليهما حتى القيامةِ قيِّم
لا «شِيكَ» يظهَرُ في البُنو ك ولا «حِوالَةٌ» تُخصَم!
وأَعَفُّ مَنْ لاقيتَ يلقـ ـهُ فلا يتكرّم!
... ...

بَرَاغِيثُ مَحْجُوب

بَرَاغِيثُ مَحجوب لم أَنسَها ... ولم أَنسَ ما طَعِمَتْ من دمي
تشقُّ خَراطيمُها جَوْرَبى ... وتنفُذُ في اللحم والأَعظُمِ!
وكنتُ إذا الصيَّفُ راح احتَجمْـ ... ـتُ فجاءَ الخريفُ فلم أحجَم
تُرَحِّبُ بالضَّيف فوقَ الطـ ... ـريقِ، فبابِ العيادةِ، فالسُّلَّم
قد انتشَرَت جوْقَةً جَوقةً ... كما رُشَّتِ الأَرضُ بالسِّمسِم!
وتَرقصُ رَقصَ المَواسي الحِدادِ ... على الجِلدِ، والعَلَقِ الأَسحم
بواكيرُ تَطلعُ قبل الشِّتاءِ ... وتَرفعُ أَلوِيةَ الموْسِمِ
إذا ما «ابنُ سينا» رَمى بلغمًا ... رأَيتَ البراغيثَ في البَلغم
وتُبصِرُها حول «بيبا» الرئيس[٧] ... وفي شارِبيْهِ وحولَ الفَم!
وبيْنَ حفائِرِ أَسنانِه ... مع السُّوسِ في طلبِ المَطْعَم!

هوامش

(١) الشيخ طمارة: كان إمامًا بالمفوضية المصرية في واشنطن.

(٢) يعني شارلي شابلن الممثل الهزلي المشهور.

(٣) يشير إلى ملازمته أباه في أبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩.

(٤) مشرب عام في القاهرة كان يرتاده الصفوة من سكان القاهرة ونزلائها.

(٥) هوارة: قبيلة عربية يشتهر بنوها بالكرم، ومنها بطن تستوطن صعيد مصر.

(٦) نحسبه يعني المأسوف عليه داود بركات رئيس الأهرام لذلك العهد.

(٧) ابن سينا، والرئيس: كناية عن الدكتور محجوب نفسه، ومن الأشياء الحبيبة إليه التدخين في «البيبا».